

# الحياة و الموت في شعر عهد بني أيوب 567 - 648 هـ

مرسالة تقدمت بها

ليلى عبد الحميد علي الهنداوي

إلى

مجلس كلية التربية للبنات - جامعة بغداد

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في  
اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ الدكتور ناظم رشيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ

خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمِ

المؤمنون  
ج29:18

## الإهداء

إلى نجواي بغداد ... القدس

خُذِي كَفِي وَقِصِّي لِي أَحَادِيثًا لَهَا أَصْبُو  
لَكِي اِغْدُو بِهَا نَشْوَى فَتَذْكَارُ الْهَوَى عَذْبُ  
وَدَوْبِي مِثْلَمَا أَفْنَى فَمَا هَذَا لَنَا ذَنْبُ  
فَإِنْ قَالُوا وَإِنْ لَامُوا فَقُولِي إِنَّهُ الْحَبُّ

تَعَالَى وَلَنْطَفُ بِالنَّاسِ هَلْ فِيهِمْ لَنَا خِلُ  
وَهَلْ نَلْقَى الْوَفَا يَوْمًا فَعَنَهُ النَّاسُ قَدْ ضَلُّوا  
وَإِنْ لَاقَيْتِ مَنْ وَافَى فَقُولِي: إِنَّهُ الْكُلُّ  
وَصُوبِي مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ كَاسَاتٍ لَهُ تَحْلُو

تَعَالَى نَمزُجُ الْأَهَاتِ بِالضَّحَكَاتِ وَلَنْمَرُخُ  
غَدًا مَوْتَ وَأَكْفَانَ وَلَمْ نَسْعُدْ وَلَمْ نَفْرُخُ  
إِلَامَ الْعَيْشِ فِي شَاكٍ ثَقِيلِ الْعَبءِ لَا يَبْرُخُ  
فَعَيْشِي وَإِنْ هَلِي حُبًّا فَمَنْ يَلْقُ الْهَوَى يَرِيحُ

دَعِينَا مِنْ حَدِيثِ الْحُبِّ وَلِنَبِكَ لَمَّا مَرَّا  
أَوْ أَسْقِينِي ثَمَالَاتٍ غَدَّتْ لَدَاتُهَا صَبْرًا  
وَزَيْدِينِي فَمِنْ يَأْسِي تَلْظُتْ مَهْجَتِي جَمْرًا  
مَضَى أَمْسِي وَقَدْ أَوْدَى وَبَاتَتْ عِنْدَنَا الذِّكْرَى  
غَدًا آتٍ وَمِنْ يَدْرِي فَقَدْ نَلْقَى بِهِ أَمْرًا!!!

ليلى

## إقرار المشرف

اشهد أن إعداد هذه الرسالة الموسومة بـ «الحياة والموت في شعر عهد بني  
أيوب, 567-648هـ» المقدمة من قبل الطالبة «ليلى عبد الحميد علي الهنداوي»  
جرت تحت إشرافى في قسم اللغة العربية، كلية التربية للبنات/جامعة بغداد،  
وهي جزء من متطلبات نيل درجة ماجستير آداب في اللغة العربية.

المشرف

الأستاذ الدكتور ناظم مرشيد

2004/ /

بناء على التوصيات المتوافرة، أشرح هذه الرسالة للمناقشة .

الأستاذ المساعد الدكتور

حسن مندبيل حسن

مؤسس قسم اللغة العربية

2004/ /

## إقرار لجنة المناقشة

نحن رئيس وأعضاء لجنة المناقشة اطلعنا على الرسالة الموسومة "الحياة والموت في شعر عهد بني ايوب 567-648هـ" المقدمة من قبل الطالبة ليلى عبد الحميد علي الهنداوي، وناقشنا الطالبة في محتوياتها، وفيما له علاقة بها، ونعتقد بأنها جديرة بالقبول بتقدير ﴿ لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها. ﴾

التوقيع: الاسم: أ.م.د. فاضل عبود التميمي (عضو)  
التوقيع: الاسم: أ.م.د. أنعام داود سلوم (عضو)

التوقيع: الاسم: أ.د. ناظم مرشيد (المشرف) (عضو)  
التوقيع: الاسم: أ.د. صبحي ناصر حسين (رئيس اللجنة)

صدقت الرسالة من قبل مجلس كلية التربية للبنات - جامعة بغداد

التوقيع :  
الاسم: أ.د. ناظم مرشيد  
عميد كلية التربية للبنات - جامعة بغداد  
التاريخ: / / 2004

## ثبت المحتويات

الصفحة	الموضوع
أ	المقدمة.....
1	التمهيد: معادلة الحياة والموت: موضوعا شعريا.....
17	الفصل الأول: المجتمع الأيوبي، واقعه وأثره في رؤى الشعراء الفكرية..
17	1. المجتمع الأيوبي.....
25	2. واقع الحياة في المجتمع الأيوبي:.....
25	- الحياة السياسية.....
36	- الحياة الدينية.....
50	- الحياة الاجتماعية.....
67	- الحياة الأدبية.....
78	3. أثر المجتمع الأيوبي في رؤى الشعراء الفكرية.....
88	4. شعراء العهد الأيوبي ورؤاهم.....
105	الفصل الثاني: منظور الشعراء للحياة والموت في أبعاده الفكرية.....
108	1. البعد السياسي.....
138	2. البعد الديني.....
165	3. البعد الاجتماعي والأخلاقي.....
188	4. البعد النفسي (الوجداني).....
240	الفصل الثالث: الملامح الفنية في شعر الحياة والموت:.....
241	1. اللغة والأسلوب.....
253	2. الصورة الشعرية.....
269	3. الصنعة البديعية.....
282	4. الاقتباس والتضمين.....
293	الخاتمة.....
299	المصادر والمراجع.....
	الخلاصة باللغة الإنكليزية.....



Formatted: Position: Horizontal: 1.25", Relative to: Page, Vertical: -0.12", Relative to: Paragraph, Width: Exactly 0.24", Height: Exactly 0.46"

## بسم الله الرحمن الرحيم

### المقدمة

Formatted: No underline

العربُ قومٌ يتعشقون الكلمة الحلوة-، ويطيرون لسماع اللحن العذب-،  
ويقيمون الأسواق والمواسم تحقيقاً لمتعة السماع، والشعر جبلة فطروا عليها، وسجية  
متأصلة في نفوسهم، يولد معهم ويعيش داخلهم ويجري على ألسنتهم، فلا غرو أن  
يقول الرسول ﷺ: لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين (1).

لذا احتفظ الشعر بمكانته المرموقة كفنأ يتمتع بالحيوية من خلال قيمة قيمه  
الإنسانية النبيلة، ولقد كان الشعر وما يزال راصداً رؤية الإنسان لنفسه وللأشياء من  
حوله مييناً علاقات الإنسان بما حوله وتفاعله المستمر مع الحياة وحواره مع  
شخصها باسطة" لنا عبر اللغة آماله وآلامه وتطلعاته بالكلمة  
المنغومة الموحية، وبتجاربه الإنسانية، ولن ينضب معينه أبداً.

ومن كرم الشعر أن نتمثل يقول النمر بن تولب توسلاً (2): (3):

أعذني رب من حصر وعيٍ ومن نفس أعالجها علاجاً

Formatted: Font: 14 pt, Complex Script Font: 14 pt, Superscript

Formatted: Font: 14 pt, Complex Script Font: 14 pt

Formatted: Font: 14 pt, Complex Script Font: 14 pt, Superscript

Formatted: Font: 14 pt, Complex Script Font: 14 pt, Superscript

Formatted: Font: 14 pt, Complex Script Font: 14 pt

Formatted: Font: 14 pt, Complex Script Font: 14 pt, Superscript

إن الموضوعات الإنسانية في تجدد مستمر، وموضوع (الحياة والموت في  
شعر عهد بني أيوب 648.567 هـ) إنما هو حلقة تكمل سلسلة دراسات أدبية سابقة،  
سيتم التنويه عنها في (التمهيد)، وكانت تلك الدراسات معينا ثراً أعانت البحث،  
مع تباين الحقبة الزمنية، وتميزها الشديد بسبب (الحروب الصليبية)، وأثرها في تلون  
الأدب بألوان شتى من الأغراض الشعرية والرؤى الفكرية والثقافية التي صورت الحياة  
الأيوبية وظروفها وأحداثها وجسدت صور الموت في الجهاد وقتال الأعداء.

(1) العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده-: 30/1.

(2) أغاني: 284/22.

(2) أغاني: 284/22.

Formatted: Font: 12 pt, Complex Script Font: 12 pt, Superscript

Formatted: Right-to-left

Formatted: Font: 12 pt, Complex Script Font: 12 pt

Formatted: Font: 12 pt, Complex Script Font: 12 pt, Superscript

Formatted: Font: 12 pt, Complex Script Font: 12 pt



وأما ما يخص خطة الدراسة فقد تضمنت تمهيداً<sup>١</sup>، حاولت فيه تقديم (المقامة) موجزة عن الحياة والموت من منظور الشعر العربي بالإشارة إلى الدراسات السابقة. موضوع الحياة و الموت معادلةً تغلغت في النسيج الشعري لكافة الشعراء في كل عصر وزمان، مع الإشارة إلى الدراسات السابقة التي أسهبت ووفت.

وتحققت الدراسة في ثلاثة فصول، الفصل الأول: خصص لدراسة المجتمع الأيوبي وأثره في رؤى الشعراء الفكرية، متضمنا:

1. المجتمع الأيوبي 2. واقع الحياة في المجتمع الأيوبي: السياسية والدينية والاجتماعية والأدبية. - 3. أثر المجتمع الأيوبي في رؤى الشعراء الفكرية. 4. شعراء العهد الأيوبي ورؤاهم.

تتأول هذا الفصل ما حول الأدب من حياة نشأ فيها، ومدته بألوان من التغذية، جعلته ذا مظهر خاص به، وطعم يميزه عما سواه، والقصد بـ(ما حول الأدب)، تلك البيئة التي عاش في كنفها، وذلك الفضاء الذي تنفس فيه. والحياة السياسية، التي يمكن عدها (القمة) التي تربعت كل ألوان الحياة الأدبية والدينية والاجتماعية، وغزت أحداثها وتقلباتها أكناف المجتمع الأيوبي عامة". من هنا برزت أهمية ما تضمنه الفصل الأول، ليكون المنهل الذي تستقي منه فصول الدراسة الأخرى خواطرها ورؤاها، بنظرات شاملة شاملة تبين ملامحه السياسية والدينية والاجتماعية لما لذلك كله من صلة وثيقة بالأدب وأهمية كبرى في فهمه وتدوقه وتحليل صور الحياة والموت في أشعاره.

وشمل الفصل الثاني (منظور الشعراء للحياة والموت في أبعاده الفكرية):

- 1- البعد السياسي. - 2- البعد الديني. 3- البعد الاجتماعي والأخلاقي.
- 4- البعد النفسي (الوجداني).

إذ ركز هذا الفصل على دراسة الحياة والموت في الأبعاد الفكرية من خلال دواوين الشعراء التي أسعفت البحث بنصوصها، وأوضحت العلاقة الجدلية بين الأبعاد الشعرية وصور الحياة والموت .

وأخيراً" الفصل الثالث (الملاحق الفنية في شعر الحياة والموت) وشمل:



1- الصورة الشعرية للغة والأسلوب. 2- الصورة الشعرية للغة والأسلوب. 3-  
الصنعة البديعية. 4- الاقتباس والتضمين .

وتضمنت الصورة الشعرية، ملمحاً فنياً لصور الحياة والموت في شعر  
الجهاد استحقاقاً للدور الفاعل الذي حققه الجهاد الإسلامي للمجاهدين، فملاً الحياة  
الأيوبية، واحتضن عوالم الشهادة، وانزل الموت والفناء بالأعداء.  
وجاءت خاتمة البحث موضحة النتائج التي توصلت إليها.

وبعد الاعتماد على الله سبحانه، اعتمدت الدراسة دواوين الشعراء الذين توفرت  
دواوينهم، بغض النظر عن إقليمية الشاعر، مع الاستفادة من كتب التاريخ والأدب  
والنقد والبلاغة، وكان لكتاب (خريدة القصر وجريدة العصر للعقاد الاصبغاني)  
حضور واضح في ترسيخ لبنات الدراسة .

وعذراً إن بدا إسرافاً في الإفادة من كتب دراسة الشخصية وعلم النفس  
والاجتماع، ومرد ذلك إلى عمق العلاقات بين النتاج الأدبي للشعراء وبين النفس  
الإنسانية وخلجاتها، وتأثير شخصية الفنان على إبداعه وتميزه، وعمق استجاباته  
لمجتمعه وأحواله.. والسبب الثاني هو الولوج بتلك الدراسات النفسية بشكل خاص في  
الحياة العملية والتربوية.

وخصت مقدمة العلامة ابن خلدون، بنصيب وافر في توجيه  
(مجتمع) الدراسة لما فيها من مضات توثيقية لتدعيم بعض الأفكار والآراء.

وللحق أقول: إن هذه الدراسة عصاره لمجهود، شاءت الرعاية الإلهية أن  
يبصر النور، جهود شخصية استنفذت استنفذت كل ما أمكن من صبر ومعاناة،  
فكانت الجذاذات رفيقات السهر المضني، والكتب أصدقاء.. أصدقت البحث  
وأغنته . إن شاء الله . مكلفة تلك الجهود، بعلم ورأي وحرص ومتابعة ونفس الأستاذ  
الدكتور ناظم رشيد مشرفاً، ولن يعجز القلم عن الثناء عليه، واعترافاً الاعتراف  
بفضله وكرمه علمه، يصح في شخصه قول الرسول الكريم محمد ﷺ إذا أردتم أن  
تعلموا ما للعبد عند الله فانظروا ماذا يتبعه من الثناء صدق رسول الله ﷺ،



Formatted: Position: Horizontal: 1.25", Relative to: Page, Vertical: -0.12", Relative to: Paragraph, Width: Exactly 0.24", Height: Exactly 0.46"

ويصح في شخصه قول الرسول الكريم ﷺ إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند الله

Formatted: Font: 22 pt, Complex Script Font: 22 pt

Formatted: Font: 17 pt, Complex Script Font: 17 pt

Formatted: Font: 20 pt, Complex Script Font: 20 pt

فانظروا ماذا يتبعه من الثناء<sup>(1)</sup>. صدق رسول الله ﷺ.

Formatted: Font: 14 pt, Complex Script Font: 14 pt, Superscript

Formatted: Font: 14 pt, Complex Script Font: 14 pt

Formatted: Font: 14 pt, Complex Script Font: 14 pt, Superscript

وأتوجه بالشكر والتقدير لأساتذة قسم اللغة العربية . جميعاً- وعلى وجه الخصوص الأستاذ المساعد الدكتور حسن منديل رئيس القسم.

Formatted: Font: 20 pt, Complex Script Font: 20 pt

Formatted: Font: 22 pt, Complex Script Font: 22 pt

وكما يوجب الشكر والتقدير للأستاذ الدكتور احمد إسماعيل الأنعمي لما أبداه من عون ولم يبخل بنصيحة أو توجيه.

ولن يفوتني توجيه الشكر الجزيل للأخ الأديب والصحفي (سمير النشمي) لما

رقد البحث من مصادر وتوجيه وآراء.

وتستحق (المصديقات) ذكرى وشيماً وعلياء، كلمات الشاء إذ كن كالبلسم الشافي

لجراحات الحياة الدراسية والكتابية.

وختاماً<sup>٢</sup>، وختامها مسك كما يقال، فمن واجبات المحبة العميقة، يبدو الشكر

عاجزاً<sup>٣</sup> ليفي ((رفيق الحياة)) حقه، لا من أجل صبره ومواساته وتشجيعه<sup>٤</sup>، خلال في مرحلة الدراسة والكتابة.. بل لمواقفه النبيلة خلال رحلة العمر.

وبعد ....

فمن فضائل الله سبحانه على عباده، أن جعل العمل عبادة<sup>٥</sup>، وأمر رسوله

الكريم بأحاديثه الشريفة، بإقالة الزمن المحدد في طلب العلم، فجعله ﷺ (من المهد

Formatted: Font: 20 pt, Complex Script Font: 20 pt

إلى اللحد<sup>٦</sup>)، وبذا بدا واضحاً أن الهدف الأسمى لكل إنسان هو تحقيق ألذات الذات،

Formatted: Font: 20 pt, Complex Script Font: 20 pt

وكل ما حققه الإنسان باتجاه تحقيق ألذات الذات، سيقى هذا الهدف في الأفق يحرك الإنسان ويدفعه للقيام بمحاولات وجهود وخطوات أخرى جديدة لتحقيق طموحاته المتجددة.

وأخيراً<sup>٧</sup>.. الحمد لله الذي بنعمته تكمل الصالحات، وصلى الله على سيدنا

محمد أشرف الكائنات، وعلى آله وصحبه نجوم الهداية والخيرات وسلم تسليمًا

كثيراً<sup>٨</sup>. فإن أصبت 'خيراً' وفضلاً<sup>٩</sup> فهو منة من الله سبحانه، وإن تكاثرت الهنات'

Formatted: Font: 12 pt, Complex Script Font: 12 pt, Superscript

Formatted: Superscript

Formatted: Not Superscript/ Subscript

Formatted: Font: 12 pt, Complex Script Font: 12 pt, Superscript

(1) شرح الزرقاني: 319/4 ، وأيضاً: موطأ مالك: 904/2.



المقامة

**Formatted:** Position: Horizontal: 1.25", Relative to: Page, Vertical: -0.12", Relative to: Paragraph, Width: Exactly 0.24", Height: Exactly 0.46"

والمساوىء' فهي من نفسي وتقصيري، وأنضرع' إلى الله تعالى أن يثيبني على هذا  
بمقدار إخلاصي فيه لوجهه، فهو حسبي ونعم الوكيل.

النمط

معاملة الحياة والموت: موضوعاً شعرياً

## التمهيد:

لا ريب أن آية الحياة والموت، شكلتا جزءاً كبيراً من وجود الإنسان . إن لم نقل جميعه . واحتل القلق والحيرة ذهنه، وهو يواكب هذه الديمومة الحياتية الرتيبة ما بين الحياة ومتطلباتها وبين سطوة الموت، الذي هو نقيض الحياة<sup>(1)</sup>، لما يكتنفه من غرابة تثير العجب في النفس البشرية، ويبقى سر الحياة والموت لصيقاً بقلوب البشر، له تأثير مباشر في النفوس، ومنذ أقدم العصور، ويبدو هذا السر ظاهرة بارزة ومكررة في كل ما يقع عليه حس الإنسان، الإنسان الذي ينزع نزوعاً أبدياً إلى الحياة، فهو كائن مجبول فطرياً على حب الحياة وإلى أن يمارسها بكل امتلاء وحيوية، وأن يحيها بلا انقطاع أو عراقيل<sup>(2)</sup>.

فيما روي عن الرسول محمد ﷺ قوله «ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو يتمنى يوم القيامة أنه لم يعط من الدنيا إلا قوتاً»<sup>(3)</sup>. وما هذه الأمنية أمام حب الحياة والتعلق بها بعد أن غدا الموت الحقيقة الكبرى في الحياة؟ وهنا تتباين وجهات النظر ويبدأ الصراع الفكري للإنسان، الذي قد يفضي به إلى الإيمان المطلق بالحياة والموت عقائدياً، أو قد يفضي به إلى القلق من منطلق الحرص على الحياة والخوف من الموت بعيداً عن أي اعتبار عقائدي.

ووقف الشعراء . كدأبهم . يصورون قضايا الدنيا الكثيرة، وحازت مشكلة الحياة والموت حيزاً كبيراً من تأملاتهم في فنهم: فن الشعر، (ولاشك أن الشعر من أقدر الأنواع الأدبية على تصوير التجربة الإنسانية في مواجهة الكون والحياة)<sup>(4)</sup>، فن التعبير عن فهم الإنسان للكون وما يتصل به من خلال النفس والوجدان، للتعبير عن الألم والأمل، بما يحويانه من عمق وترقب لكل دقائق الحياة.

وبما أن الحياة العربية قامت قبل الإسلام على نظام القبيلة، فقد اقتضى هذا النظام القبلي أن يكون الشاعر مسجلاً لمآثر قومه، قال ابن رشيق (ت 456هـ):

(1) ينظر: الموت والعبقريّة: 5.

(2) ينظر: الحياة والموت في القرآن الكريم (دراسة أدبية دلالية): المقدمة أ، (رسالة ماجستير).

(3) التفسير المعين للواعظين والمتعظين: 584، وأيضاً: تاريخ بغداد: 7/4.

(4) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي: 13.

(كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها... لأنه حماية لأعراضهم, وذب عن أحسابهم, وتخليد لمآثرهم)<sup>(1)</sup>, والعرب تتشد الشعر للغناء بمكارم أخلاقها, وطيب أعرافها, ودليل ذلك قول أبي تمام:<sup>(2)</sup>

ولولا خلال سنّها الشعرُ ما درى بُغاةُ الندى من أين توتى المكارم؟

ولا يفوتنا القول أيضاً, إن الشعر يُعدُّ من أشرف الكلام عند العرب وأقدسّه كما قال ابن خلدون (ت 808 هـ): (اعلم أنّ الشعرَ من بين الكلام كان شريفاً عند العرب, ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم)<sup>(3)</sup>.

وفي صحرائه كان الإنسان الجاهلي أمام الموت وجهاً لوجه, فالعمر والحياة كنز ناقص, والموت إذا أغفل بعض الناس فطال عمرهم فهم لا يخرجون عن قدرته وسلطانه, ولا مناص للمرء من الموت, يصور طرفة بن العبد ذلك بقوله:<sup>(4)</sup>

أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ لَيْلَةٍ      وما تتقصُّ الأيامُ والدَّهرُ يَنقُذُ  
لَعْمُرِكَ إِنَّ المَوْتَ, ما أخطأ الفتى,      لكالطَّوْلِ المُرْخَى وثنياءُ باليدِ  
متى ما يشأ يوماً يقدهُ لَحْتَفِهِ      ومَنْ يَكُ في حبلِ المنيّةِ يَنقُدُ

فالموت إذن نهاية يرقبها الإنسان كل يوم, وهو لغز غامض لا يدري الإنسان ما وراء هذا المجهول.

وحدد طرفة ثلاث خلال من صفات الفتى الكريم, ولا يبالي بعدهن متى يموت أو متى يبأس عواده من حياته يقول:<sup>(5)</sup>

فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى      وجدك, لم أحفل متى قام عودي؟

(1) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 65/1.

(2) ديوان أبي تمام: 254.

(3) مقدمة ابن خلدون: 535.

(4) ديوان طرفة بن العبد: 53.

(5) ديوان طرفة بن العبد: 50.

فمنهن سبقي العاذلات بشرية  
 وكري إذا نادى المضاف، محنباً  
 وبقصير يوم الدجن، والدجن 'معجب،  
 كميت متى ما تعل بالماء تزبد  
 كسيد الغضى، نبهته، المتورد  
 ببهكنة تحت الطرف المعمد

وعلى رأي الدكتور احمد أمين، يبدو اعتقاد الشاعر بأن الحياة هي هذه الحياة ولاشيء وراءها، فليتلذ ما أمكن له ذلك<sup>(1)</sup>. وبتحديد طرفة لمسيرة الحياة كالأتي: الخمرة والكُر<sup>(2)</sup>، والاستمتاع بحبائه. فمن البديهي أن تكون للشاعر الجاهلي أسباب تخلق له شاعريته، وأولها، الصحراء التي تغذي الخيال وتثير العاطفة والشعور وتلهم الناس بآيات الشاعرية وموهبتها، فضلاً عن مشاهدتها المنوعة التي تستثير المشاعر والملكات. وتضاف إلى ذلك الأسرة والمجد والمعاناة النفسية الخاصة، التي تمد الشاعر بالعاطفة المتأججة المشتعلة، والملكة القوية الحادة. ومن الأسباب أيضاً رحلات الشاعر وخصومات قومه، وأخيراً فطرته وصفاته وخلقه، فحدة الذهن واضطراب الشعور وثوران العواطف والتهاب المشاعر، كل ذلك من أسباب الشعر وبواعثه في نفس الشاعر مما يحدد مواقفه من صراعه الدائم مع الحياة والموت، والشاعر الجاهلي متشائم في الغالب، وهو لا يتأمل الحياة ولا يبدي رأيه فيها إلا حين يدفعه إلى ذلك ما يصادفه من ألم وحزن، ومن تعرض لجوانب الحياة غير البهيجة وانعكس ذلك على صورته وتعبيراته<sup>(3)</sup>.

لقد أبدع زهير بن أبي سلمى في قصيدة له قائلاً:<sup>(4)</sup>  
 ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى  
 من الأمر، أو بيد لهم ما بدا ليا

(2) ينظر: الصلعة والفتوة في الإسلام: 13.

(3) الكر: الحرب يعدها الشباب المتحمسون إحدى ملاذ الحياة.

(4) لمزيد من المعلومات، ينظر (الحياة والموت في الشعر الجاهلي): 337-338.

(1) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: 188، 144.

ويستمر في سرد (ما يبدو له في الحياة) بشكل واضح, لا غرابة فيه, إنه خطاب النفس في لحظة قناعات بعد تأمل وتمعن في ماهية الحياة ولا يبدو كلامه قيل على فلسفة ولا معرفة بمذاهب المنقلسفين القدماء وإنما هي خطرات لعقل ذكي قوي الملاحظة، يقول:

بدا لي أن الناس تفنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا  
أراني إذا ما بتت على هوى وأني إذا أصبحت أصبحت غاديا  
إلى حفرة أهدى إليها مقيمة يحث إليها سائق من ورائيا

فالحياة لا خلود فيها ولكن الجبال خالدة، وهذا ما يزيد إحساس الشاعر بحدة المفارقة يقول:

ألا لا أرى على الحوادث باقيا ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا

وهكذا يدور الموت دوراناً متصلاً عنيفاً في أشعار الجاهليين ينبيء عن تفكيرهم المستمر في معضلته، وخوفهم من ضرباته، وحين يفكرون في لقمان الذي عاش حياة طويلة بدت أبدية، يذكرون أن الموت أدركه في النهاية، كأنما هو في حبل المنية كما يقول طرفة، وكذا تفكيرهم في ذي القرنين، ومن هنا كانت لهم أساطيرهم التي تبحث في الموت والخلود، كما كانت لكل الشعوب القديمة مثل هذه الأساطير<sup>(1)</sup>.

يقول زهير: <sup>(2)</sup>

الم تر أن الله اهلك تبعاً واهلك ذا القرنين من قبل ما ترى  
واهلك لقمان بن عاد وعاديا وفرعون جبارا طغى والنجاشيا

<sup>(2)</sup> ينظر: (الحياة والموت في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث): 14-12، (رسالة ماجستير). وأيضا التفاصيل في (هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي): 21-20، (رسالة دكتوراه).

<sup>(1)</sup> شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: 117.

ويمكن اختصار طريقتهم لفهم الحياة, من خلال أشعارهم التي حملت أفكارهم ومشاعرهم, وقد نحا طرفة بن العبد ومن يماثله منحى الانكباب على الذات, في حين نحا عنتره بن شداد ومن يماثله منحى يمجّد الفروسية والقتال, وبدا زهير بن أبي سلمى في منطقة الحياد بين الدعوة للقوة, ولكن بعيداً عن القتال, وإفساح المجال للخير وتحكيم العقل ولا انكباب على الذات.

وأوجز الشاعر الجاهلي امرؤ القيس لذة الهروب من الموت في الشراب وقرن المتعة بمفهوم الفناء قائلاً:<sup>(1)</sup>

تمتع من الدنيا فإنك فاني      من النشوات والنساء الحسان

وتتسع غريزة المقاتلة عند الفرسان المقاتلين, وتتجسد قوة هذه الغريزة وتحكمها الشديد, فالفروسية موقف في الحياة, والفارس يدخل الحرب من أجل الحرب, لا من أجل الغنائم والأسلاب يقول عنتره:<sup>(2)</sup>

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك      إن كنت جاهلة بما لم تعلمي  
يخبرك من شهد الواقعة أنني      أغشى الوغى وأعف عند المغنم  
ومدجج كره الكماة نزاله      لا ممعن هرباً ولا مستسلم

إنه ينتصر على الموت, لا على فارس بعينه, ويشفي غليله منه, لأنه يرمز للموت الكريه, ومن خيلاء الفرسان, تبدو لهذا الفارس انتصارات على الموت, لا تقارن بانتصار واحد للموت على الفارس.

وهكذا تمضي حياة الفرسان, يسبقون الموت إلى نفوس الأبطال يقول تأبط شراً:<sup>(3)</sup>

إذا هزه في عظم قرن تهلت      نوا جذ أفواه المنايا الضواحك

(2) ديوان امرؤ القيس: 345.

(3) ديوان عنتره: 207.

(1) شعر تأبط شراً: 119.

يرى الوحشة الأنايس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أمّ النجوم الشوابك

هذا الفارس يسبق الموت إلى نفس الأبطال، ويملؤه الإحساس بالنصر على الموت إلا أن الموت لا يحس بالهزيمة، بل هو جذلان، لأنّ روحاً قد سلّت، فيضحك مكشراً عن أنياب غلاظ في أفواه عديدة... ولاعجب أن يكون الدافع لموقف الفارس هو عمق الإحساس بالموت، فيما يرى زهير بن أبي سلمى ومن لف لفه أن استعجال الموت ليس له ما يبهره، هي رؤية جديدة حكيمة للحياة، وللسلم وفي ذلك يقول بلعاء بن قيس الكناني:<sup>(1)</sup>

ومهلاً عن الحرب التي لا أديمها      صحيح ولا تنفك تأتي على سقم  
دعاني يشب الحرب بيني وبينه      فقلت له: لا، بل هلمّ إلى السلم

وإنه لموقف القوي الذي يؤثر الخير على الشر وهو يعلم أن الذي يفِرُّ من الموت لا بد أن يلحقه الموت، فالموقف ليس موقف عجز وفرار، بل موقف القوي الذي يتبع سنة الحياة في عصر القوة. ويفصل زهير موقفه:<sup>(2)</sup>

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه      يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم  
ومن هاب أسباب المنية يلحقها      ولورام أسباب السماء بسلم

أما موقف الشاعر الجاهلي من الحياة، فهو الأكثر إثارة في غزله، فشعراء اللذات لا يخطر ببالهم الهم طويلاً، ومثالهم طرفة، يركب ناقته ليرحل وفي رحلته يودع كآبته يقول:<sup>(3)</sup>

وإني لأمضي الهمّ عند إحتضاره      بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

(2) الحماسة البصرية: 63/1.

(3) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: 31.

(1) ديوان طرفة بن العبد: 34.

ولكن الشعراء الحكماء يواصلون حياتهم وهم يخضعون تجاربهم الوجدانية للحكمة والاعتدال، مواجهة حكيمة للموقف بغير هروب. تتحرك انفعالات الشاعر بحسب مواقف الحبيبة، فهو قويٌّ دائماً يقول زهير: (1)

فصرم حبلها إذ صرّمته وعادي أن تلاقىها العداء

وتبقى المرأة بالنسبة للشاعر رمزاً للحياة واتصالها واستمرارها، وفي لقائها معنى الإقبال على الحياة وهذا ما يفضله الشعراء الفرسان وعلى رأسهم عنتر بن شداد، فالموقف في رأيه موقف حياة أو موت، سعي حثيث للفوز بقلب الحبيبة. كما تعود أن ينتصر على الموت ليحيا، والمرأة تعني الحياة عينها، يقول عنتر: (2)

ولقد ذكرك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي  
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

الشاعر هنا يدفع الموت ويتعلق بالحياة، ينشد الانتصار في كلا الموقفين، فما زالت الحياة بنظره مجاهدة مستمرة، تمحو آثار الخور والخضوع والموت، وتجتمع بين يديه لذتان: النصر، والحياة.

وبمجيء الإسلام، وانتشار عبق النور المحمدي، وضحت الرؤية الشاملة للكون وأسراره، مما حدا إلى ارتقاء الإنسان في تفكيره وتأمّلاته لوضع أهداف وغايات سامية لحياة أفضل. ووصف المرزوقي (ت 421هـ) زمن النبي ﷺ: (زمن الفصاحة والبيان، جعل الله معجزته من جنس ما كانوا يولعون به وبأشرفه، فتحدّاهم بالقرآن كلاماً منتوراً، لا شعراً منظوماً) (3). بينما وصف ابن خلدون (ت 808هـ) العرب آنذاك بقوله: (انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين

(2) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: 92.

(3) جمهرة أشعار العرب: 161 (وقد أدخل ديوانه من ذكر الأبيات، وكذا شرح المعلقات السبع للزوزني)،

وأيضاً شرح ديوان علقمة، طرفة، عنتر: 172

(1) شرح ديوان الحماسة (القسم الأول): 17.

والنبوة والوحي، وما أدهشهم في أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك، وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً<sup>(1)</sup>.

وكانت حكمة الله ﷻ بانقضاء هذه الحياة الدنيا للانتقال إلى حياة خالدة هي الباقية، يقول ﷻ: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾<sup>(2)</sup>، والشاعران الإسلامي والأموي عاشا تحت ظل فكرة القرآن فلم تعد الحياة لغزاً عندهما ومع ذلك ظل يشغلها حب الحياة والبقاء فيها. وأكدت دراسة عبد الرزاق خليفة أن عوالم الشهادة والجنة والنار هي الرؤية الجديدة التي كان للإسلام الفضل في ترسيخها، إذ علم الشاعر الإسلامي أن الخلود الحق هو خلود الآخرة<sup>(3)</sup>. قال ﷻ: ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾<sup>(4)</sup>.

ومن الحقائق الأساسية التي توصلت إليها دراسة عبد الرزاق خليفة هي أن قوة الهاجس الروحي وجدية البحث عن الخلود لدى شعراء صدر الإسلام وضعفه لدى معظم شعراء العصر الأموي عدا شعراء الخوارج، كان بسبب قلة خوض الشعراء الأمويين في مواقف جهادية تستدعي التأمل الروحي<sup>(5)</sup>.

ومن الملاحظات التي وردت في دراسة الباحثة حميدة حسن حول الفكرة نفسها تقريباً قولها ( لا نجد في الشعر الإسلامي والأموي حالات روحانية ووجدانية تظهر فيها التجربة الذاتية والواقع الخاص الذي يبعث في النفس حس الإنسان ومعاناته من الحياة وارتقابه الموت بجأش هادئ وسمت وقور إلا ما ندر...)<sup>(6)</sup>، وعزت الباحثة ذلك إلى انتماء الشعراء إلى الدين انتماء تقليدياً، لا يلج إلى ضمائرهم بعمق مبادئه ولا يتوغل في أنفسهم بحرارة قيمه، ويمكن استثناء الخوارج وشعرائهم

(2) مقدمة ابن خلدون: 547.

(3) العنكبوت: 64.

(4) ينظر: هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي: 224، (رسالة دكتوراه).

(5) المؤمنون: 10، 11.

(6) ينظر: هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي: 225، (رسالة دكتوراه).

(1) الحياة والموت في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي: 10، (رسالة ماجستير).

الذين مثلوا النزعة الزهدية<sup>(1)</sup> التي بنيت عليها أفكارهم وتعمقت حولها آراؤهم في الحياة و الموت، وما اصدق قول قطري بن الفجاءة (ت 77هـ):<sup>(2)</sup>

فصبرا في مجال الموت صبيرا      فما نيل الخلود بمستطاع

ويبدو بيته مستقلا بنفسه، انعطف طرفاه كالحلقة، وكيف الشاعر المعنى بحيث يمكن أن تتضمنه هذه الحلقة فلا يزيد عليها، فإن وفق إلى ذلك، فقد أخرج البيت المنشود على رأي الدكتور عز الدين إسماعيل.<sup>(3)</sup> ومن النماذج الشعرية التي أوجز فيها شاعرها (الصلصال) القول في الحياة والموت والرؤية الإسلامية لهما بعد أن وعظهم الرسول محمد ﷺ موعظة حسنة، ينفذون بها، وأحب قيس بن عاصم أن يخلد موعظته على شكل أبيات من الشعر يفتخرون بها ويدخرونها لتعليم أولادهم، فانبرى (الصلصال) بديهاً في أبيات توافق في معانيها موعظته عليه الصلاة والسلام:<sup>(4)</sup>

تجنب خليطاً من مقالك إنما	قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
ولا بد بعد الموت من أن تعده	ليوم ينادى المرء فيه فيقبل
وان كنت مشغولاً بشيء فلا تكن	بغير الذي يرضى به الله تشغل
ولن يصحب الإنسان من قبل موته	ومن بعده إلا الذي كان يعمل
ألا إنما الإنسان ضيف لأهله	يقيم قليلاً بينهم ثم يرحل

يمثل هذا الخطاب الأمر، صنف الشاعر حياة المؤمن، وحدد سنة تصرفاته التي ستكون رفته خلال رحلة العمر وعند رحيله وما بعد موته: إنه شعر وعظي توجيهي،

(2) ينظر: وصفهم في: البيان والتبين: 125/2.

(3) شعر الخوارج: 42-43.

(4) ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي: 243.

(5) ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة: 186/2.

أخذ معانيه من موعظة الرسول محمد ﷺ في حين جاء لفظه سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة كما جاء في نقد الشعر لقدامة بن جعفر<sup>(1)</sup>.

ويبدو التواصل الفكري بين الموروث الشعري الجاهلي الذي يضم خلاصة تفكير الشعراء بالحياة وبين النظرة الإسلامية التي ركزت الإيمان واليقين بالحياة الخالدة الأزلية. وما الحياة الخالدة الأزلية بالطريق السهل، ولكن أقصر الطرق إليها هي تقوى الله، في ذلك يقول الشاعر سابق البربري:<sup>(2)</sup>

موت النقي حياة لا انقطاع لها      قد مات قوم وهم في الناس أحياء

وقد احتلت لوحة الحياة والموت مكانة في القصيدة الإسلامية والأموية فجاءت إما منفردة أو صيغة من صيغ الافتتاح أو خاتمة القصيدة<sup>(3)</sup>. ويلاحظ على المقدمة المنفردة كثرتها، فلا يكاد يخلو منها ديوان شاعر إسلامي أو أموي.

وهذه أبيات تمثل مقدمة فنية عند الشاعر النابغة الجعدي<sup>(4)</sup>:

شيخ كبير قد تخدد لحمه      أفنى ثلاث عمائم ألوانا  
سوداء داجية وسحق مفوف      ودروس مخلقة تبوح هجانا  
ثم المنية بعد ذلك كله      وكأنما يعنى بذاك سوانا

تفصح الأبيات عن نفسية الشاعر الذي هزل وبانت الأيام على جسده فهو يعيش غريباً، قلقاً، ويبدو ذلك واضحاً من ألفاظه التي جاءت مناسبة لحالة ضعفه وهرمه.

(1) نقد الشعر: 28.

(2) شعر سابق البربري: 88.

(3) ينظر لمزيد من المعلومات: الحياة و الموت في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي: 13، 16، 21، 22، (رسالة ماجستير).

(4) ديوان النابغة الجعدي: 179 (ونسبت إلى أبي الشماخ الطائي (المعمرون و الوصايا: 135).

ويكتب لقصائد الرثاء الخلود حين تفيض أبياتها بالمشاعر الإنسانية الصادقة، تسبح ببحر من المشاعر الإسلامية التي تقطر رقةً وعذوبةً، إنها العاطفة الجياشة، ترعاها مشاعر الإيمان والإسلام. ووصلت إلينا قصائد رائعة من هذا الرثاء، منها قصيدة الشاعر مالك بن الربيع التميمي الذي مرض في أرض الفرس وهو في جيش المسلمين، وأحسَّ بالموت، وجاءت قصيدته رثاءً "لنفسه وهي من غرر الشعر العربي في ثمانية وخمسين بيتاً. برزت مشاعره مملوءةً باحساسات شتى، معبرةً عن الغربة والبعد عن الوطن (الصحراء)، حوله جنود الحق يحملون لواء الإسلام، لنشر الدين الحنيف، يقاتلون ويجاهدون في سبيل الله والغاية وجهه الكريم، وفي داخله أزمته النفسية بين غربة الحضارة الجديدة والبيئات المختلفة وتمسكه وشوقه بحضارته القديمة يقول فيها: (1)

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً  
بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا

يبدأ إبداع الشاعر في تصوير لحظات الموت الأخيرة، وينقل بصدق صورةً، تصوره وماحو له، وما تفيض به نفسه وهو يعاني سكرة الموت ويحسُّ قرب نهايته يقول محاوراً نفسه ومن حوله:

ولما تراءت عند مرو منيتي	وخلَ بها جسمي وحانت وفاتيا
أقول لأصحابي ارفعوني فإنه	يقرُّ بعيني أن سهيل بدا ليا
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا	برابية إنني مقيم ليا ليا
أقيما علي اليوم او بعض ليلة	ولا تعجلاني قد تبين شانيا
وقوما اذا ما استلَّ روعي فهيئا	لي الصدر والأكفان عند فنائيا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي	وردا على عيني فضل ردائيا
خذاني فجراني بثوبي اليكما	فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

(2) شعراء أمويون: 41/1

ويستمر في قصيدته معبراً عن غربته الموحشة وشوقه إلى بيئته الصحراوية وأهله. والقارئ لقصيدته لا يحس به شاكياً، متذمراً، بل قانعاً، متحكماً بأفكاره الحزينة المؤلمة وصوره الموحية، يغالبه شوقه وتتطقه غربته. وما اشدّ تمسك الإنسان بأن يدفن في أرضه!، وما اشدّ شوقه لملاعب صباه ومراعي طعنه! يقول:

غريب بعيد الدار ثاو بقفرة      يد الدهر معروفاً بأن لا تدانيا  
أقلب طرفي حول رحلي فلا أرى      به من عيون المؤنسات مراعي

هذه الصور تمثل تجربة وجدانية عميقة استبدت بالشاعر ودفعته لبث معاناته الموضوعية والنفسية طوال القصيدة. ويتبادر إلى الذهن قول (كارلتون كون) عن العاطفة والأيمان (والعاطفة والأيمان أداتان أساسيتان في بناء المجتمع، وارتفاع الفنون وأصح الفلسفات قد أنتجها رجال عاطفيون يؤمنون بالمثل العليا)<sup>(1)</sup>، ومتى ما اجتمعت العاطفة والإيمان فإنهما قوة ضاربة في عالم الشعر يعبران عن الصدق والحقيقة. وقد قال الحذاق: خير الكلام الحقائق، فإن لم يكن فما قاربها وناسبها<sup>(2)</sup>.

وأما الشاعر العباسي فقد وقف يحمل ثقافته وشاعريته ليشارك البشرية قلقها الدائم إزاء الحياة، ففي اللحظة نفسها التي تبدأ فيها الحياة، يبدأ الفناء يعد عدداً تنازلياً عبر الزمن الحائر الذي نطلق عليه اسم (العمر)، فالغد يصبح اليوم، واليوم يمسي مصاحباً لها جس اسمه (الموت)، وهكذا تتكرر (حكاية الأيام) مع رحلة الحياة القصيرة، وبرأينا المتواضع لو تدارك الإنسان الأمر ونظر إلى الحياة من خلال (التاريخ)، ويبدأ من تباشيره الأولى.. وانتهاءً بلحظة النظر والتأمل، في تلك اللحظة الحاسمة. بالذات . سيجد الحياة طويلة وطويلة بحوادثها ومفاراتها وتناقضاتها.

ولكن الشعراء العباسيين . عموماً. أسرفوا في الحديث عن قصر الحياة وسرعة انقضاء أيامها، وعبرت أشعارهم بأمانة عن طبيعة المجتمع العباسي وما فيه من متناقضات، وأفاضت الدراسة الموسومة (الحياة والموت في الشعر العباسي في

(1) قصة الإنسان: 98.

(2) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 60.

القرنين الثاني والثالث الهجريين<sup>(1)</sup> في تحديد الملامح البارزة لرؤى الشعراء الفكرية ما بين حياة المذات وتحدي الموت بكأس مترعة ومجالس لهو وأنس، وبين زهد في الحياة ونعي دائم لحياة لا تدوم.

ومن خلال الظروف الطارئة المؤثرة بدا موقف بعض الشعراء العباسيين يغلب عليه التردد والاضطراب حتى إن نظرتهم للحياة والموت لم تكن عميقة الجذور تتبع من فلسفة المتأمل المفكر.

قال بشار بن برد (ت167هـ):<sup>(2)</sup>

فبتُ خائفاً للموت أو غير خائف  
على كل نفس للحمام دليل'

والدنيا تشتت الجمع وتفرق الأحباب، فلا ثقة في دوامها ولا استمرار لمسراتها مادام الفناء نهايتها.

يقول أبو العتاهية (ت211هـ):<sup>(3)</sup>

أنساك محياك المماتا  
أو ثقّت بالدُنيا واند  
فطلبت في الدُنيا الثباتا  
ت ترى جماعتها شتاتا

ولأبي تمام (ت231هـ) صور كثيرة توحى بجمال الحياة وألم الموت، وها هي

الحياة عنده كالمرأة، لغز لا يحلّ وهذا هو سر التعلق بها يقول:<sup>(4)</sup>

جفَ دُرُ الدنيا فقد أصبحت تكتال'  
لو بدت سافراً أهينتُ ولكنْ شغف  
أرواحنا بغير حساب  
الخلق حسنها في النقاب

(1) لمزيد من المعلومات تراجع دراسة هشام فاضل الشيخ عيسى (الحياة والموت في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين)، (رسالة ماجستير).

(2) ديوان بشار بن برد: 179.

(3) أبو العتاهية (أشعاره وأخباره): 74.

(4) ديوان أبي تمام: 314.

ولو أن هذا اللغز انحلّ غموضه وانكشفت معميته فعرف الإنسان كل ما فيه  
تماماً لكانت الحياة سمجة تافهة لاتبعث على الأمل والطموح أو نشاط الروح  
البشرية.<sup>(1)</sup>

ويتعجب أبو تمام من أن هذا الموت يقصد الرجال العظام الأقياء، يطأ أعناقهم  
بميسم نافذ:<sup>(2)</sup>

وكذا المنايا ما يطأن بمنسم  
إلا على أعناق أهل السؤدد

ولكنه يستعذب الموت من أجل فتاته التي يهواها وهنا تلعب حالته النفسية الخاصة  
دورها في الحب يقول:<sup>(3)</sup>

يستعذب الرعيدُ فيها حتفه  
فتراه وهو المستميتُ المعلمُ

ومما أثار اهتمام أبي تمام زوال الحياة، ومسيرة الزمن نحو الموت، انه مدرك لطبيعة  
الزمن نراه يقول:<sup>(4)</sup>

وما تبرح الأيام تحذف مدتي  
لتمحو آثاري وتخلق جدتي  
فقد أنست بالموت نفسي لأنني  
رأيت المنايا يخترمن حياتيا  
بعد حساب لا كعد حسابيا  
وتخلي من ربعي بكره مكانيا

وللشاعر محمود الوراق (ت255هـ) وجهات نظر فاحصة في التأمل في شؤون  
الحياة وهذه النظرات تكسوها قناعات تبدو كالوعظ يقول:<sup>(5)</sup>

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي  
ونسيت أن الله أخرج آدمأ  
درك الحنان بها وفوز العابد  
منها إلى الدنيا بذنب واحد

(2) ينظر الصورة الفنية في شعر أبي تمام: 102.

(3) ديوان أبي تمام: 323.

(4) نفسه: 251.

(5) نفسه: 430-431.

(1) ديوان محمود بن حسن الوراق: 61.

وقد يكون للوعظ والإرشاد الذي اتخذه منهجاً في حياته الأثر البالغ في هذه الرقة وهذا الصدق الواضح في قوله: (1)

تعصي إلا له وأنت تظهر حبه  
لو كان حبك صادقاً لأطعته  
هذا محال في القياس بديع  
إنّ المحب لمن يحب مطيع

إن إحساس الشاعر بأنه مهتد بالموت، ولطالما أقلقته آثار الزمن الجاري من شيب وضعف واستهلاك لجسمه وحواسه، لذا كان لا بد أن يركز على أمر يضمن له البقاء والخلود وليس غير الشعر يهب الخلود، وكون الشعر أصيلاً يكتب له الخلود على مرّ الزمان.

وقد أدرك الشاعر أبو العلاء المعري (ت449هـ) هذه الحقيقة، فبات شعره الغاية التي يعيش لأجلها، وجل ما فعله أنه واجه الموت وتحداه بشعره مؤكداً ذلك: (2)

لا خيل مثل قوافي الشعر جائلة  
إن ينقل الحنث عن عاداته بطلاً  
أبقى على الدهر أعناقاً وآطالا  
فما تزال معانيهن أبطالا

وتبدو ظاهرة ذكر الموت في شعر المعري جلية للعيان، وتدل على حيرته وقلقه إزاء الفناء والموت، وإنه الهاجس الذي ظل يشغل تفكيره... وهو أكثر الشعراء الذين ذكروا الموت في شعرهم (3)، يقول: (4)

فيا موت زر إن الحياة ذميمة  
ويا نفس جدي إن دهرك هازل

وخلاصة القول إن الشعراء العباسيين أسهبوا أكثر من غيرهم في خوض موضوع (الحياة والموت) بسبب طبيعة عصرهم فهو عصر مضطرب يعج

(2) نفسه: 90.

(3) اللزوميات: 206/2.

(4) الزمن في شعر أبي العلاء المعري: 104، (رسالة دكتوراه).

(5) شروح سقط الزند (السفر الثاني): 195.

بالمتناقضات ويبعث على القلق والرغبة والطمع والرغبة، وما كثرة أشعارهم في نم  
الحياة وشتم الزمن إلا دليل على رفضهم لهذا العصر وسخطهم عليه.

يقول ابو العلاء مصورا الناس من وجهة نظره:<sup>(1)</sup>

والناس شتى ولم يجمعهم غرض	شد وحل واتهام و أنجاد
ياليل ضد ان قوم في الدجى سهر	تهجدوك وقوم فيك هجاد

(1) اللزوميات: 244/1.

# الفصل الأول

---

المجتمع الأبوي: واقع وأثره في رؤى الشعراء الفكرية.

1- المجتمع الأبوي \_\_\_\_\_ ويؤ.

2- واقع الحياة في المجتمع الأبوي \_\_\_\_\_:

- الحياة السياسية.

- الحياة الطبيعية.

- الحياة الاجتماعية.

- الحياة الأدبية.

3- أثر المجتمع الأبوي في رؤى الشعراء الفكرية.

4- شعراء العرف الأبوي ورواؤهم.

## 1. المجتمع الأيوبي:

إذا اردنا ان نتحدث عن حضارة امة من الامم او مجتمع من المجتمعات حديثا علميا، فإنه ينبغي ان نتجنب الاشارة الى تقدم الامة وارتقاء المجتمع، والى التفوق الروحي والمادي في تناول الحياة وممارسة واقعها النظري والعملية<sup>0</sup> فالدراسة العلمية لا يعنىها ذلك، ولا تهتم بتقدير الحضارات وتقويم المجتمعات واصدار الأحكام الأدبية عليها، وانما تهتم الدراسة العلمية الموضوعية قبل كل شيء بمجموعة القيم الاجتماعية والانماط الثابتة المرتبطة التي تتحكم في نشاط المجتمع وتكوّن له شخصيته الحضارية بكل ما يتصل بهذه الشخصية من مفهومات الحياة والموت والطبيعة والتاريخ والعلاقات الاجتماعية ومصير الانسان....

وكما هو معلوم لنا ان كل مجتمع يضم جماعة من الناس خاضعين لقوانين ونظم عامة، وتلك "الجماعة" تمثل فئات المجتمع او طبقاته التي تقسم حسب الاجناس او الاديان او المراكز الوظيفية، وقد اختلف العلماء في تصنيف فئات المجتمع، حيث اشار ابن خلدون الى ذلك في مقدمته المشهورة فقرر ان الملك سلطان ورعية فهما طبقتان فقط (فالسلطان من له رعية و الرعية من لها سلطان)<sup>(1)</sup>، وهذا النظام الطبقي السائد في هذا العصر ليس بجديد علينا فله شواهد كثيرة في تاريخنا القديم لامجال لذكرها<sup>0</sup>

وأشار المؤرخ "لين بول" الى طبقتين كبيرتين: أولاهما طبقة المماليك<sup>(2)</sup> وهي أقلية عسكرية ممتازة، وثانيهما طبقة تمثل سائر فئات الشعب المحرومة من كل نفوذ<sup>(3)</sup>....

ولعل نظرة المقرئ التفضيلية جعلته يقسم المجتمع الى عدة فئات (طبقات): الاولى "اهل الدولة" والثانية "أهل اليسار" من التجار والثالثة متوسط و الحال من

(1) تنظر: مقدمة ابن خلدون: 188.

(2) المماليك: هم عبيد اترك وجراكسة ومغول استعان بهم الايوبيون للخدمة العسكرية فتمكن بعض زعمائهم من الوصول الى الحكم، واسسوا في مصر سلالاتي المماليك البحرية والبرجية.

(3) ينظر: دراسات في الحياة الاجتماعية في مصر في عصر سلاطين المماليك: 10.

السوقة والباعة والرابعة اهل الفلح والخامسة الفقهاء والسادسة ارباب الصنائع واصحاب المهن والسابعة ذوو الحاجة والمسكنة<sup>(1)</sup>.

وقد رجح الدكتور عاصم جمع الفئات الاخيرة (الثالثة وحتى السابعة)، وجعلها طبقة واحدة تشمل مساحتها الاكبر وافرادها الاكثر فهي تمثل الطبقة الواسعة في المجتمع<sup>(2)</sup>.

ولد المجتمع الايوبي من الناحية الزمنية بعد دولة عمرت مئتي سنة، لها سماتها وافكارها وعاداتها... وامتازت حياتها بالبذخ والاسراف والغلو في جميع مرافق الحياة (الاجتماعية والدينية) على وجه الخصوص، هذا من ناحية ومن الناحية الاخرى فقد ضم المجتمع الكبير آنذاك إضافة إلى العرب عناصر كثيرة، اهمها الاتراك والاكرد<sup>0</sup> فقد اعتمد الزنكيون على الاتراك وكان السلاجقة قد دفعوا بهم الى هذه البلاد على شكل موجات متلاحقة، ثم تكاثروا حتى غدوا يشكلون ركنا هاما من اركان البناء الاجتماعي، مما حدا ابن واصل ان يقول عنهم (قنطاريات الفرنج ليس لها الا سهام الاتراك، وان الفرنج لا يخافون الا منهم)<sup>(3)</sup>، حيث نهض الاتراك لجهاد الغزاة منذ وطأت اقدامهم ديار الاسلام<sup>0</sup>

وتزايد ايضا عدد الاكرد بمجيء الايوبيين وتوليهم السلطة، وتبعتهن جماعات كثيرة استطاعوا الثبات في جهاد الاعداء، وهؤلاء الايوبيون (لم يكونوا ارقاء موالى كسابقيهم، بل كانوا احرارا يعتمدون على ابناء جلدتهم وعلى غيرهم من المماليك)<sup>(4)</sup>

أما العرب فهم السكان الاصليون ينتشرون في انحاء متفرقة من البلاد، واهم تلك القبائل قبيلة طي وكلاب وعقيل... والذي تجدر الإشارة إليه ان هذه القبائل رغم فقدانها السلطان السياسي، كان لها حضور مستمر ومشاركة فعالة في جهاد الاعداء، كلما دعاها الحكام المسلمون الذين يتألفونهم ويستنهضون همهم، ونوهت المراجع

(1) اغاثة الامة بكشف الغمة: 72 0

(2) البطل في شعر الحروب الصليبية: 36، (رسالة ماجستير).

(3) مفرج الكروب في اخبار بني ايوب: 183/1، الروضتين في اخبار الدولتين: 2/1: 460.

(4) الادب في بلاد الشام (عصور الزنكيين و الايوبيين و المماليك): 61.

عن كثير من الشواهد التي تدل دلالة قطعية مدى اعتماد صلاح الدين على القبائل العربية - ولاسيما قبيلتي ربيعة وطي - ولمزيد من التفصيلات يراجع ماكتبه العماد الكاتب الاصفهاني في ذكر ما تم من استشهاد عدد من امراء العرب<sup>(1)</sup> وكذا في توجيه ضربات اقتصادية<sup>(2)</sup>، واخرى عسكرية خاصة سريعة لارهاق العدو الصليبي<sup>(3)</sup>، في حين نحت قبائل عربية اخرى سلوك سبيل النهب والسلب ومهاجمة قوافل الحجاج والتجارة<sup>(4)</sup>، ونعزو سبب ذلك الى سوء الحالة الاقتصادية وشحة الزاد والغذاء مما يحرّمهم الحياة الامنة المستقرة<sup>(5)</sup>، وسلكت قبائل اخرى سلوكا خيانيا بتعاونها مع العدو وارشاده الى المسالك المؤدية الى البلاد<sup>(6)</sup>، ومن خلال تحليل الشخصية العربية اتضح لنا ان من سمات شخصية العرب (التشكك والقلق وعدم الثقة بالمستقبل (...)<sup>(7)</sup>

وقد تبدو هذه السمات عميقة الاثر عند بعض القبائل العربية التي تعيش حياة مملوءة بالمنافسة الشخصية: العداوة القبلية في الصحراء، ويؤكد ذلك رأي مورويبرجر في وصفه للعرب (إن العرب فائقو الحساسية فيما يتصل بالمنافسة وهم ذوو كبرياء ومن السهل اثارهم...)<sup>(8)</sup> وراينا هذا ليس دفاعا او تبريرا وانما هو وجهة نظر لا غير 0

ولابد من التنويه هنا الى اشارة مهمة مفادها ان المجتمع الايوبي لا يستطيع المؤرخ او الباحث تصويره تصورا حضاريا اذا هو تناول ذلك المجتمع باعتباره وحدة قائمة بذاتها وتجاهل ما يربط بينه وبين العصر السابق له من التيارات الاجتماعية

(1) ينظر: الفتح القسى في الفتح القدسي: 293-295، ينظر أيضاً: تاريخ ابن خلدون: م/309.

(2) سنا البرق الشامي: 163، وينظر: الكامل في التاريخ: 145/10.

(3) ينظر: الكامل في التاريخ: 30/10، النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية: 213، 193، 108.

(4) ينظر: الاعتبار: 34.

(5) لمزيد من التفصيل ينظر: صورة المجتمع العراقي في القرن السادس للهجرة من خلال كتاب خريدة العراق:

93-94، (رسالة دكتوراه).

(6) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: 213، الروضتين في اخبار الدولتين: 2/1 / 546.

(7) مجلة قضايا عربية، ع5: 73.

(8) نفسه: 74.

ومن الدوافع الانسانية الكامنة وراء تطوّر الحوادث التي هي مصدر لكل تحوّل تاريخي واجتماعي<sup>0</sup>

فالحضارة الاسلامية في كافة عصورها ومراحلها وحدة تاريخية متكاملة، كما ان الاصول الروحية والمادية التي قامت عليها هذه الحضارة ظلت ماثلة في كيان المجتمع الاسلامي، عصره الاول والوسيط وما تزال ماثلة في عصرنا الحديث فإن الصلة الفلسفية مازالت قائمة بينه وبين قاعدة الحضارة الاسلامية، تلك القاعدة التي تتمثل في القرآن الكريم بكل ما تضمن من فلسفة حضارية نحو الحياة والموت ونحو ظواهر الطبيعة والتاريخ ونحو المادية والروحية، نحو السنن الاجتماعية وانماط النشاط النظري والعملية<sup>0</sup>

ضمّ المجتمع الايوبي فئات دينية ومذهبية متعددة، وهذه الفئات الدينية والمذهبية وليدة عشرات من السنين التي تلاحمت وتزاحمت لبناء اساس العقائد المذهبية وتشربت حياة الناس في ظل الدولة الفاطمية التي - ومنذ قيامها - لم تحترم الامان الذي كتبه للمصريين في حرية اختيار العقيدة التي يرضونها لانفسهم<sup>(1)</sup>

الفاطيون اقاموا دولتهم على اساس العقيدة المذهبية لذا دأبوا مصممين للدعوة لمذهبهم بشتى الوسائل والتدابير ونجحوا - تقريبا - في التأثير على الناس جميعا، شاءوا ام ابوا ولعلّ ما ذكره القاضي الفاضل عن مذهبهم يعطينا صورة لا غبار عليها حيث قال: (وذلك المذهب قد خالط من اهله اللحم والدم)<sup>(2)</sup> ولاشك في ان قرنين من الزمان - بما تتضمنه من دقائق الحياة اليومية - كفيلة بترك بصمات واضحة هنا وهناك لا يمكن - بل يستحيل - محوها من اذهان الناس ومن حياتهم الاجتماعية ولو بحدّ السيف او بسحتهم سحت المبارد للشفار كما وصفهم القاضي الفاضل، ولا نعتقد ان وصفه لمجتمع مصر آنذاك مبالغ به<sup>(3)</sup> وكالعادة هناك مسافة شاسعة بين الحكام واربابهم ووزرائهم وبين الشعب بمجتمعه وفئاته في كل زمان

(1) ينظر: دراسات في الشعر في عصر الايوبيين: 5.

(2) الروضتين في اخبار الدولتين: 241/1.

(3) ذكر الدكتور محمد كامل حسين في ص 15، 21، 25 أربع محاولات لاعادة الحكم للفاطميين: سنة 569هـ،

ومكان، فالشعب وارث لتقاليد ومعتقدات لقرنين من الزمان وهو يشهد تزعزع تلك المعتقدات واحتضار دولتها بين وزرائها المتفردين<sup>0</sup>

المجتمع الأيوبي، هذا الخليط العجيب، هذا المولود الذي ولد ونشأ في ظروف غير اعتيادية، وهذه الظروف تحمل ارثاً ثقيلاً تنوء بحمله الجبال الرواسي، لذا حرص الأيوبيون على حلّ معضلات ذلك الارث بسرعة فائقة وبذلت جهود شاقة لمحاربة الانقسامات المذهبية التي توهن عزائمهم وتصرفهم عن الخطر الحقيقي المحقق بهم<sup>0</sup> وما ان تسنم الأيوبيون الحكم عرفوا ماذا ينقص هذا المجتمع الموهن فأكثرخوا من المساجد واعمارها والمدارس والقائمين عليها ووقفوا الاوقاف الكثيرة لذلك<sup>(2)</sup>. وعكف الوعّاظ تعليم الناس امور دينهم، وبث الروح الدينية في الامة فزخر المجتمع بالمتصوفين الذين وصفوا بأنهم (هم الملوك بهذه البلاد)<sup>(3)</sup>.

ومثلما ضمّ المجتمع الأيوبي في مصر بقايا المتعصبين للدولة الفاطمية، ضمّ نفس المجتمع في الشام (الباطنية الغلاة) الذين كثر شرهم وفسادهم ولقوا مقاومة شديدة من العامة<sup>(4)</sup> وذكر ابن جبير ان (النبوية)<sup>(5)</sup> يقتلون هؤلاء الروافض اينما وجدوهم<sup>(1)</sup>، ولهؤلاء الغلاة محاولات فاشلة لاغتيال صلاح الدين وتذكر المصادر أنه قاتلهم في حصن (مصيف)<sup>(2)</sup> و(اوسعهم قتلا واسرا)<sup>(3)</sup>

ولن يفوتنا ان نذكر اهل الذمة من اليهود والنصارى حيث ينضون تحت سقف المجتمع الأيوبي انذاك وتداولت الكتب التاريخية اخبارهم ومما تجدر الاشارة اليه ان النصارى يفضلون الانتقال الى الديار الاسلامية بعد اجتياح الصليبيين للبلاد،

(2) ينظر: الدارس في تاريخ المدارس: 116/1 ، 219 ، 340 ، 3/2 ، 10 ، 100، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: 199/2-228.

(3) رحلة ابن جبير: 56.

(4) ينظر: الكواكب الدرية في السيرة النبوية: 94، 91-95.

(5) النبوية: قوم يدينون بالفتوة وامور الرجولة كلها نذروا انفسهم للتصدي للباطنية ( رحلة ابن جبير: 252).

(1) رحلة ابن جبير: 252.

(2) مصيف: (مصياد) بلدة في سوريا على سفح جبل النصيرية الشرقي مركز قضاء مصيف (محافظة حماة)

معروفة بقلعها احتلها رشيد الدين سنان المعروف بشيخ الجبل مقرأ له معظم سكانها من الاسماعيليين<sup>0</sup>

(3) مفرج الكروب في اخبار بني ايوب: 47/2-48.

لان المسلمين يكفلون لهم حريتهم الدينية ويعاملونهم بالحسنى وقد وصف ابن جبير كنيسة لهم داخل دمشق<sup>(1)</sup>، وأشار الى موقف المسلمين منهم ومدى تمتعهم بحريتهم الدينية<sup>(2)</sup>

اما الطائفة المتميزة من المجتمع فهم رجال الدين الذين فقهوا امور الدين ونالوا حظا وافرا من العلم والثقافة وكسبوا حب الحكام واحترامهم<sup>(3)</sup> وبعضهم ولّوا الوظائف الكبيرة كأمانه السرّ وكتابة التوقيع وديوان الانشاء... وبعضهم الاخر عكفوا على العبادة وشغلوا وظائف التدريس والقضاء والخطابة وكثيرا ما كان القضاء يعرضون بالحكام اذا آنسوا منهم (خروجا على الدين وتجاوزا على المصلحة العامة)<sup>(4)</sup>

ورضخت طوائف الشعب من الفلاحين والتجار والصناع لمعاملة واحدة مفادها انهم مهما ارتقوا في المجتمع علميا وماديا فإنهم من سائر العوام، والاغلبية هنا للفلاحين عددا والذين يُلحقون بالارض كسائر الاشياء مع الاقطاع استغلالا لامتليكا، ولأسامة بن منقذ حكايات تؤكّد وضعهم المتدني<sup>(5)</sup>، ودعاهم ابن خلدون (ت 808هـ) بـ(المستضعفين في الارض)<sup>(6)</sup>، الا ان الدولة الايوبية حرصت على حماية الفلاحين من استبداد الاقطاعيين وسنت<sup>(7)</sup> شروطا كفيلة لحمايتهم.

ويتمتع التجار بحال افضل لاسباب مادية واقتصادية تتعلق بالدولة والسياسة، وقد اطلق اسامة بن منقذ عليهم (البرجاسية)<sup>(8)</sup>، ويقصد بهم (التجار) المقربين من الحكام لحاجتهم للاموال التي يقرضونها لهم من اجل الجهاد وبموافقة الخليفة ببغداد<sup>(9)</sup>.

(1) تنظر: رحلة ابن جبير: 255.

(2) مفرج الكروب في اخبار بني ايوب: 49/2، وينظر: الادب في بلاد الشام: (عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك): 65.

(3) الاعتبار: 1250، تنظر: قصة الحضارة: ج4م/37.

(4) تنظر مقدمة ابن خلدون: 394.

(5) ينظر: صبح الاعشى في صناعة الانشاء: 33/11، 34، 67.

(6) الاعتبار: 141.

(7) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: 102، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب: 214/2.

ولكي يستكمل عرضنا للمجتمع الايوبي صورته الواقعية لابد من ذكر عنصر (الافرنج) الذين غزو البلاد، وهؤلاء لم يكونوا من المجتمع الا انهم اثروا البقاء فيه وتأثروا به<sup>0</sup>

ولا بد من الاشارة الى كثرة الرقيق الاوربي بسبب الحرب الطويلة الامد بين المسلمين والصليبيين، وبذا حقق اغنياء المجتمع الايوبي-وهذا ديدنهم في كل مجتمع-حريتهم في شراء السبايا وتبادل الجميلات منهن بين طبقة الاغنياء<sup>(1)</sup>.

يبدو لنا من خلال مراجعتنا لكتب التاريخ المعاصرة للدولة النورية والصلاحية ان مجتمعهما- ان لم يكونا متلاحمين- فهما يتفقان في امور كثيرة تخص الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، ولن نذيع سراً اذا قلنا ان المجتمع الايوبي سار على خطى مجتمع نور الدين (رحمه الله) حتى ان بعض المصادر الحديثة تتحدث عن الدولتين معا وهي تستعرض شؤونهما، ولعل القاسم المشترك الاعظم بينهما هو تصدي الدولتين للغزو الصليبي، وهذا الوله العجيب والتصميم الفريد لديهما للرد على هذا الغزو وهاجسهما الدائم تحرير الارض المقدسة<sup>0</sup>

بمثل هذه التشكيلة البشرية المتنوعة، وهذه الامشاج المتعددة من عناصر وجنسيات متباينة الطباع والعادات والاخلاق والديانات، نما وتكون وتطور المجتمع الايوبي وان كان السواد الاعظم من العرب، فان لكل عنصر من هذه العناصر اثره الفكري والاجتماعي والديني، ومن البديهي ان هذا الاختلاط يترك أثراً جديدة في الفكر العربي والاسلامي وظهور تغيرات في العادات والتقاليد وافراز كثير من البدع الدخيلة<sup>0</sup>

وكما يقولون: لله في خلقه شؤون، إذ كانت الطبيعة بأرضها وسمائها تترصد هذا المجتمع الشائك الاجناس، وكأنها تعرضه لاختبار في الصبر وتستعرض قواها

(1) ينظر: مفرج الكروب في اخبار بني ايوب: 8/3، الروضتين في اخبار الدولتين: 88/2.

الخارقة-بامر الله- بأشكال متنوعة من الاوبئة الفتاكة والسنوات العجاف والزلازل والفيضانات وقلة الاقوات وغلاء الاسعار وفناء خلق كثير<sup>(1)</sup> 0

---

(1) ينظر: الروضتين في اخبار الدولتين: 5/2، سنا البرق الشامي: 159.

## 2. واقع الحياة في المجتمع الأيوبي:

### الحياة السياسية:

السياسة استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا والآخرة<sup>(1)</sup> وبتعبير أدق فن الحكم وإدارة أعمال الدولة الداخلية والخارجية، والسياسة المدنية هي تدبير المعاش مع العموم على سنن العدل والاستقامة<sup>0</sup> أما الحياة السياسية لمجتمع ما فتعني عرضاً تفصيلاً لكيفية إدارة دفة الحكم فيها مع الظروف والملابسات التي واجهها ذلك المجتمع في تلك الحقبة الزمنية وهذا عمل مؤرّخ السياسة الذي لا يعنيه من حياة المجتمع سوى نمط الحكم وما يتصل بهذا النمط من صراع مذهبي وصراع سياسي وما انتهى إليه ذلك الصراع من تطور الأحداث ومجرى الوقائع التاريخية والاجتماعية<sup>0</sup> إن الحياة السياسية ليست في واقع الأمر منفصلة عن الحياة الاقتصادية، فالنشاط السياسي متأثر بالنشاط الاقتصادي ومؤثر فيه، ونجد كذلك النشاط الثقافي متأثراً بالسياسة والاقتصاد ومؤثراً فيهما<sup>0</sup> ومن المعروف أن الأيوبيين ظهر شأنهم وسطع أمرهم قبل ظهور دولتهم بزمان، وكتب التاريخ أوردت أخبار الأخوين نجم الدين وأسد الدين بالتفصيل حيث كثرت المفارقات والمصادفات في حياتهما وهما يتسلقان سلم القيادة والشهرة<sup>0</sup> وشاءت الأوضاع أن تمهد لصلاح الدين مستقبلاً في مصر وهو في هذه السن المبكرة من العمر، فجاءته الفرصة تسعى له سعياً<sup>0</sup> وربما كان لنور الدين محمود وأسد الدين شيركوه دور في تهيأتها<sup>0</sup> كانت الآلة السياسية والاقتصادية والدينية تشير إلى أن الخلافة الفاطمية في مصر في طريقها إلى الزوال، ولو أن موعد الزوال تحدد فيما بعد، على يد صلاح الدين<sup>0</sup> فقد حدثت خلافات كثيرة بين القوات المصرية المتعددة الولاءات والأصول العرقية والأهواء، على منصب الوزارة وهو ما أدى إلى الكثير من سفك الدماء وأضعاف الجيش وأضعاف منصب الخلافة نفسه<sup>0</sup>

(1) ينظر: إحياء علوم الدين: 30/1

وكان الوزراء قد اخذوا منذ بداية القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد، يتلاعبون بهذا المنصب الذي ينتقل عادة بالوراثة من الأب إلى الابن الأكبر، وراحوا يولّون خلفاء صغاراً يحكمون باسمهم، بل يقتلون بعضهم ليتحكموا في الأمور<sup>(1)</sup> ومع ضعف الخلافة وفقدان هيبتها وسيطرتها، بدأت العقيدة الإسماعيلية تضعف داخل القاهرة وخارجها، وخصوصاً في الإسكندرية، مركز الأحياء السنّي، وفي غيرها من الثغور<sup>0</sup>

ولقد كان ظهور عماد الدين زنكي وابنه نور الدين على جبهة مقاومة الفرنج الشامية له أصداء في مصر وتأثير في مستقبل الخلافة فيها، ذلك لأن مقاومتهما الفرنج واستعادتهما بعض الأراضي المحتلة ولاسيما إمارة الرها، أقتنعتا الفرنج أن وجودهما في الشام مهدد، فأخذوا يتطلعون إلى التوسع باتجاه مصر، وراحوا يغزونها بالتدريج ، ثم يتراجعون عنها بين سنتي

(550-564هـ/1155-1168م)، بعد أن يقبضوا مبالغ كبيرة مقابل انسحابهم، إلى أن غزوها نهائياً بقصد احتلالها سنة (564هـ/ 1168م) وفشلوا<sup>(2)</sup> فقد أضعفت غزواتهم المتواصلة الخلافة سياسياً ومادياً، لأنها عجزت عن صدهم، كما أنها فتحت المجال للعناصر المعارضة للخلافة لانتقادها والعمل على نشر مذهب السنة والجماعة كخطوة أولى للقضاء المتدرج عليها<sup>0</sup>

ويبدو أن حركة الأحياء السنّي نشطت في مدينة مصر أيضاً حيث استقر بعض الزهاد والمتصوفة وعلماء السنّة الذين دعوا إلى المذهب خفيةً وعلناً<sup>0</sup> إن شاور (الذي فتح أبواب مصر على مصاريحها لأسد الدين وصلاح الدين) من دون أن يحسب حساب عمله، قصد الشام بنفسه مستجداً بنور الدين لإعادته وزيراً على مصر، وتلك هي الفرصة الذهبية التي وابت نور الدين وآل أيوب<sup>0</sup>

(1) ينظر: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر: 389-390، 414-440.

(2) بدأت محاولات الفرنج لاحتلال مصر تزداد بعد احتلالهم مدينة عسقلان، آخر مدينة على الساحل الفلسطيني

سنة 548هـ/1153م 0

ينظر: إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء: 230/3، 262، 264، 275، 277، 282، 288 ،

0 291،299

وافق نور الدين بعد شيء من التردد إرسال القوات العسكرية لمساعدة شاور في مقابل شروط حددها نور الدين وهي أن يدفع ثلث خراج مصر، بعد اقطاعات العساكر، وان يقيم بعض الأمراء الشاميين في مصر، وان يتصرف شاور بأمر نور الدين واختياره... وبعد هزيمة عساكر ضرغام (منافس شاور)، أعيد شاور إلى الوزارة ودخل القاهرة على أبواب الترك التي لم تعهد بمصر سنة 559هـ، حاول شاور الاتصال عن اتفاقته مع نور الدين واخذ يعد العدة لمحاربة أسد الدين الذي أعدّ للرد عليه... وكاد يدخل القاهرة لولا أن شاور استنجد بالفرنج مما حدا بنور الدين تحويل الاهتمام إلى الشام فاستردّ (حارم) من فرنج الشام مما فت في عضد الملك (أموري) وجماعته ولذلك تراجعوا عن مصر<sup>0</sup>

من هنا بدأ اسم صلاح الدين يُسجل بأنه ساعد عمه في الإعداد لمقاومة شاور وفي محاربته ولقد مدح المؤرخ المعاصر (ارينك روتز Ehrenkreutz) صلاح الدين مشيداً بدوره في مقاومة القوات الشامية الفرنج في بلبيس قائلاً: (إنّ الأمر الوحيد الذي حمى العساكر الشامية من الفناء ومهد لها التخلص من مصيدة شاور العسكرية هو حسن سياسة شيركوه وحكمته. أما مقاومة القوات الشامية في بلبيس لمدة ثلاثة شهور أمام عدو عنيد، فتدل على مهارة صلاح الدين في تزويدها وإعدادها للمقاومة...)<sup>(1)</sup>

ويمكننا التعبير عن واقع الحال السياسي آنذاك بقولنا: إن تعزيز الوعي وتنمية الشعور بالمسؤولية التاريخية المترتبة على الانتماء للأمة، هو الخروج من حالة الاستسلام للأوضاع إلى (الفعل) بقصد تغييرها، والوصول إلى الإيمان بالأمة وبأنها شيء آخر بالنسبة لهم، أمة لها رسالة والزمن بالنسبة لها عملية تحقق دائم<sup>0</sup> يخيل إلينا أن شعورهم اتجاه الأمة كان كما نكرنا أو ربما اشد، يقودون جيوشاً بين مدنٍ متزامية الأطراف تحفها المخاطر من كل جانب، قابليتهم تلك قد فاقت تصورنا البشري وهذا ما يؤكد عوده أسد الدين وصلاح الدين إلى مصر سنة (562 هـ/1166م) ولهما أسبابهما المبيّنة لهذه العودة وللتاريخ سبب جوهرى هو (مصر)

(1) Ehrenkreutz, A. S.  
Saladin. Albany State  
Univrsity of N. Y. 1972, PP. : 37.

وأموالها و خيراتها مما تبعث في نفس المقاتل حب التوسع فيها، نقول عادا وهما متجاهلين الفرنج الرابضين في الكرك والشوبك، والبدو ينقلون أخبارهم إلى الفرنج ...! بالإضافة إلى عرقلة الطبيعة سيرهم، إذ هبت عاصفة رملية عنيفة كما تشير المصادر الغربية، وقضت على عدد كبير من الرجال والزاد0 ووصف (وليم الصوري) ما جرى للقوات الشامية بقوله ( إنَّ العاصفة الرملية كانت شديدة لدرجة أن العساكر لم يستطيعوا أن يفتحوا أفواههم حتى للتحدث مع بعضهم البعض، فنزلوا عن أحصنتهم وتمددوا مواجهين للأرض ومتشبهين بها كيلا تسحبهم الرياح (...)<sup>(1)</sup>

كانت دروس الحرب قاسية، فمالنا بمواقف الغدر التي تعقبها ...؟ وكان ما كان من تلك المواقف التي اقتص فيها صلاح الدين من شاور عندها عادت القوات الشامية للمرة الثالثة سنة (564 هـ/1168م).

أصبح مستقبل مصر بعد هذه الإحداث في الميزان بين الإفرنج والشام، مع إن كفة الإفرنج هي الراجحة لان الملك (أموري) ركز فيها حامية عسكرية من فرسانه لتحمي القاهرة من هجوم شامي، من ناحية ولترقب ما يجري داخلها وتستكشف امكاناتها العسكرية والمادية وتكون مقدمة لقوات احتلال إفرنجية من ناحية أخرى ...

ورغم أن مصر كانت عصيةً على جيوش الفرنجة إلا أن أحلامهم في احتلالها مستمرة، مما حدا أن طالبت بعض الفئات في مصر بدعوة القوات الشامية (564 هـ) وعلى رأس تلك الفئات ابن شاور الذي حاد عن سياسة والده والقاضي القاضل رئيس ديوان الإنشاء الذي قام بدور في تحويل دفة السياسة المصرية تجاه الشام وتولى المفاوضات والمراسلات ... وأخيرا الخليفة الفاطمي (العاقد) الذي كان مغلوباً على أمره لكنه ساند الاستتجاد بعساكر الشام وقد سجل المقرئزي له موقفه النبيل هذا بقوله، عندما سُئل لماذا كتب إلى نور الدين مستنجدا من دون استشارة

<sup>(1)</sup> William of Tyre- A history of done beyond the sea. 1943, PP. : 317-318.

وزيره أجاب: (لأنني اعرف انه لا يوافقني عليه- على الكتاب- لكرهيته في الغز\* وأنا اعلم من أي باب ادخل عليه)<sup>(1)</sup>

ومع استدعاء القوات الشامية بدأت كفة الشام ترجح في الميزان وبعد وصولها انسحبت القوات الفرنجية، ورجحت الكفة الشامية والأيوبية فيها بصورة خاصة، وتقرر مصير مصر<sup>0</sup> ويعقب ابن الأثير على تردد صلاح الدين: (أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه)<sup>(2)</sup> وقد علق (لين بول) Lane- Poole على قصة تردد صلاح الدين قائلاً: (ومن الغريب أن الشخص الوحيد الذي تردد في الذهاب كان صلاح الدين، فقد كان يد عمه اليمنى في حملاته السابقة، لكنه فضل الراحة والمناقشة مع رجال الدين)<sup>(3)</sup> ومع ما قد يكون في هذه الاستنتاجات من الصحة، فإننا نرجح أن صلاح الدين كان يرى لنفسه ولعائلته مستقبلاً في مصر، ولئن تردد في الذهاب خوفاً من مشقة السفر وخيانة شاور، وقوة الإفرنج، فإنه كان قد أقام جسراً مع عدد من رجالات مصر، وأسس قاعدة شعبية في كل من الإسكندرية وبلبيس وخصوصاً من العساقلة والكنانية<sup>(4)</sup>

تولى صلاح الدين الوزارة بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه سنة 564 هـ بثلاثة أيام، بعد خلافات وتنافس على الوزارة بين فئات عدة وأخيراً ظهر العاضد من عزلته وأعلن معاضدته صلاح الدين ثم خلع عليه خلع الوزارة بالعقد والجوهر، ونعته بالملك الناصر<sup>(5)</sup>

\* الغَزْ: الغز أو الاغوز قبيلة تركية رحلوا من أواسط آسيا نحو الغرب منذ القرن التاسع<sup>0</sup> منهم انحدر والد احمد بن طولون<sup>0</sup>

(1) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا: 294-293/3 0

(2) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل: 139 0

(3) Stanly Lane- poole , *Saladin and the fall of kingdom of Jerusralem* ( Beirut 1964 ) , p. : 490 Hamilton A.R. Gibb , <the rise of Saladin > in Hamilton A.R. Gibb, *Saladin in Islamic History* , Edited by yusuf Ibish (Beirut / Arab Institute for Research and publishing , 1974) , pp. 105, Ehrenkreutz , op. Cit , pp. 51

(4) ينظر: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: 366/2 0

(1) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا: 308/3 0

حظي صلاح الدين بمستشارين عظام من رجال الفكر والقلم والبصيرة أمثال القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني وغيرهما، ويخطر بالبال قول أفلاطون بما يناسب الحال (يستدل على إقبال الملك وعلو زمانه من اختياره لوزرائه ومشاوريه المشايخ ذوي التجارب والمعرفة)<sup>(1)</sup>

وفوق ذلك فضل الله عليه وعلى الأمة الإسلامية ولولا ذلك لفوت الفرصة وبدد الإنجازات التي كان عمه قد حققها تحت راية عظمى بل تحت شمس مضيئة، فان تجمع العناصر لتأليف فرصة تاريخية فذة، لا يضمن اقتناص تلك الفرصة، ولعل أهم ما أنجزه صلاح الدين، انه بعد مراودة صعبة مع فرصته التاريخية، استطاع أن يروض نفسه ليعتليها ويندفع بها إلى النصر العظيم أما الذي هيا الفرصة وأوجدها فهو نور الدين (رحمه الله) المثل الأعلى في الجهاد والعسكري في التخطيط والتنفيذ ويشهد ابن الأثير بسمو صفات نور الدين بقوله (وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر بعد الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أحسن من سيرته ولا أكثر تحريماً منه للعدل)<sup>(2)</sup>

وضع نور الدين استراتيجية متكاملة تتضمن توحيد بلاد الشام أولاً ثم توحيد الشام ومصر وكان التوحيد في نظره يتضمن توحيد الصف والهدف في آن واحد أما توحيد الهدف فهو جمع المسلمين تحت راية واحدة، وتوحيد الصف في الشام ومصر والسبيل إلى ذلك مزيج من العمل السياسي العبقري ومن المعارك الحربية التي تخدم الأهداف المحددة<sup>(3)</sup>

استطاع صلاح الدين أن يوحد الهدف والصف داخل ذاته هو مثلما وحدهما في الإطار الإسلامي، وظهر ذلك في التغيير الكبير الذي طرأ على شخصيته، أصبح.. سعيه للجهاد مفضلاً على سعيه للملك وبدأت تنمو فيه علائم الزهد في الملك الذي ناله وحققه، واستطاع صلاح الدين أن يستغل ضربته المذهلة في حطين ليستعيد بيت المقدس وعكا وعسقلان وغزة (الساحل الفلسطيني كله) من الفرنج<sup>(4)</sup>

(2) لباب الآداب: 0 459

(3) الكامل في التاريخ: 22/10.

أخذت ممالك الغرب تنزل حول (عكا) موجات متلاحقة من المقاتلين، وفي سنة 587 هـ نزل إلى جوارها ملك فرنسا بجيشه وتبعه ريتشارد ملك الإنكليز واكتملت القوات الفرنجية المشاركة في هذه الحملة التي عرفت باسم (الحملة الصليبية الثالثة)، وتمكن الفرنج من استعادة عكا بعد حصار دام عامين<sup>(1)</sup>

انطلق ريتشارد جنوباً يعيد احتلال الساحل الجنوبي، وكان على صلاح الدين أن يتخذ قرارات صعبة للغاية<sup>0</sup> ولئن اعتاد الناس أن يهللوا للنصر، ويمدحوا القائد المنتصر ويعلوا من قدره، فقلما توجهوا بالتقدير إلى القائد الذي يفوته النصر، لكنه يستخدم قواته بأفضل شكل لاحتواء انتصار خصمه، ولإبقاء قدر من المقاومة والصمود إلى يوم تغيير الموازين والأوضاع به<sup>0</sup>

ويمكننا أن نقول أن عبقرية صلاح الدين في الحرب وفي السياسة قد تجلّت في مواجهته للحملة الصليبية الثالثة بمثل ما تجلّت في معركة حطين<sup>0</sup> لقد كانت معركة حطين إقليمية مع دولة محلية- وان تكن معززة بالفرسان المتطوعين من بلاد الفرنج، وبالأموال الفرنجية- لكن معركة عكا وما تلاها حرباً قارية<sup>0</sup> ولئن عرف القرن العشرون حربين أطلق عليها اسم (الحروب العالمية) فربما كانت الحروب الصليبية (أول الحروب العالمية) التي عرفها التاريخ. وقد شاركت في الحملة الثالثة، ممالك فرنسا، وإنكلترا، وألمانيا وإمارات كثيرة غيرها، ودفعت فيها الألفاً مؤلفة من الجنود، وفتحت فيها أكثر من جبهة<sup>0</sup>

كان على صلاح الدين أن يتخذ قرارات صعبة للغاية وان يجري حساباته بدقة تامة وان لا يرتكب خطأ، ليتجنب كارثة كبرى في وجه هذه القوى المتفوقة<sup>0</sup> ولقد اختار عدم خوض معركة حاسمة، وخاض ضدهم حرب استنزاف لكسب الوقت، متربحاً أي شرخ قد يلوح في معسكرهم لاستغلاله استغلالاً سياسياً<sup>0</sup> وكان له ذلك وتم الصلح بينهم سنة (587 هـ)<sup>(2)</sup>

(1) ينظر: الكامل في التاريخ: 142/10-143، 165-166.

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: 160-170.

(1) ينظر النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية: 234-235.

وفي السابع والعشرين من صفر (سنة 589 هـ/1193م) توفي صلاح الدين رحمه الله، وما أقى وصف (الذهبي) للدنيا حينها: (كأن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً)<sup>(1)</sup> لكن الإمبراطورية التي بناها لم تكن ثابتة الأركان، ولا استطاع خلفاؤه الإبقاء على وحدتها ولم تتمكن من القيام بالهجوم المعاكس لاقتلاع الصليبيين من جديد

ولاختصار ضياع الأحلام وغياب الآمال ودفء الأمان بالاستقرار والنصر، نقول كما قال القاضي الفاضل ولكن بحسرة متجددة: (أما هذا البيت فان الآباء منه انتفخوا فملكوا، والأبناء اختلفوا فهلكوا)<sup>(2)</sup>، فقد قسم صلاح الدين دولته بين أبنائه وكان هذا التقسيم نعمة لا نعمة على دولته، أثارت بينهم أحقاد وعداوات، وجرت أحداث مؤلمة بين الإخوة والأهل، وبرغم ذلك واصل خلفاؤه (أبنائه وأخوه العادل وأبنائه من بعده) رسالته في مقاومة الصليبيين والقضاء على نفوذهم واستئصال مراكزهم التي أقاموها على الشاطئ السوري

إنَّ الرؤية التاريخية لمعارك المسلمين هنا ونتائجها، تعتمد على التتقيب والكشف عن الحقائق، لكن هذه الرؤية مع أهميتها لم تكن الرؤية الوحيدة، إذ شاركتها في التجاوب مع الأحداث رؤية عاطفية أخرى، ركزت على صدى الأحداث في النفوس، وعبرت عن وجدان المعاصرين للمعارك، وعن مدى تفاعلهم وتجاوبهم مع الأحداث، ورؤيتهم للعوامل المحركة لهذه الأحداث، سواء كانت مرئية أم غير مرئية، وانعكست هذه الرؤية غالباً في الشعر<sup>0</sup> لكنها اجتمعت مع الرؤية التاريخية في سيرة صلاح الدين المعروفة بـ(الفتح القسي في الفتح القدسي)<sup>(3)</sup> التي سجل الكاتب عماد الدين الاصفهاني فيها سيرة صلاح الدين وأعماله فجمع بين التاريخ والأدب وعبر فيها عن رؤيته للمعركة والبطولة والبطل<sup>0</sup> ومع إنَّ عماد الدين سجل هذه السيرة بأسلوب مثقل بالصور البلاغية، فانه جعل منها ملحمة تذكرنا بالملاحم الكبرى وبعض عناصر خطتها الرئيسة<sup>0</sup>

(2) دول الإسلام: 314.

(3) وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان: 42/3.

(1) ينظر: الفتح القسي في الفتح القدسي: 63-65 ، 72-73 ، 77-79.

ولئن كان العماد قد صور أعمال البطولة تلك بصورة ملحمية أدبية تاريخية، فإن الشعراء أحاطوا بصلاح الدين في حطين وعكا والقدس وغيرها يمدحونه بمدائح ملحمية، مستمدين موضوعاتهم من بعض ما رأوه أو سمعوه ومن لم يشاركه الفرحة بالنصر أرسل إليه القصائد مشيداً بالمعركة والنصر وقد أورد هؤلاء لنا صوراً جميلة للأرض وللمعارك والبطل<sup>0</sup>

إنَّ الأحداث السياسية الجارية آنذاك أثرت في الشعر إذ (كانت روحه متأثرة بها حيناً، ومسجلة لوقائعها حيناً آخر، وملونة لمعانيه بألوانها)<sup>(1)</sup> الشعراء يدركون العالم الخارجي إدراكاً حسيّاً فضفاضاً مرتبطاً بمشاعرهم وخيالهم، ويعبرون عنه أيضاً بصورة حية انفعالية تحتضن أمانى النفس الإنسانية المستقبلية وهذا ما أكدّه (آدلر) احد علماء الشخصية والتحليل النفسي بقوله (إن الإنسان تحركه توقعاته للمستقبل أكثر مما تحركه خبرات ماضيه)<sup>(2)</sup>، فعندما يتأمل الشاعر أحداث مجتمعه وينسجم معها يجد أمامه أسباباً كثيرة مهينة لمسببات عميقة حتمية معدة في انتظاره، هنا يشرق عليه كل شيء في ومضة وله (قدرة مميزة هي الحدس)<sup>(3)</sup>

فعندما يبشر الشاعر عماد الدين الاصبهاني بالنصر واسترداد بيت المقدس فان قدرته المميزة وحدسه جعلتاه يرحب بوزارة شيركوه في مصر قائلاً:<sup>(4)</sup>

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب      كم راحة جنيت من دوحة التعب  
فتحت مصر، وأرجو أن يصير بها      ميسراً فتح بيت القدس عن كذب

ومن يدري ؟ فلولا قضاء الله ﷻ... فربما كان لأسد الدين السبق كعادته في شرف المشاركة لفتح بيت المقدس<sup>0</sup>

(2) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية: 55.

(3) نظريات الشخصية: 163.

(4) الإبداع في الفن: 19.

(1) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 79-80.

إن الأحداث السياسية لها تأثيرها المباشر في الشعراء حتى أصبح الشعر محرضاً على تغيير حالة سياسية، أو مؤرخاً للتغييرات أو ناقداً لظواهر سلبية أو مهتناً لأمر سار ...

لذا كانت حياة الأيوبيين السياسية بحاجة ماسة إلى حملة دعائية يقودها هذا الفن الرفيع، ففي الشعر دعائية لتثبيت قواعد عرشهم وهم (قوم لم يرثوا الملك عن أجدادهم ولكنهم بنوه بأيديهم، فالشعر يغرس في نفوس رعيتهم الجديدة حبهم والولاء لهم...) (1)

لعل من الأدلة الواضحة على عمق تأثير الشعر في سير الأحداث، عند اشتداد الأمر على الملك الكامل محمد بن الملك العادل صاحب مصر عندما حاصر الإفرنج دمياط سنة (615هـ) كتب الملك الكامل رسالة صدرها أبياتاً ما أن استوعبها الملك الأشرف حتى حضر بين يديه: (2)

إن تأت عبدك عن قليل تلقه  
ما بين كل مهند ومتقف  
أو تبط عن إنجازه فلقاؤه  
بك في القيامة في عراض الموقف

إن معاني الاستجداد واضحة صادرة عن إيمان وانفعال قويين، يعانقهما هذا الأدب الجمّ في الحوار الأخوي مخاطباً إياه بـ(عبدك) وكان آخر نفس جهادي للأيوبيين سنة (646 هـ) على أرض مصر، هي معركة المنصورة (3)، تلاها تسلم المماليك رايتي الحكم والجهاد

ولعلنا نؤيد رأي الدكتور سعيد عاشور (إنَّ التطورات السياسية التي انتهت بقيام الدولة الأيوبية إنما جاءت نتيجة مباشرة من نتائج الحركة الصليبية) (4)، ولكننا نخالفه الرأي في قوله (كسدت سوق الشعر واتجهت القرائح إلى الأدعية ومدح

(2) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 36.

(3) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: 303-304.

(1) أدب الحروب الصليبية: 156.

(2) الأيوبيون والمماليك في مصر والشام: 8.

النبي محمد ﷺ<sup>(1)</sup>، فإذا علمنا أنّ أغلب شعر هذه الحقبة ما يزال مخطوطاً أو مصوراً ينتظر من يجمعه ويحققه إضافة لما بين أيدينا من نتاج غزير، وما أكثر الشعراء الذين برزوا وما أوسع الأغراض التي طرقتها! ولذلك كان تقريب العلماء والأدباء مظهرًا من مظاهر القوة والأبهة والحضارة وسلاحاً من أسلحة الدعاية السياسية<sup>0</sup>

---

(3) نفسه: 155.

## الحياة الدينية:

كان عصر الحروب الصليبية عصر افاقة كبيرة ونهضة واسعة للمسلمين من الغفوة والتشتت والضياع والفرقة، ودفعتهم الغيرة والحمية للوقوف بكل قوة وعزيمة بوجه الطغاة البغاة الذين انحدروا نحو الشرق وبكثافة من أمم مختلفة وأجناس متباينة يجمعهم هدف واحد هو السيطرة على خيرات البلاد وموارد العباد، وكانت حجتهم تخليص قبر المسيح - عليه السلام - كذبا وبهتاناً من أيدي المسلمين... ومن هنا تولدت عند المسلمين روح الجهاد والكفاح والصمود ضد التيار الجارف الذي اقبل عليهم ليقضي على الحرث والنسل 0 لقد كانت مبادئ الدين الإسلامي والالتزام بها الوسيلة الوحيدة لتوحيد الكلمة - كلمة الله الكبرى - ورس الصفوف وجمع الشمل ونبذ الخلافات، وقد افلح الحاكمون آنذاك في مصر والشام في ذلك واستطاعوا جمع شتات المتباعدين واستدعاء الغيورين للحرب الجهادية سواء كانوا من الفاطميين أم الزنكيين أم الأيوبيين ثم المماليك 0 وكانت الثمرة نصراً عزيزاً ولاسيما تحرير القدس والمسجد الأقصى قبله المسلمين وثالث الحرمين الشريفين... وكيف يمكن تحديد المؤشرات لمعرفة ماهية الحياة الدينية التي تواجه أشرس بل أعتى حرب دينية عرفها التاريخ، فكما اعد السلاطين جيوشهم وآليتهم وعدتهم وخططهم للمواجهة المصيرية فان الحياة الدينية - كما يبدو لنا - غيرت مفاهيمها ورفعت شعارا مفاده (حي على الجهاد) وبهذا انضم المسلمون في حياة جهادية فدائية يشدهم الدين الإسلامي إلى إعلاء كلمة الله، وتمثل آيات كتابه الكريم، وتأمل قصصه الحكيمة، ولاح في أفق المسلمين الصراع الديني من خلال وصف أحداث العصر وملاحمه الخالدة وأصبح الشعراء يرددون هذا المعنى في جل قصائدهم، ويشيدون بالانتصارات الباهرة التي أعز الله وَجَلَّ بها الإسلام والمسلمين بعد ذلة وهوان، ونطقت أشعارهم بصور مختارة عن الكنائس والبيع والصلبان، وصور أخرى عن المساجد والقباب والمنابر والمصاحف... وصور للفرجة أعداء الإسلام الذين زرعوا النفاق والفساد في ارضه.. وكان ظهور المعاني الدينية التي نحن بصدد الحديث عنها فهي صور مستمدة من

الكفاح الديني ترتبط بالدين الإسلامي برباط وثيق ولاسيما مدينة القدس الشريف التي تشاركها مكة المكرمة والحجون والمدينة المنورة أفراسها وانتصارات جيشها<sup>0</sup> ولن يفوت المطلع على أشعار الفتوحات الكبرى تلك الرؤية الملحمية ومعانيها الدينية حيث رأى بعض الشعراء والكتاب في معركة حطين ملحمة لا تعادلها ملحمة ورأوا في مصير الفرنج بخروجهم من (بيت المقدس) مصير آدم في خروجه من الجنة لكن غفران الله لهم لن يتم، كما رأوا في نصر صلاح الدين ومسيرته مسيرة بعض الأنبياء الذين ورد تاريخهم ضمن قصص القرآن الكريم عن شعوب معينة كفرت بالله تعالى وكذبت الأنبياء، فعاقبها الله<sup>(1)</sup>، وبما أن المسلمين اعتقدوا إن شعيباً النبي مدفون قرب حطين، فقد قابلوا نصر صلاح الدين على الفرنج بنصر شعيب على قومه، فقد قصد شعيب إصلاح قومه بعد أن أرشده الله لهديته فقال ﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان﴾<sup>(2)</sup>.

لكن قومه قاوموا رسالته ونبذوه، فعاقبهم الله بان أخذهم بالرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾<sup>(3)</sup> ومع أن شعيباً من قبائل شمالي الجزيرة العربية فان المسلمين حددوا سيرته ومدفنه في منطقة الغور قرب حطين، وهو ما زود شعراء صلاح الدين بصور جديدة في شعرهم تجمع بين ماضيهم وحاضرهم<sup>0</sup> فرأوا في صلاح الدين شعيباً المصلح الذي عاقب الله الفرنج على يده، كما صوروا الفرنج بأهل الأيكة، مستمدين صورهم من قوله تعالى ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين﴾<sup>(4)</sup> مقارنة الأيكة لدى شعيب بالصليب لدى الإفرنج:<sup>(5)</sup>

كملحمة التل التي تلت العدا

وما طرق الأسماع من عهد آدم

(1) ينظر: قصص الأنبياء: 62.

(2) الأعراف: 85.

(3) الأعراف: 78.

(4) الشعراء: 176-177.

(5) ديوان المبشرات والقدسيات: 141.

أتوا واديا مازال ينفي جنائثا  
له جثمان أصحاب أيقة وهي في  
ويصفي لعقبى الدار طائفة الهدى  
ذراه وذا فيه شعيب تأيدا

وكما أن الشعراء وغيرهم رأوا في انتصار صلاح الدين في حطين ملحمة فريدة  
في تاريخ البشرية فإنهم رأوا فيها أيضا معجزة ألهمت قدرة إلهية وحركتها وخططت  
نصرها بل أرسلت الملائكة لتحارب فيها مع المسلمين، كما فعلت في معركة بدر  
الفاصلة بين المسلمين والكفار 0

يقول أبو الحسن بن علي الجويني: (1)

جند السماء لهذا الملك أعوان  
متى رأى الناس مانحكيه في زمن  
هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما  
من شك فيهم فهذا الفتح برهان  
وقد مضت قبل أزمان وأزمان  
له سوى الشكر بالأفعال أثمان

إنّ ارض فلسطين (بيت المقدس) تمثلت بطلة في كتابات العصر وشعر  
الشعراء، ومع أن تشبيه الأرض بالمرأة وربطهما معا في الأدب لم يكن بالشيء  
الجديد، فان معاصري صلاح الدين أضافوا إلى علاقة صلاح الدين بالأرض  
(الأنثى) صبغة إسلامية، فالمرأة رمز الخصب والعطاء والإنتاج، وتجديد العنصر  
البشري ومن ثم فتخليص الأرض من الذل والاعتصاب، كتخليص المرأة من الذل  
وتحريرها 0 فها هي فلسطين، ارض القدس تقصد صلاح الدين بعد نصر حطين كما  
قال الملك المظفر تقي الدين عمر بن نور الدولة: (2)

جاءتك ارض القدس تطلب ناكحا  
ياكفأها والعذر من عذرائها؟

(1) الروضتين في أخبار الدولتين: 104/2.

(2) خريدة القصر وجريدة العصر (شعراء الشام): 86.

ينظر أيضا: بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية (648-492): 139، 177 فما فوق.

زفت إليك عروس خدر تجتلي  
أيه صلاح الدين خذها غادة  
كم خاطب بجمالها قد رده  
مابين اعبدها وبين إمامها  
بكرا ملوك الأرض من رقبائها  
عن نيلها أن ليس من اكفائها

والقدس ظلت ظاهرة طوال احتلال الفرنج لها، وكان طقوس تطهير الصخرة المشرفة ومنطقة الحرم الشريف بأكملها بالمياه، وماء الورد والبخور وغير ذلك مما تلا تحرير القدس، إعداد القدس لهذا الرباط المقدس 0

الدين والحرب والشعر والخيال إن اجتمعوا يكونون قوة حقيقية لا يستهان بها لتحدي أعداء الإنسانية من جهة ولمواجهة واقع الحياة الإنساني من جهة ثانية، لما بينهم من خيوط الاتصال الخفي 0 فالدين اسم لجميع ما يعبد به الله ﷻ وإرادة الحرب والسيطرة هي أقوى وأعلى إرادة في الحياة على رأي بعضهم، والشعر بينهما ضرب من المرهم الذي يهدئ الجراح التي تتكئنا بها الحياة وإن كاد أن يظل عاجزا عن شفائها ومنذ زمن طويل، والشعر يجلب راحة عاطفية عن طريق الخيال وهو (يعلم الإنسان الثناء لا عن طريق الإشارة إلى عجائب الكون، كما يفعل العلم، بل بفضل خلق خيالات تحقق رغباته ويجب تفهم هذه العبارة بأوسع معنى تتحمله..)(1).

لقد احتضنت الحياة الدينية في عهد بني أيوب - شاءت أم أبت - الصراعات بين المذاهب والفرق الإسلامية وكان (الشعر هو سلاح الجميع، والشاعر هو الرجل المختار في سوح النضال الفكري ومعارك الخصام المذهبي)(2)، وسادت نفوس الشعراء في ذلك العهد (الأفكار الدينية) واستولت أيضا على شعور عامة الناس، وتكالبت الأزمات والمحن لتكبل دائرة الوجود الإنساني المتأهب للمعارك الحربية بالكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات والأمراض والأوبئة مما أدى إلى سحق أحوال الناس المعاشية وتخلخل الحياة الاقتصادية، مما ترك آثارا مؤلمة في حياة الناس الاجتماعية واستطاع الضعف والقلق والاضطراب أن يتغلغل في نفوسهم مع انعدام

(1) الشعر والصوفية: 28.

(2) الشعر العراقي في القرن السادس الهجري: 160.

الأمن وتزايد المخاوف في ظل أجواء الحرب التي تطحن النفوس بانفعالات عميقة الأثر، فمع خواء البطون واشتعال الأسواق غلاء وتقاسم الأرض نعمة الإقطاع والجذب والحريق والفيضان فأين المفر؟ ولسان حال المرء يردد بخوف ﴿امن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾<sup>(1)</sup>، وضافت النفوس ذرعا بسوء الحال فلجأت إلى الله سبحانه وتعالى وزهدت في الدنيا وناضلت للابتعاد عن الشهوات والمعاصي، ومن هنا يمكن القول أن الزهد استمد وجوده من تعاليم الدين الإسلامي ولا يخفى على الجميع أن الإسلام دين الاعتدال، لا إفراط ولا تفريط، ولنا القدوة الحسنة بالرسول الكريم محمد (ﷺ) وصحابته الأخيار، يعملون لدنياهم ولاخرتهم، وعندهم العمل عبادة والزهد لجم النفس عن شهواتها، وروي عن الرسول الكريم (ﷺ) قوله: ﴿أعظم الناس هما، المؤمن الذي يهتم بأمر دنياه وأمر آخرته﴾<sup>(2)</sup>.

ويشهد التاريخ أن الشخصية الحضارية للمجتمع الإسلامي لم تكن متشائمة أو متراجعة عن الحياة أو منكرة لفردية الإنسان بل كانت متفائلة ومؤكددة لذاتية الفرد لذا عندما يخص بعض الباحثين الزهد بالعامية من الناس بقوله: (ويبدو إنَّ العامية كانت تجد فيه (الزهد) زادا لها، وغذاء لمشاعرها وعواطفها)<sup>(3)</sup>، فإن هذا القول لا يتلاءم مع تعاليم الإسلام الحنيف إذ (كان المنظور الإسلامي للحياة هو السبب الأول في نشأة حركة الزهد بين المسلمين)<sup>(4)</sup>.

وتفاعل الشعر مع ظاهرة الزهد التي بدأت تتكاثر ويقوى عودها حتى غدت ظاهرة اجتماعية تضم ضحايا مجتمع الطبقات وقد استخدم الشعراء الكوارث والمحن إشارات إلهية للتذكير (فذكر إن نفعت الذكرى)<sup>(5)</sup>.

وللدين تأثير مباشر في نفوس الناس، والإنسان بطبيعته عندما يتعرض لازمة ما، يكون أحوج ما يكون لصدر رحب يفتح له وآذان صاغية تسمعه فكيف إذا كانت

(1) النمل: 62.

(2) المسند الجامع: م/25-26.

(3) الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 196.

(4) صورة المجتمع العراقي في القرن السادس الهجري: 252، (رسالة دكتوراه).

(5) الأعلى: 9.

حال العشرات من الناس حوله هكذا؟ إنهم يحتاجون للكلمة الطيبة الموسية التي تزرع الامان والصبر في نفوسهم، وتقلع الخوف والقلق من صدورهم، وهنا يأخذ الوعظ دوره في حياتهم الدينية والاجتماعية وقد ترك الوعاظ أثرا كبيرا في تفكير ابن جبير عند زيارته لبغداد سنة 580 هـ<sup>(1)</sup>

ومن أشهر الزهاد والوعاظ (أبو الحسن علي بن الأنجب، وعبد الله بن احمد المقدسي، ومحمد بن راجح المقدسي والزكي الحلبي وقاضي حلب محيي الدين الشهرزوري)<sup>(2)</sup> ومن النماذج المختارة لأشعارهم هذه الأبيات لابن قدامة المقدسي شيخ الحنابلة في عصره ومن أفاضل العلماء (ت 620هـ)، وهو يتذكر الآخرة دائما وقد عبر عن هذا بقصيدة حزينة باكية فقال:<sup>(3)</sup>

ابعد بياض الشعر اعمر مسكنا	سوى القبر أني إن فعلت لأحمق
يخبرني شيبني باني ميت	وشيكاً وينعاني إلي فيصدق
يخرق عمري كل يوم وليلة	فهل مستطيع رفو ما يتخرق؟

ورب عوامل ذاتية تنافس العوامل السياسية والاجتماعية لدى بعض الشعراء فتكون تلك العوامل ذات تأثير مباشر في زهدهم، فيأتي زهدهم تصويرا للحالات النفسية والانفعالية التي مروا بها، فهذا أسامة بن منقذ، اهتزت حياته بهلاك أهله وذويه في زلزال شيزر (سنة 552 هـ) في الشام، وكانت معاناته وآلامه واضحة تنطق عن أسى عميق وألم فردي لم يستطع النيل من جوهر أخلاقيات ابن منقذ فلم يسلمه ألمه إلى (حدة قاسية تتمزق معها الرابطة التي كانت توثقنا بالكون)<sup>(4)</sup> على حد تعبير الدكتور زكريا إبراهيم بل نلمس الوعظ والإرشاد لتحصيل العبرة، والمعاناة هنا لدى الشاعر أسامة بن منقذ طريق إلى الإبداع الشعري، بل إن الشعراء أنفسهم

(1) ينظر رحلة ابن جبير: 194، 195، 196.

(2) ينظر: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 197-200

(3) ذيل الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس و السابع): 141.

(4) مشكلة الإنسان: 34.

(تحدثوا دوما عن الالهام، وأكدوا أنهم يشعرون بأنهم أدوات منفصلة توجهها قوة خارجية في إنشاء أجمل آثارهم)<sup>(1)</sup> ومن آثاره في الزهد والاعتبار والإنذار قوله:<sup>(2)</sup>

يا غافلين عن الأمر الذي خلقوا      له، أفيقوا ، فللنوام هبات  
 ماذا السكون إلى دنيا حوادثها      لها على الخلق غدوات وغدوات  
 كيف البقاء بدار للفناء بها      على الخلائق كرات وغارات  
 وأنت أيها المغرور مالك في الد      نيا من الناس غير البعد منجاة

من المعلوم لدينا أن اضطراب العلاقات بين الناس سواء أكان نتيجة استغلال الأقوياء للضعفاء، أم ضعف الامكانيات المادية، أم الضغوط الاقتصادية، أم العوامل الثقافية والحضارية والاجتماعية السائدة في مجتمع من المجتمعات، أم الصراعات المذهبية والعقائدية، هذا الاضطراب بمجموعه يولد (الانعزال الوجداني والفقر العاطفي والشعور بفراغ الحياة وفقدان التوازن النفسي فيشعر الفرد نتيجة لكل ذلك بأنه مهدد قلق، لا يجد من يحميه، وبقية شرور العالم)<sup>(3)</sup> ويكاد يكون منظرا طبيعيا أن الإنسان عندما يصاب بتأزم نفسي أو مصيبة... تجأر نفسه لخالقه يدعوه ويناجيه ويتشفع برسوله الكريم، وهذا حال الجموع الغفيرة من الناس الذين يواجهون مجموعة الاضطرابات آنفة الذكر وأمرها الحروب الطويلة المدى، إنهم مؤمنون بان الدعاء والمناجاة طريقهم للراحة والأمان، وإيمانهم بالله سبحانه يحميهم ويقيهم شرور العالم، وتشفعهم برسوله الكريم يدفع عنهم الكرب والبلاء والغم، وهب الشعراء يدافعون عن الإسلام ومقدساته فتجلت المدائح النبوية (لونا من التعبير عن العواطف الدينية وبأبا من الأدب الرفيع لأنها تصدر عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص)<sup>(4)</sup> وللمدائح النبوية دور في إنشاء الوعظ والهداية والإرشاد، ممثلا بشخصية الرسول محمد (ﷺ)،

(1) طريقة التحليل النفسي والعقيدة الفرويدية: 381.

(2) ديوان أسامة بن منقذ: 276.

(3) التكيف النفسي: 6.

(1) المدائح النبوية في الأدب العربي: 17، وينظر: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام: 237-244، وينظر أيضا / الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي: 283.

فهو القدوة الأولى وتمجيده والإشادة بفضائله، أمر محبب لكل النفوس وتحتل الاحتفالات الدينية وبالأخص (الحج) مكانا مرموقا محببا حيث يضيفي الحج شعورا عاطفيا في نفوس الشعراء<sup>0</sup>

وقد زخر العصر بعشرات من الشعراء الذين مدحوا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ذكر عددا منهم الدكتور أحمد أحمد بدوي<sup>(1)</sup>، ومن الإشارات التي تستدعي مناقشتها هي ذكر الشعراء في غزلهم لبعض الأماكن والبلاد الحجازية التي جعلها الدكتور محمد كامل حسين هي (السبب الأول في ظهور المدائح النبوية)<sup>(2)</sup>، ونحن نتوافق مع الرأي الذي أورده إحدى الباحثات وخلاصته أن المدائح تمجيد لشخصية الرسول (ﷺ) لا يربط بمكان أو زمان معين، وإن الشعراء دائما يذكرون هذه الأماكن وحتى قبل العهد الفاطمي أو الأيوبي<sup>(3)</sup> وقد عزت باحثة أخرى تمسك الشاعر الأيوبي بذكر عوالم الصحراء العربية إلى التقليد الذي شغل الشعراء في كل العصور وجعلته تقليدا بعذر مشروع وعذرهم هو (الغزو الصليبي) وويلاته، فلقد خلق هذا الغزو لديهم الحاجة إلى التشبث بالتراث العربي ومنه العودة لذكر الصحراء بكل المعاني القديمة فكان (الدافع ينبع من شعور قومي مطلوب حضوره)<sup>(4)</sup>

وببساطة نعترف بان تعليل النفس بالوصول للديار المقدسة من الآمال المحببة لكل النفوس المسلمة، فلا يمكن نزع صورة مكة المكرمة أو المدينة المنورة من النفوس، نشأت إلى نجد وصبا نجد ولأسباب نفسية عميقة، يخيل إلينا أن رمال مكة وتراب المدينة لهما شذى مختلف، ويبقى الإنسان ولاسيما الشاعر مشدودا للحياة يتذوق متاعها وآلامها مصبرا نفسه بالتطلع إلى الأرض المقدسة والروضة الشريفة حيث الراحة النفسية بجوار الكعبة ومزار الحبيب المصطفى (ﷺ)<sup>0</sup>

(2) ينظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 517.

(3) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 193-194.

(4) ينظر: صورة المجتمع العراقي في القرن السادس الهجري: 272، (رسالة دكتوراه).

(5) المكان عند شعراء بني أيوب: 24، (رسالة ماجستير).

وقد يبكي بعضنا كلما ردد بحسرة غامضة شعرا فضله القاضي الجرجاني في معرض حديثه عن أبيات شعرية أخرى يقول: (ولكني ما أظنك تجد له من سورة الطرب، وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الأعراب:

أقول لصاحبي والعيس تهوي      بنا بين المنيفة فالضمار  
تمتع من شميم عرار نجد      فما بعد العشية من عرار  
ألا حبذا نفحات نجد      وريا روضه غب القطار<sup>(1)</sup>

وقد تمر علينا حوادث يجدها بعضهم ساذجة ولكنها في أحوال الدين وإيمان الناس بالقدرة الإلهية ومعجزات الرسول الكريم (ﷺ) تصبح من المؤشرات الخطرة في حياتهم فقد ذكر المؤرخون (ظهرت النار العظيمة عند المدينة المنورة ولم يكن لها حر على عظمتها وشدة ضوئها ودامت أياما)<sup>(2)</sup> وضج الناس والشعراء حتى نظموا القصائد في مدح الرسول الكريم (ﷺ)<sup>(3)</sup>

ولا ننسى ما لخيال الشعراء من فضل كبير في مساعدة الناس لتجاوز الأزمات الكثيرة التي عبثت بمجتمعهم فإذا بهم (يطلقون الأعنة للخيال فيسبح بهم في عوالم بعيدة عن واقعهم المليء بالأشجان والأحزان)<sup>(4)</sup>.

ونلمس اتفاقا واضحا بين الباحثين حول الدور المشهود الذي أداه المتصوفة في شيوخ شعر المديح النبوي ووصفهم الدكتور ناظم رشيد بقوله (كانوا يعطرون تكاياهم وزواياهم ورباطاتهم بقراءة القصائد التي تتناول سيرة الرسول (ﷺ) وتذكر صفاته وفضائله... وقد اتخذوا يوم ميلاده في كل سنة... مناسبة مفرحة لبعث التوسل والشفاعة والتضرع)<sup>(4)</sup>، وكثرت قصائد مديح الرسول الكريم (ﷺ) وقد خص

(1) الوساطة بين المتنبى وخصومه: 33.

والأبيات في ديوان الحماسة: 214/3.

(2) تنمة المختصر في أخبار البشر: 281/2.

الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين و الأيوبيين و المماليك): 410.

(3) الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي: 282.

(4) المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة: 19.

عدد من الشعراء مديحه بدواوين<sup>(1)</sup>، وتباينت معاني القصائد، وتطورت المناقشات حول عقيدة الفرنج<sup>0</sup> وهكذا نعود لذكر الحروب الصليبية التي ولدت صراعا عنيفا بين المسلمين وأعدائهم، وتصدى الشعر للرد عليهم ودحض آرائهم<sup>0</sup> إن التطور الذي سجل للمدائح النبوية، هو خروجها من المعاني الضيقة إلى المعاني الشاملة التي تضم تاريخا منظوما لسيرة الرسول (ﷺ) وقد احتلت مركز الصدارة في احتفالات المسلمين ومناسباتهم الدينية<sup>0</sup> وللصاحب شرف الدين الأنصاري، مدحة فيها تضمين من قصيدة كعب بن زهير مطلعها:<sup>(2)</sup>

أوهمت نصحا لو أن النصح مقبول      (لا ألهينك إني عنك مشغول)  
بان التجلد عني والتصبر مذ      (باننت سعاد فقلبي اليوم متبول)

إن انعدام التوازن بين الجانب المادي والجانب الروحي في حياة الإنسان من شأنه أن يؤدي إلى فقدان الاتزان في حياته، فيغلب جانب على الآخر، ويقدر عدم وجود هذا الاتزان في شخصية المرء بقدر ما يكون ذلك من عوامل سوء التكيف النفسي للإنسان، وهذا يعني (حالة صراع انفعالي يعاني منها الفرد)<sup>(3)</sup>، وسبق أن رسمنا صورة للمجتمع الأيوبي، ووجدنا أسبابا لنشوء المدائح النبوية وشعر الزهد وشعر التصوف، وتكاد تكون متقاربة، لان تلك الأسباب نتائج مؤكدة للظروف السياسية والحرب والمجتمع والاقتصاد والمذاهب.. وغيرها وهذه أحوال توصل الإنسان إلى الهرب من مواجهة الواقع الذي أغرقته الطبقيّة، أملا في علاج حالة الصراع الانفعالي النفسي الذي سببته بمجموعها تلك الظروف مما حدا إلى اعتزال الناس وإذا بالصوفي (يجد نفسه غريبا وسط أمواج التناقضات الاجتماعية)<sup>(4)</sup>

ينظر أيضا: المدائح النبوية في الأدب العربي: 18، الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين و الأيوبيين والمماليك): 409.

(2) تفصيل ذلك في: المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة: 17.

(3) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: 389.

(4) التكيف النفسي: 19.

(1) صورة المجتمع العراقي في القرن السادس الهجري: 267، (رسالة دكتوراه).

ولا نحتاج إلى تكرار ما كتب عن الصوفية والمتصوفة إذ يمكن مراجعة ذلك في المصادر<sup>(1)</sup>.

ونظن انه ليس من السهل أن نضع للتصوف تعريفا جامعاً مانعاً كما يقول أهل المنطق، وليس من السهل كذلك أن نصفه بوصف، أو نحده بحد، أو نضع له قاعدة عامة أو منهجاً مطرداً نسير عليه، إذ انه يختلف باختلاف الصوفية أنفسهم وكما ذكر الحافظ ابن الجوزي أنه (يزيد على الزهد، و الزهد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوف)<sup>(2)</sup>

إن التصوف في حقيقته (نزعة روحية، وحال فطرية يعتمد على الخيال والتجربة معا)<sup>(3)</sup>، وهذه النزعة وتلك الحال لم تختص بها امة دون امة ولم تقتصر على أهل دين دون أهل دين آخر، ولم يتميز بها جنس على جنس، هذه النزعة كنزعة الشاعر ولكن من نوع أرقى، وحال الفنان ولكن من روح أسمى ومزاج كمزاج الموسيقي ولكن من نغم أعذب وأحلى ولو فكرنا بروية وتعقل لا يقنا أن هذه النزعة موجودة في نفس كل إنسان لأنها قبس من نور الله تعالى، أودعها كل الحقائق ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾<sup>(4)</sup>... ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾<sup>(5)</sup> ولم يكن السجود لذات آدم المخلوق من طين، ولكن لروح الله التي أودعت نفس آدم وأودعت معها كل الحقائق، غير أنها في اغلب الناس تختفي - مع الأسف - لتغلب النزعات المادية عليها<sup>0</sup>

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: 17/1-18، 22.

(2) ينظر: مقدمة ابن خلدون: 328.

وينظر أيضا: للمع: 381، 349.

طبقات الصوفية: 278.

التصوف الإسلامي: 268/1، حضارة الإسلام: 172-173، فما فوق.

(3) تليس إبليس: 165.

(4) الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي: 26.

(5) البقرة: 31.

(6) الحجر: 29.

وتجدر الإشارة إلى أن الأيوبيين كانت لهم رعاية كبيرة لحركة التصوف، ومن أشهر شعراء الصوفية الشاعر السهروردي (ت 587هـ) وابن الفارض (ت 632هـ) ومحيي الدين ابن عربي (ت 638هـ)، ولسنا بصدد دراسة آرائهم وفلسفتهم وطرقهم ولكنهم يتفقون على ضرورة الشعر والتغني به فهو (اقوى ما ابتدعه الصوفية لتحريك وجدانهم الديني، فكثيرا ما كانت تعتري الواحد منهم حالة الجذب عند سماع أبيات من الشعر ...)<sup>(1)</sup>

يخالجني شعور لا ادري مدى صحته وهو أنّ هؤلاء المتصوفة يعيشون غربة ما وقد تكون هذه الغربة هي المرحلة ما قبل الأخيرة في حياتهم، فهم يبدأون زاهدين منعزلين يحملون أخلاقياتهم كإرث ثقيل ولكن غربتهم وعزلتهم لا تؤذي أحدا ومن الغريب أن يصور ابن عربي هذه الغربة في الفتوحات المكية بشكل فلسفي قد لا يميل إليه جميع القارئین يقول: (إن أول غربة اغتربناها وجودا حسيا عن وطننا، غربتنا عن وطن القبضة عند الاستشهاد بالربوبية لله علينا، ثم عمرنا بطون الأمهات، فكانت الأرحام وطننا فاغتربنا عنها بالولادة)<sup>(2)</sup>

تلك غربة ابن عربي والأشد منها غربة خمرة ابن الفارض الذي يرى في سكره أن الدهر عبده المطيع ومن لم يذقها فقد ضاع عمره الذي عليه أن يقضيه باكيا نادما لعدم موته سكرنا لنقرأ له<sup>(3)</sup>:

وفي سكرة منها ولو عمر ساعة	ترى الدهر عبدا طائعا ولك الحلم
فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحيا	ومن لم يمت سكرنا بها فاته الحزم
على نفسه فليبك من ضاع عمره	وليس له فيها نصيب ولا سهم

ما أروع هذا الانشراح الحاصل ونحن أمام تحليل وجداني للأبيات السابقة التي تبدو كما قلنا للرائي بأنها تتحدث عن (المُدَام) ولكن هذه (المدامة عيش الحياة وريح الممات وذلك أن من عاش في الدنيا خاليا من محبتهم فهو جسد بلا روح وتاجر بلا

(1) رحلة ابن جبیر: 256 وينظر وصف لمجلسهم، نفسه: 199.

(2) الفتوحات المكية: 101/2.

الاغتراب: 42/1.

(3) ديوان ابن الفارض: 83.

فتوح يغدو ويروح كالجسد المطروح... و من مات صاحيا عن شرابهم ولم يكن معدودا من أحبابهم فقد مات الميتة الجاهلية ولم يسم إلى المراتب العلية)<sup>(1)</sup> 0  
 حقا قد تساوى لدينا ميزان المفاضلة بين الشعر وتحليله من خلال هذه المعاني العشقية فالمحب والمحبوب شيء واحد والعابد والمعبود (متحدان في شخصية واحدة)<sup>(2)</sup> 0 الشاعر الصوفي يرى الحب أساس الأديان جميعها وعندما نواجه الشاعر ابن عربي بقوله:<sup>(3)</sup>

ادين بدين الحب أنى توجهت  
 ركائبه فالحب ديني وايماني

وبعيداً عن فكرة التصوف فانه أي القارئ يشعر بها معبرة عن الحب الإنساني الذي عرفه شعراء العربية وأبدعوا فيه وقد أباح الشاعر الصوفي لنفسه حرية التصرف في أي شعر يجد فيه روحه ووجدانه فقد تمثل الصوفية (بأشعار أبي نواس وابن المعتز وأبي تمام والمتنبي وسواهم)<sup>(4)</sup>

كانت لغة الحب ورموز المحبين هي الخيار المرجح على جميع المعاني واللغات حتى كأنهم يستعيرون الغزل العذري من شعرائه الأصليين منطلقين من رؤيتهم أن أرقى أنواع الفضائل هي (المحبة) وإذا بلغت غايتها فنسبت في الله المحبوب الأول ولهم في حالهم هذه رؤى فصلتها الكتب المعنية بالتصوف مثل (اللمع، والرسالة القشيرية، ودواوين المتصوفة...)<sup>0</sup>

ترى هل يلام شاعر التصوف يحيى بن حبش السهروردي الحكيم المقتول بحلب (ت 587هـ) وهو يصور الحالة الوجدانية لعشاق الذات الإلهية وكأنه يعرف ماذا ينتظره من مصير:<sup>(5)</sup>

(1) شرح ديون ابن الفارض: 1 / 196.

(2) ينظر تفصيل التوحد في تاريخ الفلسفة الغربية: الكتاب الأول: 46.

(3) ترجمان الأشواق: 44.

الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر و الشام: 96.

(4) الشعر الصوفي: حتى أقول مدرسة بغداد وظهور الغزالي: 105.

(1) الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس للهجرة: 209 نقلا من ديوان السهروردي المحفوظ في مكتبة الأسد الوطنية - دمشق رقم 5576، وينظر خبره في: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: 290/4.

كتمانهم فما الغرام وبأحوا  
لما دروا إن السماح رياح

لا ذنب للعشاق أن غلب الهوى  
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها

### الحياة الاجتماعية:

تتطلب الحياة الاجتماعية نظرة واقعية في حقيقة الحوافز النفسية ومدى التفاعل بين حوافز الأفراد (الدوافع الداخلية) في مجرى الحياة، وما إلى ذلك من واقع الظواهر النفسية وخصائصها<sup>0</sup>

ومن هنا تحتاج تلك النظرة أيضاً إلى تفهم فلسفة الأخلاق في صورتها الواقعية لتنظيم العلاقات الاجتماعية والموازنة بين حرية الفرد ومطالب الجماعة، وتمشياً مع هذه النزعة الشاملة نحو تفسير الحياة الاجتماعية، وتحديد مقوماتها نحتاج إلى تفهم لطبيعة الدوافع التي تتحكم في سير الأحداث من خلال مفاهيم السياسة والدين والاقتصاد والتفكير العلمي والأدبي بكل المجالات<sup>0</sup>

ولقد صدق ابن خلدون عندما قرّر في مقدمته المشهورة أن التاريخ ليس مجرد أحداث ووقائع، وإنما هو ظواهر مرتبطة كل الارتباط بعلاها وأسبابها في واقع الحياة، بسبب تشابه النتائج في مجرى الحياة البشرية والعمران، فسُنن العمران أو طبيعة الحياة الاجتماعية - في رأيه - تقضي دائماً بأنه كلما تشابهت الأسباب والمؤثرات اقتضى ذلك تشابه المسببات والآثار، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيقة وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق<sup>(1)</sup>

والمتمحّر في تاريخنا الاجتماعي يلاحظ ما بين حاضر الحياة الاجتماعية وبين ماضيها من وجوه الشبه والتماثل، وخصوصاً حين تتشابه الأحداث والوقائع! ولسنا ببعدين جداً عن ويلات الحروب ومخلفاتها وإفرازاتها، إذ عادةً يدفع الناس الثمن الباهظ لتلك الحروب بغض النظر عن أسبابها ومسبباتها.. وسبق التنويه بتأثر الحياة الاجتماعية بالحالة السياسية (والحربية بالتحديد)، وبالإمكان التأشير بإصبع الاتهام نحو (نظام الإقطاع الحربي)<sup>(2)</sup> كعلة شرهة نتج عنها - رغم محاسنها العسكرية - مساوئ اجتماعية كثيرة وأعمقها شراً هو تقسيم الناس إلى طبقتين متناقضتين، طبقة الأُمراء وأصحاب الإقطاع ومن سار في ركبهم من التجار الكبار

(1) ينظر: مقدمة ابن خلدون: 4.

(2) ينظر: معيد النعم ومبيد النقم: 34.

ومن والاهم من الأثرياء المقربين للأمراء والسلاطين ويمكن استخدام ما نتعارف عليه في مجتمعنا حالياً بوصفهم (أغنياء حرب)، والطبقة الدنيا، طبقة الشعب الفقير الذي لا يملك شيئاً، سوى كونه من الكادحين في الأرض الإقطاعية والأجراء وأصحاب المهن الصغيرة وهم المسخرون لخدمة الطبقة الأولى وعليهم عمل السلاح وإعداد المؤن للجيش المحارب<sup>0</sup>

ومن الطبيعي أن تلعب الأهواء لعبتها الشيطانية وصدق سبحانه في قوله ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾<sup>(1)</sup>، لذا كثيراً ما يكون الأمراء مع أهواء السلطان ويتبعهم عدد من العلماء والقضاة<sup>0</sup>

ولابد من الإشارة إلى مواقف بعض العلماء والفقهاء والقضاة الذين وقفوا بوجه الطغيان واجبروا الحكام على مراعاة العدل وتحكيم الشريعة الإسلامية، والقلة القليلة ممن رفض تحويل الأحكام طبقاً لرغبة الحكام وصمد أمام الاضطهاد<sup>(2)</sup>

وتطالعنا حكاية سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام الذي (ترك الدعاء على المنبر لسلطان دمشق الملك الصالح إسماعيل بسبب تحالفه مع الصليبيين واستعانتهم بهم ليعضدوه على ابن أخيه صاحب مصر وقد سمح لهم بدخول دمشق وابتياح السلاح منها...) <sup>(3)</sup>، وجاء ردُّ فعل الملك الصالح إسماعيل كما هو متوقع، إذ عزله وسجنه وضيق عليه<sup>(4)</sup> ومما يبعث الرضا - حقاً - هذا التفاعل الاجتماعي الذي يمكن أن يعد دليلاً قاطعاً على حسن العلاقة بين العلماء والناس فقد أفرج الملك الصالح عنه بعد أن بدأت نقمة الناس تتضح له<sup>0</sup>

إذا كان هذا حال العالم العادل! فمن الطبيعي أن يؤدي سوء توزيع الثروة إلى اختلال توازن الدخل ويتعرض الناس إلى اضطراب حياتهم المعاشية إلى حدّ المجاعات المنهكة المستمرة التي تكتسح الكثير من الضحايا الأبرياء وتشهد (سنة 597هـ) - على سبيل المثال - على ذلك بلسان أبي المحاسن حيث يقول (كان هبوط

(1) يوسف: 53.

(2) ينظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: 49/2.

(3) الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 65.

(4) ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: 189/5.

النيل... واشتداد الغلاء والوباء بمصر فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام وتفرّقوا وتمزّقوا كُلٌّ مُمزّق...<sup>(1)</sup>

ومن المفروض أن تضم الحياة الاجتماعية مظاهر مختلفة لنواحي النشاط الإنساني من الدين والعمل والأسرة والتعليم<sup>(2)</sup>، وما فيها من أعياد ومآتم وأفراح وأتراح وشتى الأدواء الاجتماعية وعللها، وتزداد حيرتنا أمام هذا التداخل المعقد في نواحي الحياة جميعها في هذا العصر، ويقابله حالة من التناقض الشائك، لذا يحتاج الأمر إلى تركيز القول ونبذ التكرار الذي لا يخدم الدراسة الأدبية<sup>(3)</sup>

ومثلما رسمت الظروف الحربية الخطوط العريضة للتكوين الاجتماعي السائد آنذاك فان (تردي الأحوال الاقتصادية، له أسوأ الأثر في حياة الناس الاجتماعية فكثرت الشكوى وساد القلق والخوف وضعف الشعور بالأمن...<sup>(3)</sup>)، ويبدو هذا التردي- بالإضافة لما سبق ذكره- قد خلق هوة سحيقة بين طبقات المجتمع الذي ينن من تفاوت الفرص أو انعدامها وتزاحم الأغنياء (أغنياء الحرب) وغيرهم على أبواب الجاه والسلطة والثراء لجماعةٍ أخرى، ممّا (جعل الناس يتحاسدون ويحقدون وينظرون بعضهم إلى بعض..)<sup>(4)</sup> مع عدم توقف علامات التعجب وكثرتها في أفكار الشاعر سبط ابن التعاويذي وهو يسترسل قائلاً:<sup>(5)</sup>

فكم نبيه قد رأيناه بالأمس      وضيعاً خامل الذكر  
وكم فقير بات ذا عُسرة      أصبح وهو الموسر المثري

ويصل اليأس والحزن ذروته عنده حتى يتمنى أن يخرج من دنيا الشعر والشعراء قائلاً:<sup>(6)</sup>

(1) النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة: 173/6.

(2) ينظر: ابن نباتة المصري (أمير شعراء المشرق): 20، 22، 81.

(3) الشعر العراقي في القرن السادس الهجري: 160.

(4) الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي: 273.

(5) ديوان سبط ابن التعاويذي: 191.

(6) ديوان سبط ابن التعاويذي: 191.

فليت شعري يا زماني متى اخرج من دائرة الشعر

والشاعر كما أوضحنا سابقاً فرد ينتمي إلى كل الشرائح الاجتماعية، يتميّز عنهم بثقافته حيناً وبتحسسه أحياناً، لذا كان من البديهي أن الشرط الأول لقيام الشاعر هو ظهور علاقة معينة بينه وبين مجتمعه، وربما لا نغالي إذا أمنا بان نوع ارتباط الشاعر بالبيئة الاجتماعية، ارتباط وثيق ويكاد يكون استعداداً فطرياً، حتى أن علاقة الشعر والشاعر بالحياة الاجتماعية موضع اهتمام المفكرين منذ أفلاطون الذي اهتم في التشريع لجمهوريته بتحديد موقع الشاعر فيها<sup>0</sup>

ومن خلال موقع الشاعر لافي جمهورية أفلاطون بل في مسرح أحداث الحروب الصليبية ومآسيها دأب بعض الشعراء لترصد أفعال (أغنياء الحرب)، وفتحوا قرائحهم الموجوعة المكبوتة لفضحهم وتقريعهم ونشر نقائصهم وكأنهم يقدمون للناس (مسلسلاً) هادفاً، ربما يزيد من حسرتهم ولكنه يهدئ غلهم وكأنني بالشعراء هنا كمقدمي بعض البرامج التي يفرح بها الجمهور ويصفق عالياً لوجودها في مجتمعهم ولكنها بالحقيقة عبارة عن امتصاص لغضب الجمهور، وشارب المرّ أكثر الناس كرهاً لمرارته! من اجل ذلك تصدّر الشعراء لمحاربة الظلم الاجتماعي، ويمكن التأشير للشاعر ابن عنين الذي لم تغب مصلحته الشخصية لحظات عن باله فجاء هجاءه وتمرده ذاتياً واجتماعياً إذا جاز لنا التعبير<sup>0</sup>

وابن عنين وغيره من الشعراء بما يملكون من مواهب وقدرات أدبية استطاعوا أن ينفثوا ما في صدورهم من ثورةٍ وتمردٍ وبذا يعيدون التوازن النفسي لشخصياتهم ويشعرون بأنهم اقتصّوا من الظلم الاجتماعي وحَقّفوا من المعاناة الإنسانية التي ترزح تحت وطأتها (شرائح أخرى اقل قدرة على التشخيص والتعبير في مجتمع لا يصل الفرد فيه إلى ما يبتغيه إلا ببذل ماء الوجه أو السير في ركاب السادة...) (1)، وأحياناً يجمع الشاعر تلك المعاناة ويوجّهها لسببٍ وهجاء الجيل والقبيل والزمان ويعرّض بالسلطان ويقارن نفسه ويوازنها بالشعراء السابقين وكأنه يضرب عصفورين بل أكثر

(1) صورة المجتمع العراقي في القرن السادس للهجرة من خلال كتاب خريدة العراق: 136، (رسالة دكتوراه).

بحجر واحد فنرى المسجف عبد الرحمن بن أبي بكر العسقلاني (ت 635 هـ) يقول:<sup>(1)</sup>

أنا في جيلٍ خسيس	وقبيل وزمان
امدح السلطان كي يصد	بح مالي في أمان
اكذا كان ابو تمّا	م قبلي وابن هاني؟

والأبيات تقريرية ربما جاءت جودتها -حسب ما نرى- بكونها موضحة لطبيعة التفكير الاجتماعي واتجاهاته، مؤشرة لما يختلج في ضمير الشاعر من قلقٍ وفقدانٍ للمعنى الرئيس للحياة وهو الشعور بالأمان<sup>0</sup>

وإذا كان الشاعر آنذاك لسان حال نفسه وقومه فإن العامة من الناس تلجأ إلى لسان الشكوى ونغمة التذمر فانهما الأكثر صدقاً في حياة الجماعة المغلوب على أمرها، وقدّر للإنسان أن يولد وتولد معه تجاربه وارتباطاته، وكلما اتسعت مجالات الحياة، ازدادت مطالبيها التي يبدو تحقيقها أمراً حرجاً للغاية قياساً بالظروف البيئية الاجتماعية وطغيان الجانب المادي<sup>0</sup>

ومن هنا يبدأ الإنسان بإحصاء إحباطاته النفسية وتدفعه خيبة أمله إلى الشكوى من كل شيء بدءاً بالدهر يحمله معاناته وقد يرمز من ورائه إلى الإشارة إلى مسببات الخلل<sup>0</sup>

وعندما تشتكي مجموعة من العامة فإن سرّها واضح للعيان ولكن من حقنا التساؤل: لماذا يتشكى شعراء ارتقوا في الدولة أعلى مناصبها واحتلوا في حياتها الأدبية ابرز مجالسها ولهم من الثراء والمال والجاه ما يجعلهم في غنى عن نبرة التشكي تلك؟ ولنسمع ما يقوله العماد الكاتب صاحب الحياة الطويلة العريضة:<sup>(2)</sup>

لحى الله دهرًا ضاق بي، إذ وسعته	بفضلي، كما ضاقت صدور صدور
فلم أر فيها واحداً غير واعدٍ	يخيل لي زور الخيال بزوره
وما كنت ادري أن فضلي ناقصي	وان ظلام الحظّ من فيضي نوره

(2) فوات الوفيات: 284/2.

(3) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 219.

ورجل مثل العماد يعزو أسباب الخلل والنقص في دهره إلى (صدوره) والصدور من يتصدر الأمر ويتحمّله وهم الساسة والحكام، ويحتمل أن وعيه وثقافته تجعله يعايش الأزمات بشكل يختلف عن عامة الناس، وذلك لأن شكواه (إشارة إلى حالة من التصدّع الحاصل في ذات المثقف نتيجة عدم التوافق بينه وبين المجتمع، فتحول مأساته إلى بث خارجي يتمنى حينها لو لم يكن يفهم ما يدور حوله...<sup>(1)</sup>)، ومن هنا شبّه بعض الباحثين الشاعر بالصوفي الذي يسعى لإنهاء نقص العالم<sup>(2)</sup> وإذا ما اجتمعت الإمارة والفروسية والأدب في شخص الشاعر إسامة بن منقذ فإنه يسعى حثيثاً لإنهاء نقص العالم بطريقة مبتكرة حينها وهي الابتعاد عن السلطنة ورجالها وبذلك يأمن هدوء البال وراحة الضمير والهادي الذي أوصله إلى هذا القرار تجاربه وعمره الطويل فهو يقول:<sup>(3)</sup>

لا تقربن باب سلطان، وان ملأت هباته غير ممنونٍ بها الطرقا  
فان أبوابه كالبحر ، راكبه مروّع القلب، يخشى دهره الغرقا

ويخيل إلينا أن أسامة بن منقذ حالة خاصة ونادرة جداً بين شعراء عصره لما تميز به من سماتٍ شخصيةٍ أظهرته أميراً ومحارباً وأديباً شاعراً، اعتمد كثيراً على خزين تجاربه الخاصة التي تدعو إلى تأملها بروية<sup>(4)</sup> ولن نندهش كثيراً ونحن نطالع القاضي الفاضل ينصح الفتى الطموح الإبقاء على حياته بالصدّ عن السلطة ويكفيه من الحياة التفرّج على الوزراء وهم يصرع بعضهم بعضاً أو يصرعون بأيدي خفية في غفلة من الزمن:<sup>(4)</sup>

وأحسن من نيل الوزارة للفتى حياة تريح مصرع الوزراء

(1) صورة المجتمع العراقي في القرن السادس الهجري من خلال كتاب خريدة العراق: 134، (رسالة دكتوراه).

(2) الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي: 29.

(3) ديوان أسامة بن منقذ: 30.

(4) ديوان القاضي الفاضل: 458/2.

ومن مصرع الوزراء حيث لعنة السياسة إلى مصارع -أشدّ ضرراً- الأحوال الاجتماعية السيئة، بالنقد الصارم وبالأسلوب الساخر، فهي هي المكوس الباهظة التي أرهقت الناس، فتصدى الشعراء لملاحقتها والتحريض برفعها أو تخفيفها عن كاهل الناس، بالإضافة لرصد موظفي الدولة وفضحهم وتعريتهم لما يقومون به من اختلاساتٍ مع الإشارة إلى تظاهرهم بالورع والزهد<sup>(1)</sup>

ومن صور التناقض التي علق عليها الشعراء أن يقوم اليهود بمطالبة المسلمين بدفع (المكوس) وفي هذا تنذر الشاعر المغربي ذوبان بن عتيق قائلاً:<sup>(1)</sup>

مالي أراكم تأمرون بضدما                      أمرت، ترى نسخ الإله الدينا  
كنا نطالب لليهود بجزيةٍ                      وارى اليهود بجزيةٍ طلبونا

وشاعت في أوساط الحياة الاجتماعية كثرة الألقاب التي تطلق على العلماء والقضاة وحتى السلاطين و الملوك والأمراء وبالأخص شمس الدين وبدر الدين... ولا تعليل لدينا غير الرغبة في الشهرة وحب الظهور، نعم إن اسم الإنسان هو أول هوية حضرية يمتلكها، ولكن استخدام كلمة (الدين) في ألقابهم جعلها تبدو طرفة فيها من السخرية ما يكفي رؤى الشاعر ابن عنين:<sup>(2)</sup>

صعد الدين يستغيث إلى الله                      ه ، وقال: الانام قد ظلموني  
يتسمون بي، وحقك لا اع                      رف شخصاً منهم ولا يعرفوني  
جعلوا ابن المصري تاجي، ولو كا                      ن شراكاً للنعل لم ينصفوني

وكان حجم الإصلاحات الاجتماعية الواسعة التي نفذها الأيوبيون لا تتناسب مع حجم المعاناة لعامة الشعب (الفقر والعوز)، مما جعل الشعراء يضجون بالشكوى من بؤسهم وشقائهم، وكان جُلُّ هؤلاء من معلمي الكتاتيب والورّاقين والشعراء الذين لم يتصلوا بأرباب السلطان<sup>(3)</sup>، وكأننا أمام صورة حديثة لمجتمعنا تحكي خطوطها قصة

(2) الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي: 282.

ينظر: ابن سناء الملك حياته وشعره: 34 / 1.

(3) ديوان ابن عنين: 209-210.

(1) خريدة القصر وجريدة العصر: شعراء الشام: 394/2.

المعلم المغبون الحائر وهو يصغي لشكوى أبي العباس التموزي وكان معلماً، وقد رفعها إلى القاضي الشهرزوري، هذا المعلم يشكو الفاقة وخلو بيته مما يقيم أوده، وكل

ذلك هين فيما لو سائده أهل عصره وأزروه ليتخطى محنته ولكنهم وكما وصفهم: (1)

وأهل زمني اقصروا عن مبرتي  
فلو كنت قسيس النصارى لعظموا  
مكاني، وخرّوا ساجدين وصلّبوا  
بحامل علم للديانة يُنسب  
فمالي أرى بالمسلمين تهاوناً

ولا يسعنا أن نضرب الأمثلة جميعها، فالعصر حافل بمثل تلك النماذج (2) التي تعكس صورة الشاعر كفرد في مجتمعه من خلال شعره الاجتماعي كناقِد اجتماعي (3)

وللأمانة العلمية نقول: إنّ الحياة الاجتماعية لدولة بني أيوب - في الغالب - لم تكن مترفة ولاسيما سنوات حكم الناصر صلاح الدين، فقد كانت تلك السنوات محمّلة بالمشاكل والهموم المصيرية للأمة الإسلامية بعد أن غلبت فكرة الحرب على السلاطين وتغلّبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم... لذا ضاقت حياة الترف لديهم وتحدت احتفالاتهم، فلا الوقت ولا المال يسعفهم لان (حراسة القوافل وتحصين القلاع وإعداد الجيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة العدد والآلات الحربية، كل ذلك كان كفيلاً بان يستنفذ كل درهم في خزانة سلاطين بني أيوب... (3) والرأي السابق لا يشمل الأعياد الدينية وغير الدينية مع نبذ الإسراف والتهتك (4)

ومع ما ذكرنا تبدو الحياة الشعبية غير واضحة لا نعلم عنها إلا القليل من خلال الأحداث الغابرة، ومن خلال الأدب الزاهد الذي يبشر بإنكار الحياة والانصراف عنها كما يعكس ذلك شعر المتصوفة، فالمواقف كثيرة وتعد من المظاهر الصحية منها عناية الناصر صلاح الدين بالأغراب الوافدين إلى الإسكندرية طلباً للعلم وبأمره

(2) نفسه: 395/2.

(3) للمزيد ينظر: ديوان فتیان الشاغوري: 57، وديوان ابن غنين: 225.

(4) الأيوبيون والمماليك في مصر والشام: 167.

- كما يقول ابن جبير (تم تعيين حماماتٍ يستحمون فيها ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكلَ بهم أطباء يتفقون أحوالهم ...) (1) وعلى ذكر الحمامات فقد فاق العناية بها كل تصور ففي بلدة دمشق وحدها (ما يقرب مائة حمام ... ونحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها...) (2)

وإذا كان حال الأعراب الوافدين هكذا، فإن حياة العامة استطاعت أن تبني لها درجات متواضعة على سلم الرقي الاجتماعي ولا نرمي إلى استعراض لذلك البنيان ولكن الحقيقة تفرض نفسها - أحياناً - وتصل الأخبار عن حمامات القاهرة المشيدة من الرخام والأحواض والمقاصير (3) ... التي شيدت لمنفعة الناس وصحتهم، بينما نصاب بالدهشة لما نسمعه يدور في حمامات دمشق من عبثٍ وهزلٍ وفحشٍ، ورسم بعض الشعراء أبياتهم في ذمها بسخريةٍ لاذعةٍ لانعدام النظافة فيها (4) وعندما يتعلق أمر الحمام بملكٍ أو سلطان فإن هذا المكان يتضوع بأعلى أنواع البخور وهي رقيقة ورائحة الحُسن تماثل في رقتها وحسنها زمان الملك الأفضل علي بن صلاح الدين الذي بنى حماماً كتب على بابه الشاعر الجبيلي: (5)

يا داخل الحمام مستمتعاً  
منها بريح المسك والمندل  
رقت وراقت فهي في حسنها  
تحكي زمان الملك الأفضل

وعملاً بمبدأ التآخي والتكافل الاجتماعي الذي يدعو إليه الإسلام، عومل أبناء السبيل من المغاربة معاملة حسنة ولهم جريات من الخبز وغيره، ولا يمكن للحياة الاجتماعية أن تنهض على وتيرةٍ واحدةٍ وعلى وجه الخصوص في مجتمع مليء بالمتناقضات، فعندما يجول الشاعر بنظره تتراءى أمامه المحاسن والمساوئ وإذا بالمساوئ تفوق تلك المحاسن التي تبدو ضئيلة، لذلك سجل الشعر أحوال المجتمع من اضطراب وفساد أو زلازل وكوارث وما يتبعها من الآثار المؤذية للحياة

(2) رحلة ابن جبير: 15-16.

(3) نفسه: 261، 245، 250، 257، 258.

(4) ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج3: 366.

(5) ينظر: ديوان فتيان الشاغوري: 238.

(6) خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام: 271/1.

الاجتماعية، وهنا تتجلى لدى الشاعر فطرته الإيمانية فيلحّ بالدعاء والنجوى ليفرّج عنهم هذه الكوارث التي قلبت حياتهم رأساً على عقب وكانت لإسامة بن منقذ تجربة واقعية عبر عنها قائلاً: (1)

ايها الغافلون عن سكرة المو      ت، واذ لايسوغ في الحلق ريق  
انما هزت الزلازل هذي الأ      رض، بالغافلين كي يستفيقوا

وقد أسهبت الأخبار في وصف أحوال الناس في دمشق وأكثرت من النماذج الشعرية الدالة على أنماط السلوك اليومية التي انتظمت حياتهم كأبي شعيب يهفو إلى التنزه والترويح عن النفس بحرية كل حسب ما يشتهي ويروم (2)، وآخرون يغنون السماع وكل إنسان فيما مال إليه هواه، وكان يوم السبت عطلتهم ويوم نزهتهم وقد اخبرنا الشعر بذلك كما صرّح فتیان الشاغوري بقوله: (3)

فلكل سبتٍ من دمشق مفاخر      أصبحن أولى بالفخار واليقا

من الظواهر الاجتماعية التي قد تبدو إرثاً يتوارثه الناس زيارة العتبات المقدسة والمقامات والمشاهد، وكانوا يعتكفون فيها للعبادة وذكر الله سبحانه وهذا الشاعر عبد المنعم الجلياني يخبرنا عن إحيائه الليل مع أصحابه في منطقة الربوة بدمشق: (4)

وليلة الربوة الشماء معلمة      حتى الصباح بذكر الله نحبيها

وما طبيعة مصر والشام إلا نعمة حباها الله سبحانه على الناس، وفرت لهم منتجعاتٍ سياحيةٍ يقضون رحلاتهم بين أحضان الطبيعة حيث الماء والخضرة حتى فُتن الشعراء بذلك الجمال الربيعي وغدت الحياة عندهم مواسم ومهرجانات... (5)

(1) ديوان أسامة بن منقذ: 287 0

(2) ينظر: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة: 125

وينظر: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 157، 169

(3) ديوان فتیان الشاغوري: 90 وينظر: 290 0

(4) الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 171 0

(5) ينظر تفاصيل موسم النوروز في: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: 136/1.

يحتفلون بـ(زمن المشمش) وأيام الورد، ويركب بعضهم الأسفار لحضورها كما يقول ابن نفاذة احمد بن عبد الرحمن الدمشقي (ت 601 هـ):<sup>(1)</sup>  
دعا الناس للذات مشمش جلق  
فقد اسرعوا من كل غربٍ ومشرق

ولعماد الدين الاصبهاني قصيدة تقع في ستة وعشرين بيتاً في وصف مشمش دمشق يرّد بها على قصيدة ابن نفاذة<sup>(2)</sup>

من كل ما تقدم نجد أن لعامة الشعب خطوطاً بدائية لحياتها، وللأكابر خطوطاً خاصة - مرسومة بعناية - لحياتهم والخط المشترك بينهم هو مجتمعهم الواحد الذي يضمهم، (فالصيد ورحلاته وحيواناته والألعاب المسلية كالكرة والصولجان والشطرنج...) <sup>(3)</sup> وغيرها كانت وقفاً على الأكابر. وللعامة شغل شاغل عن تلك الألعاب ففي قلة الأرزاق وشظف العيش وهموم الداء والدواء ما يكفيهم ويزيد. ورغم ذلك فإن نفوسهم التواقنة لانسج خيوط الأمل في الحياة، وأفكارهم القلقة المتشعبة لخلق لحظات هناء وعطاء، ساعد على تبلور تيارات شعبية أخذت تعبر عن رؤيتها بمرور الوقت، وفي حينها طرح الأدب الشعبي والفن الشعبي نفسيهما، (وقدم الأدب الشعبي من خلال الشعر، الزجل، والبلاليق (أبيات من الشعر) والسيرة والحكاية.. إجابات فنية عما طرحه الناس من تساؤلات محيرة مضمينة).<sup>(4)</sup>

ولا ننفق مع الدكتور قاسم عبده في رأيه أن الأدب الشعبي بديل من الأدب الرسمي الذي ناله الجمود والاجترار على حد قوله<sup>(5)</sup>.

إن اشد ما تحتاجه المجتمعات، حاجتها إلى الديمقراطيةين: السياسية التي تصون كرامة الفرد، والاجتماعية التي توفر العدالة وتحقق التضامن الإنساني في المجتمع. والأولى - في العهد الذي نحن بصدد دراسته - قد صانت كرامة الإسلام والمسلمين، مع بعض المواقف التي حفظها التاريخ وحاول إيجاد عذر لها... والثانية

(3) الوافي بالوفيات: 40/7 وينظر أيضا: نفسه/42

(4) ينظر: ديوان عماد الدين الاصبهاني: 316-318 0

(5) ينظر: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 178 و180 0

(1) ماهية الحروب الصليبية: 225.

(2) نفسه.

(الديمقراطية الاجتماعية)، نجد قولاً صريحاً مفاده: ان هناك صعوبةً في تحقيقها علماً أن العدالة والمساواة مطلبان أساسيان لبناء حياة اجتماعية متوازنة مرضية بعيدة عن التسلط على رقاب الرعية، وأشقى ما تعانيه هذه الرعية من (العمال المتسلطين) ولكن الشعراء بدورهم سلطوا أسننتهم بأسلوب انتقادي، وأوصلوا شكواهم لأولي الأمر لتبصيرهم بالظلم الواقع على الرعية ولربّ قصيدة من هذا النوع تكون (من أقوى الأسباب المحركة إلى إبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم)<sup>(1)</sup>.

وسبق الشاعر ابن عُنين أقرانه في التعرض للعيوب الاجتماعية، ساعده على ذلك شاعريته ونفسه التواقّة الجريئة ومما قاله في قطع الأرزاق:<sup>(2)</sup>

ان سلطاننا الذي نرتجيه      واسع المال ضيق الانفاق  
هو سيف كما يقال ولكن      قاطع للرسوم والأرزاق

من الطبيعي أن تتزايد مظاهر الحياة الاجتماعية كثرةً ووضوحاً بصفقتها تتصل بشرائح اجتماعية عديدة، كل لها لونها وطابعها، ولكن ما يزيد الدهشة أن الشعراء وقفوا بالمرصاد لكل تلك الظواهر الاجتماعية الفاسدة لكنهم سرعان ما ينصرفون إلى اللهو والمجون بشتى صنوفه وحاول مؤرخو أدب هذه المدة تعليل هذا التهاك على ملذات الدنيا، ونزعوا إلى آراء منها ما علله الدكتور شفيق محمد بقوله (وهم في ذلك - يقصد شعراء المجون والخلاعة - قد يصدرون عن ميلٍ ذاتي، وقد يصورون حياة فئة معينة من فئات المجتمع...)<sup>(3)</sup> ولولا استخدامه حرف التقليل (قد) لكانت صدمتنا اكبر! وما أجدنا بالاعتراف بان روح العصر... كانت هكذا، ويكفي أن نشير إلى مراجعة ما ذكره القاضي الفاضل في بداية (سنة سبعٍ وثمانين وخمسائة) واصفاً الحال بمصر<sup>(4)</sup> بما يمكن أن نتعجب قائلين: ما اقدر الناس آنذاك على العيش بوجهين وقلبين ومصيرين ولهم عروة وثقى واحدة هي الإسلام !!! ويبدو الرأي الآخر

(3) الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 184-185.

(4) تنمة ديوان ابن عُنين: 239.

(1) الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 212.

(2) كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار: 37/3.

بحاجة إلى سبر أغوار نفسيات الشعراء الذين وجدوا في المجون (متنفسهم فهم عند الأزمات واشتدادها، وعجزهم عن التغلب عليها لا يجدون مفرعا يفرعون إليه إلا المجون والفكاهة... في أثناء الحروب الصليبية وبعدها)<sup>(1)</sup>

وربما اجتمعت كل الآراء وتعليلها في الشاعر عرقلة الكلبى (ت 567هـ) فهو المثل الجيد لمظاهر الإباحية وحياة العيب والمجون ببلاد الشام، ويمكن ملاحظة هذه الجرأة الممقوتة في ذكره لأسماء الأنبياء (صلوات الله عليهم جميعاً) وهو يصف الخمرة ويضفي على هذا الوصف طابعاً دينياً محضاً، يقول:<sup>(2)</sup>

مشعشة اذا ما صفقوها  
بماءٍ خلتها نوراً ونارا  
لها من مولدي موسى وعيسى  
شراب لليهود وللنصارى

ونقرأ له أيضاً:<sup>(3)</sup>

معتقة من قبل شيت وأدم  
محللة من قبل عيسى واحمد  
صفت كدموعي حين صد مديرها  
ورقت كديني حين أوفى بموعد

فالحياة عنده خمر ولذة وطبيعة، حتى عُدّ شعره (صورة أصيلة عن مظهر هام من مظاهر الحياة الاجتماعية...)<sup>(4)</sup>

وليس بمقدورنا توثيق كل تلك الظواهر ودواوين الشعراء تزخر بعشرات القصائد يمكن الرجوع إليها<sup>(5)</sup>. وبين الحين والآخر يثير انتباهنا خبر هنا أو هناك يعزز قوة انقياد الشعراء لروح العصر فنجد الشاعر ابن الوردي يستغفر ربه لما تقدم

(3) ابن سناء الملك (حياته وشعره): 35/1. وينظر: دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 153.

(4) ديوان عرقلة الكلبى: 46، 47.

(1) ديوان عرقلة الكلبى: 23.

(2) الأدب في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 237.

(3) للإطلاع ينظر: ديوان ابن النبيه: 13.

ديوان ابن سناء الملك: 2 / 390، 379، 440، 444. ديوان تاج الملوك الأيوبي: 102، 107، 213.

ديوان فتیان الشاغوري: 156.

من أمره حيث اضطر - افتخاراً بشعره - إلى افتتاح قصائده بالغزل بالمذكر، لتروج أشعاره وتنتشر، وهذا يؤكد أن روح العصر لاتعد ذلك الغزل خروجاً عن المألوف، يقول ابن الوردي (ت 749هـ) المعروف بنقواه:<sup>(1)</sup>

استغفر الله من شعرٍ تقدم لي في المرد قصدي به ترويج اشعاري

ويبدو أن عملية التطبيع الاجتماعي عند فتیان الشاغوري تعدت التزامه بما في المجتمع من أخلاقيات نابعة من تراثه الروحي والديني والتاريخي، فلم يكتف بإغراءات الحياة العابثة التي اعتاد عليها الشعراء في عصورهم المختلفة، نراه ينزع إلى (الأديرة)، يترك العنان لشعره ليلهو كما يحلو له، مصوراً نزعات الشاعر اللاهية في هذه الحياة<sup>(2)</sup>

هذا غيظ من فيض ولن نغفل للحظة عن حقيقة كون الحروب الصليبية أحدثت الكثير الكثير من التأثيرات في حياة الشعوب الإسلامية، فحالة الإعداد للحرب والدعوة للجهاد، وخوض غمار تلك الحروب الطويلة الشرسة، شغل ذلك أفكارهم، ثم حالة الهزل والفكاهة للترويج عن أنفسهم أو لإشباع ميولهم الذاتية النازعة إلى الاستهتار والمجون...

وقد نوهنا سابقاً أن الشعر يمكن اعتماده وثيقة اجتماعية لتصوير الحياة الاقتصادية في مختلف صورها ومظاهرها، وحملنا أيضاً الحروب الصليبية مسببات كثيرة جدا طرأت على حياة الناس والحالة الطارئة الجديدة نظن بأنها لاتعد من مظاهر الحياة الاجتماعية بقدر ما تعد علاقات مؤقتة تستأنف متى ما يستتر العداء بين المسلمين والفرنج عن طريق الصلح أو الهدنة، وتتقطع متى تشد أوزار القتال ثانية، وهكذا اختلط المسلمون والفرنج ببعضهم وتزاوروا وكانت (المناظرات تجري بين رجال من الصليبيين ورجال من المسلمين كل يحبذ دينه ويقيم البرهان على صحته)<sup>(3)</sup>

(4) ديوان ابن الوردي: 318.

(5) ينظر: ديوان فتیان الشاغوري: 507، 523.

(3) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر و الشام: 21.

ووفى كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ الحديث عن طباعهم وأخلاقهم، وما لهم من فضائل وما عليهم من عيوب...<sup>(1)</sup>.

أما رؤية الدكتور سعيد عاشور حول هذا التواصل بين المسلمين والإفرنج فهو (اتصالات حضارية ومعاملات اقتصادية على جانب خطير من الأهمية بين المسلمين والصليبيين)<sup>(2)</sup> في حين حدد الرحالة ابن جبير هذه الاتصالات والمعاملات على أنها (من أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسببهم يدخل إلى بلاد المسلمين)<sup>(3)</sup> وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة!! على رأي ابن جبير 0

لو أردنا أن نقابل المواقف الاجتماعية مع المواقف الشخصية (السياسية) لتراءى لنا موقف ثابت لا يتزعزع يمثل الحياة الاجتماعية أزاء (موقف سياسي واحد) ألا هو قدسية بيت المقدس ففي سنة 616هـ اضطر الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر صاحب دمشق تخريب سور بيت المقدس<sup>(4)</sup>، والرعية على ما هم فيه من بؤس وشقاء يتلقون هذه الضربة القاسية وهم لا يدركون الأسباب الخفية لهذا العمل ولكنه شائن بنظرهم، قال القاضي مجد الدين محمد بن عبد الله:<sup>(5)</sup>

وقد رام علاج ان يعفي رسومه	وشمر عن كفي لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها	لمعتبرٍ او سائلٍ او مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته	بنفسي وهذا الظن في كل مسلم

انه شعور كل مسلم انه شعور ثابت لا يتغير وتكرر عندما تنازل الملك الكامل عن بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثاني وضج الناس يومها بالبكاء

(2) الاعتبار: 169-180.

(3) الأيوبيون والمماليك في مصر والشام: 164.

(4) ينظر: رحلة ابن جبير: 260، 271، 273.

(1) ينظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة: 244/6.

(2) نفسه: 245/6.

والعويل ونجدهم لهفى لموقف الدموع والحزن مما يؤكد أن الكيل طُفح بهم وجاء قول  
عماد الدين الاصبهاني في وقته: (1)

الشعر لا بد له من باعثٍ كحاجة الخيل الى مهمازها

وما أشقاه من باعثٍ !! جعل الشاعر ابن المجاور ينفث ما في صدور جميع  
المحتشدين من غمٍ وكربٍ راجياً دموعه ان تطفئ ما في قلبه من جمرات وطاوعته  
معانيه وأسعفته ألفاظه فكان العالم الإسلامي نادباً حزيناً يأساً أن يلمّ شتاته، يقول  
يعقوب ابن المجاور: (2)

أعيني لاترقي من العبرات صلي في البكا الاصال بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفئ فيضها توقّد ما في القلب من جمرات

القصيدة صادقة العاطفة، بعيدة عن الافتعال أو التصنع، واقعية الإحساس، جاءت  
أبياتها متناسقة في الأداء جمّلتها حماسة الإلقاء ويصدق فيها قول عامر بن عبد  
قيس (الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز  
الأذان) (3).

وأخيرا وظف ابن المجاور بيتاً شعرياً واحداً من شعر المتقدمين جاء على نفس  
الوزن والقافية، وربما أثار هذا البيت الشعري الشجن في نفوس السامعين بما يعادل  
جميع أبياتها، ونجاح هذا البيت في حسن توظيفه سانه الباعث على إنشاد القصيدة،  
فجلّت خاتمتها ببيت الشاعر دعبل الخزاعي: (4)

مدارس آيات خلت من تلاوةٍ ومنزلٍ وحىٍ مقفر العرصات

(3) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 226.

(4) الروضتين في اخبار الدولتين: 206/2.

(1) البيان و التبين: 29/4.

(2) ديوان دعبل الخزاعي: 36.

## الحياة الأدبية

إنَّ تطور أي مجتمع يواكبه دائماً تطور فكري وفني يمثل ما يصدر عنه من ضروب المعرفة والتطورات الجمالية ومن الملاحظ ان لكل مجتمع حضاري مهما كان من البساطة والتخلف رصيده الثقافي من فن ومعرفة وفلسفة في طبيعة الحياة والموت ونشأة الوجود ومصير الانسان وما الى ذلك من سائر الظواهر المادية والكونية. فالجانب الفكري من النشاط الثقافي يتمثل في المعرفة العقلية من فلسفة ومنطق ورياضيات... أما الجانب الفني من النشاط الثقافي فيتمثل في التعبير الجمالي عن ظواهر النفس والطبيعة تعبيراً من شأنه ان يعمق القيم ويجسم مواطن الجمال في الفكرة والمادة.

ان الحياة بمجالاتها (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية) تؤثر تأثيراً مباشراً وخطيراً في مسار الحركة الفكرية والأدبية لأي مجتمع من المجتمعات. وقد تقاس فاعلية ونماء المجتمع من خلال حياته الادبية، وما مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء الا مؤشر للتفوق الادبي ومن هنا تتضح اهمية قول الجاحظي كون الامم حين قيدت مفاخرها بالبنيان قيد العرب مفاخرهم بالبنيان وبالشعر<sup>(1)</sup> فهو يمثل اشارة تاريخية الى ضخامة دور الشعر الحضاري في حياة العرب الفكرية، لان العرب الذين هم اهل الفصاحة جلّ كلامهم شعر، فأودعوا أشعارهم كل المعاني...<sup>(2)</sup> شغلت الحقة الزمنية- التي نحن بصدد دراسة عهد من عهودها- حيزاً كبيراً من الاهتمام الاسلامي، اذ كانت أرضها مسرحاً ثابتاً لحوادث كبرى اشدها الما وقسوة ما رواه ابن الاثير في وصف مذبحة سنة (492هـ) بعد حصار طويل لبيت المقدس (وقتل الافرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كبيرة من ائمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم...)<sup>(3)</sup>. وكذا فظائعهم سنة (518هـ) أثناء حصار حلب<sup>(4)</sup>. وقد وصف (نسيمان) المدينة المقدسة بقوله (وليس معروفا بالضبط عدد ضحاياها غير انها أدت الى خلو المدينة من سكانها المسلمين و اليهود بل ان كثيراً

(1) ينظر تفصيل رأيه في: الحيوان: 36/1-38.

(2) ينظر: المثل السائر في ادب الكاتب و الشاعر: 85/1.

(3) الكامل في التاريخ: م426/8.

(4) ينظر: زبدة الحلب من تأريخ حلب: 224/2.

من المسيحيين أشد جزعهم لما حدث..؟!)(<sup>1</sup>). ولخص (غوستاف لوبون) ما حدث عن روايات رهبان و مؤرخين رافقوا الحملة الصليبية على القدس، ومسجد عمر (رضي الله عنه) و المعرة، ولكنه أنصف في قوله (إن النضال الذي ناضله الصليبيون في حملاتهم الأولى كان نضال عالم لم يزل على توحشه مع مدنية من أرقى المدن التي حفظ التاريخ ذكرها)(<sup>2</sup>). وأيضاً نكبات وقوع الطراز الأخضر بيد الفرنجة، وتهديدات الفرنجة لمصر، ثم توحيد البلاد الإسلامية وتحرير معظم الشام بعد احتلال دام ما يقارب القرن، وبإعادة القدس مدينة إسلامية بعد أن غير الفرنج معالمها الدينية المرتبطة بالعقيدة الإسلامية، وربط تاريخ مصر وسكانها بتاريخ الشام وسكانها، وخلاف الملك والمنافسة بين الأبناء وتأثيرهما على أمر الجهاد، مع استمرار الخطر الصليبي وعنادهم في استرداد بيت المقدس بعد أن مضى أربعة عشر عاماً وغارات الفرنج لا تقف من عكا إلى دمياط ومعها برج السلسلة.

هذه الأحداث الجسام كانت من أهم أسباب نهضة الأدب العربي، إذ استثارت هم الشعراء وساهمت بشكل فعال في إذكاء قرائحهم، ولعبت الرسائل الديوانية دوراً خطيراً وبارزاً، فقد وصف الأدباء الحروب وتغنوا بالانتصارات ومدحوا الأبطال وبعثوا في الناس روح النخوة والجهاد والاستبسال في الذود عن حياض الوطن وحرمة.

نقول: نهض الأدب لاداء وظيفته الحقيقية لأن (الأدب الحقيقي الحي ما كان صورة معبرة عن النفس الإنسانية في كل زمان ومكان وغايته الخلق والإبداع)(<sup>3</sup>)، وأن أساس خلوده، اللغة والدين والتاريخ والثقافة ومما أحيى الحركة الأدبية وفاقها من غفوتها أن الملوك والسلطين والامراء - برغم الحروب والفتن - شجعوا وقرّبوا الأدباء بشكل عام

(1) الشبكة الإسلامية، 2002/11/10 (الاحد)،

الموقع على الانترنت [www.islamweb.htm](http://www.islamweb.htm) عنوان الصفحة: (المسيحية و السيف) وثائق تاريخية عن فظائع الحروب الصليبية.

(2) الإسلام و الحضارة العربية: 228/1.

(3) الأدب في بلاد الشام(عصور الزنكيين و الأيوبيين و المماليك):10.

والشعراء بشكل خاص وكانوا (يعقدون الندوات، يستمعون فيها الى النوادر والفكاهات او يطربون بتغريد احدى المغنيات او يتبارون مع الشعراء في مدارس الشعر ونقده)<sup>(1)</sup>.  
بالاضافة الى شهرة صلاح الدين وميله للادب واکرامه للشعراء، كان عدد لا يستهان به من ابناء الاسرة الايوبية يقرضون الشعر وينشدونه ول بعضهم دواوين شعرية<sup>(2)</sup>.

وكما ادرك الايوبيون اهمية الادب في ميدان الجهاد والحروب لطرد الصليبيين من العالم الاسلامي، ادركوا اهميته في (ميدان الدعاية السياسية لان الشعر من اهم الوسائل التي تساعد على غرس المحبة والولاء في نفوس الرعية آنذاك)<sup>(3)</sup> O  
وهكذا وجد ملوك بني ايوب في (حديث الادب والشعر راحتهم ومنتفسهم، بعد ان يلفحهم هجير الحرب، فيجدون في مجالسهم وسمرهم ومنتداهم ما ينسيهم نار الحرب وويلاتها)<sup>(4)</sup> O

وقديما تحدث ارسطو - وهو بسبيل الحديث عن المأساة - عن فكرة التنفيس ومؤداها ان التمثيليات تعين المتفرجين على ان يتخففوا من مشاعرهم الزائدة الحبيسة وان يحققوا رغباتهم المكبوتة و(هذا التنفيس وهذا التحقيق هما اللذان يحدثان في نفس المتفرج المتعة ويشعرانه بالسعادة)<sup>(5)</sup> O  
وكنتيجة حتمية لهذا التشجيع والرعاية من قبل السلاطين، هاجر الشعراء الى دولة الايوبيين خاصة ان مصر والشام استقطبتا انظار الابداء والشعراء، ونظرة سريعة لكتب

(1) ابن سناء الملك (حياته وشعره): 19 / 1.

لمزيد من التفصيل يراجع: النشاط العلمي والادبي في عهد الاسر الايوبية: 445 وما بعدها، (مجلة آداب الرافدين).

(2) شفاء القلوب في مناقب بني ايوب: 233، 256، 258.

وينظر: الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية: 23-26.

والشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 48.

(3) الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد: 136.

(4) ابن سناء الملك (حياته وشعره): 21/1.

لمزيد من اخبار مجالس الشعراء والابداء ينظر: الروصتين في اخبار الدولتين: 267/1.

الادب في عصر صلاح الدين: 246.

(5) التفسير النفسي للادب: 48.

الادب نجد انها اوردت اسماء عدد كبير من الشعراء (تحولوا الى الدولة الايوبية وعلى وجه الخصوص من العراق)<sup>(1)</sup>

كل ذلك يجسد مشاعر الاخوة الاسلامية التي كان يحملها العراقيون في اعماق وجدانهم نحو اخوانهم في بلاد الشام ومصر، ولا يخفى علينا ان من اهم الدوافع التي دفعت العراقيين الى الاتصال بالايوبيين هو كرمهم المتزايد للشعراء فاستجاب الشعراء لهذا الكرم وغالبا ما صرّح الشعراء بذلك علانيةً كما فعل الشاعر العراقي سبط ابن التعاويذي مخاطباً صلاح الدين:<sup>(2)</sup>

وأقمت سوقاً للمدائح مربحاً      فاليه اعلاق الفضائل تجلب

ولقد شكل صلاح الدين - شخصية وبطولة - لوحده دافعاً رئيساً لالتفاف الشعراء والأدباء والمؤرخين حوله في سلمه وحربه وحله وترحاله في مصره وشامه، ناهيك ان الايوبيين عامة تصدّروا مشاق المسؤولية التاريخية الضخمة لتحقيق امانى المسلمين في حفظ الديار وردّ المعتدين فنالوا الحب والاعجاب والفخر بهم بجدارة

ان ما يميز الحروب الصليبية عن كافة الحروب التي مرت في الجاهلية والاسلام هو مظهرها الديني وافرازاتها من تدمير وقتل وسلب وتشريد للمسلمين وغير المسلمين وكذا ضخامة الآلية والجند والعدّة والعدد، وكونها شغلت مساحة زمنية دامت زهاء قرنين... كل ذلك مضافا اليه تجزؤ الامة الاسلامية الى امارات ودويلات صغيرة لا هم لامرائها سوى اقتناص الفرص لاصطيادها فريسةً سهلة ثم معجزة النهوض بالامة وتوحيد القوى وحيّ على الجهاد صداها يعطر الكون... بمثل هذه البيئة وهذا الجو نما وتربى الادب، ودبت عناصر الحياة الادبية الجديدة في كنف حياة سياسية كان لرجالها اثرهم في توجيه الادب، وفي النهوض به حيناً ومحاربة بعض الوانه حيناً اخر، وكان لها اثرها كذلك في الانتاج الادبي من حيث احداثها وتقلباتها...<sup>(3)</sup>

(1) الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد: 136-137.

(2) ديوان سبط ابن التعاويذي: 24. لمزيد من التفاصيل ينظر: سبط ابن التعاويذي (حياته وشعره): 1، 32-33، 76.

(3) الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية: 5.

اعتمدت الحياة الأدبية - بشكل كبير - الشعر الحماسي الذي يصور بكل صدق بطولات الأبطال، وامتألت دواوين الشعراء ومجلدات الخريدة بتلك القصائد الحماسية مما حدا ببعض الباحثين إلى أن يطلق على هذا اللون من الشعر (فن الشعور بالقومية الإسلامية)<sup>(1)</sup>، حيث انطلق الأدب بفضيه معبرا عن هذا الشعور

وربما يخطر ببالنا أن نتساءل: لماذا يلجأ سيف الإسلام طغتكين (أخو صلاح الدين) إلى الشعر عندما وجد نفسه تشرئب إلى اليمن؟ فيوحي إلى ابن سعدان الحلبي بأشياء قصيدة تضمنها هذه الأمنية ويسمعها صلاح الدين، أليس بمقدوره أن يطلب ذلك منه - وهو الأخ البار بأهله - مباشرة؟؟ تقول الأبيات<sup>(2)</sup>:

فالسيف لا يذخر إلا للفتن      جرد لها السيف الصقيل فتنةً  
شده به أزر العلى فانه      نعم فتى من شرع الجود وسن

أذن حبّ الشعر وتذوقه واستحسان الجيد من نصوصه وحفظه وترديده في مجالسهم بات من سجايهم، التي يفخرون بها ويودّون أن يسطرها التاريخ وأهله ويخلدها الأدب وصناعه<sup>0</sup> ومع غليان المعارك الدامية كان للشعر العربي على نفوسهم سطوة وسلطان فقد طواهم البيان العربي تحت جناحه فتعلقوا بسحر موسيقاه وجوهر معانيه فغشيهم وسن الولهان بعد أن تمازجت مشاعرهم المرهفة الذواقة بمكنونات جواهر الشعر العربي في الشجاعة والفروسية والتفاني في القتال بإصرار ورغبة جامحة فقد روى ابن الأثير في كامله أن عز الدين فروخ شاه ابن أخي صلاح الدين هان الموت في عينه فالقى نفسه إليه وهو يستذكر بيتي المتبني<sup>(3)</sup>:

فان تكن الدولات قسما فانها      لمن يرد الموت الزؤام تؤول  
ومن هون الدنيا على النفس ساعة      وللبيض في هام الكماة صليل<sup>(4)</sup>

(2) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 87.

(3) الروضتين في أخبار الدولتين: 26/2.

(4) الكامل في التاريخ: م 57/10.

(1) كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 376/2.

إن الأيوبيين أنعم الله ﷻ عليهم بالسلطان والمجد والبطولة والذكاء السياسي والاجتماعي وحب الأدب واهله فحرصوا جاهدين على التغلغل في جوهر الأدب العربي- نثراً وشعراً- وبحذر شديد حتى يحققوا نصراً في ميادين اللغة والأدب يناسب على الأقل انتصاراتهم الحربية والعسكرية الإسلامية<sup>0</sup>

ويتراءى لنا ان طموحاتهم السياسية والدينية- لاتبدو بنظرهم كاملة- الا اذا لعبوا دوراً رائداً في الميدان الفكري والأدبي، وبالأخص انهم يدركون ان (الشعر ديوان العرب)<sup>(1)</sup>، فكان لابد لهم من دخول هذا الديوان وتذوق هذا الفن الجميل، ومن يدري ربما كانوا يشعرون ان الأدباء والشعراء يعكسون بصدق انفعالاتهم ويصوّرون بدقة متناهية ما يختلج في صدورهم من احساسات بالفخر والعظمة وبالفرح والغبطة وهذا يذكرنا برأي- نراه سديداً- للكسندر وروشكا يصف ذاك الموقف: (ان الأديب في ملاحظته للأخرين يدخل الى عالمهم الداخلي فهو بتصويره شخصية ما يعيش حياتها، ويراهما من الداخل وفي الوقت ذاته يعرف كيف ينظم ملاحظاته ليسكبها في تعبير جمالي مناسب، وفي هذه العملية فان المعطيات التي يحصل عليها يربطها في ذهنه بملاحظات وانطباعات في الحياة كان قد كونها مسبقاً)<sup>(2)</sup>

وبهذا نشهد أنّ الأدباء في مصر والشام وحتى العراق تجاوبوا مع هذا المد الحضاري، وابلت قرائحهم بلاءً حسناً زاخراً بالحياة والقوة، وسجلوا معالم الحياة والمجتمع وصوّروا الجوانب الضاحكة الى جانب تصويرهم للجانب المظلم القاسي<sup>0</sup> ولسنا ندري- حقيقة- لماذا ادهشتنا واستوقفتنا كلمات جاءت في (الروضتين) تصف احوال صلاح الدين واهله واجد صدى القلق النفسي والخوف من المجهول حيث يقول: (ترددت الكتب الصلاحية بذكر الأشواق وشكوى الفراق وشرح الاستيحاء وبرح القلوب العطاش، فان اصحابنا وان ملكوا ونالوا مقاصدهم وادركوا، حصلوا بين امة لا يعرفونها بل ينكرونها ولا يألفونها ورأوا وجوهاً هناك بهم عابسة واعينا للمكائد متيقظة وعن الود ناعسة...)<sup>(3)</sup>

(2) الحيوان: 36/1.

(3) الأبداع العام والخاص: 121.

(1) الروضتين في اخبار الدولتين: 162/1.

من الامور البديهية ان القادة والابطال بشر انسانيون يتمتعون بصفات الانسان البسيط الذي يحب ويشتاق ويتأوه ويكي ويخطأ ويندم... يهتز للمواقف الانسانية ويتألم للمعاناة الوجدانية ويصعب عليه اخفاء ذلك وتبدو بين الحين والآخر على شكل ابيات يردها او يكتبها لاصدقائه يتشوق فيها، منها ما كتبه صلاح الدين الى بعض اصدقائه<sup>(1)</sup>:

ايها الغائبون عني وان كذ  
تم لقلبي بذكركم جيرانا  
انني مذ فقدتكم لاراكم  
بعيون الضمير عندي عيانا

ونلتمس من قوله (حصلوا بين امة لا يعرفونها بل ينكرونها) قلقهم من المكان والزمان، ولكنهم عالجوه بسلسلة متتالية من الانتصارات في ميدان الجهاد. حفلت الحياة الادبية في عهد بني ايوب بشيوع فنون جديدة وازدهار فنون قديمة ومن الجديدة (الحشيشيات)، وكادت ان تحتل منزلة مجلس الخمر عند العرب، وسبب دخولها هم رجال الصوفية الذين يسمون انفسهم بالفقراء ولذلك سميت (حشيشة الفقراء)<sup>(2)</sup>، وافرزت الحشيشيات انقسام الشعراء ما بين راغب فيها وناقم عليها، وقد هجاها الشاعر ابن النجار نقيب اشرف الاسكندرية (ت 651 هـ) وعدد مآسيها بقوله:<sup>(3)</sup>

واصغر دائها والداء جم  
بغاء او جنون او نشاف  
واحتل الاتراك جزءاً مهماً في ادب هذا العصر حيث اشاد الشعراء بقوتهم في مقاومة الغزاة كما فعل ابن سناء الملك وغيره من الشعراء، والشاعر ابراهيم بن عثمان الغزي (ت 524 هـ) يقول في وصفهم<sup>(4)</sup>:

وفتية من كماء الترك ما تركت  
لرعد كراتهم صوتاً ولا صيتا  
قوم اذا قولوا كانوا ملائكة  
حسناً وان قوتلوا كانوا عفاريتا

(2) نفسه.

(3) دراسات في الشعر في عصر الايوبيين: 104. ينظر: كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخط و الآثار: 126/2-128.

(4) فوات الوفيات: 152/1.

(1) خريدة القصر وجريدة العصر، قسم الشام: 9/1.

ويبدو تأثير الحروب واضحاً فقد مزج الشعراء بين معاني الشجاعة والشهامة ومعاني الغزل مع ما بينهما من فارق، فمدحوا الأتراك وتغزلوا بهم، واكثروا من استخدام الفاظ الادوات الحربية واسمائها في غزلهم ولا غرابة في ذلك لان الحروب والفتن نضحتا في الشعر واصبحتا تمثلان عنصراً هاماً من عناصر خيال الشاعر، والخيال يعلو على أي موهبة أخرى فعندما يسطو الحبيب بمقلته يخيل للمحب انه سطا عليه بسيف قاطع غضب: (1)

يسطو بمقلته فتحسبه  
يسطو عليّ بصارمٍ غضب

ولو عدنا ادراجنا لصادفنا صاحب اليتيمة وهو ينقد شعر ابي الطيب المتنبّي بقوله: (استعمال الفاظ الغزل والنسيب في اوصاف الحرب والمجد مما لم يسبق اليه، وتفرد به واطهر فيه الحذق بحسن النقل واعرب عن جودة التصرف والتلعب بالكلام كقوله وهو من فرائده:

شجاع كأن الحرب عاشقة له  
اذا زارها فدته بالخيل والرجل) (2)

ولكل عصر فتنته وبدعته كما يقولون، وقد افتن الشعراء بالعيون التركية الضيقة وتسابقوا و اكثروا من غزلهم حتى يخيل الينا انهم نسوا او تناسوا (عيون المها بين الرصافة والجسر) وربما شعروا بلذة الغزل بامر جديد طارئ لكون الأتراك من العناصر الدخيلة على مجتمعهم فأحبوا تسجيل خطوة مستجدة في شعرهم وجاء غزلهم بالمذكر تقليداً اتبعه الشعراء، نتيجة الاختلاط مع العناصر الاعجمية من غير العرب وانتشار الرقيق وسبي الحروب الصليبية من غلمان الفرنج، كل ذلك جعل الناس (يستلطفون محاسنهم ويشاركونهم مجالس السلاطين والفقهاء والاعنياء) (3) وهكذا كانت روح العصر ومتطلباته

(2) ديوان تاج الملوك الايوبي: 109.

(3) يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر: 209/1.

وينظر: العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب: 563/2.

(1) الادب في عصر صلاح الدين الايوبي: 275.

إن كثرة الأنشطة الأدبية والشعرية دليل على رقي الحياة الأدبية والثقافية والفكرية، ولن نبالغ إذا قلنا أن هذا العهد - الذي نحن بصدد دراسته - زخر بأعداد لا يستهان بها من العلماء والمؤرخين والأدباء والأطباء والفقهاء... ومما يلفت النظر أن بعض الشخصيات الأدبية ممن شارك في رصّ بنيان الحركة الأدبية كانت لهم مواهب متعددة، جمعوا بينها وحاولوا جاهدين التوفيق فيها كالثغر والشعر والتأليف الأدبي مضافاً إليها حسن الإدارة أو الوزارة... وإذا ما استبعدنا حسن الإدارة أو الوزارة فإن اجتماع بلاغة الشعر وبلاغة القلم تبدو عسيرة كما يقول سهل بن هارون (اللسان البليغ و الشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد، وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر، وبلاغة القلم)<sup>(1)</sup> وتترأى لنا أسماء منها القاضي الفاضل وعماد الدين الأصبهاني وبهاء الدين زهير وغيرهم كثيرون. وليس من حقنا التقليل من شاعريتهم أو امتداح حسن إدارتهم لأمور الدولة فقط أو تفصيل نثرهم فهم مجاهدون في ميادينهم رفقوا الأدب العربي والتاريخ الإسلامي بأفضل ما عندهم من خزين لغوي وفكري وأدبي فكانوا للحكمة مثلاً وللإخلاص منهلاً وللدب خدماً.

من المعروف أن الناس عند الحروب والمحن نوعان، فبعضهم ينصرف إلى النسك والعبادة والزهد، وبعضهم ينصرف إلى اللهو والمجون، ويبدو لنا أن الدوافع للنوعين واحدة وهو الهروب من الواقع القاسي الدامي، من اليأس والضيق والحزن والالام إما بالانقطاع إلى العبادة وسلوك طرق الصوفية وأما بالانهماك في الملذات والفكاهة للتفريج عن الهموم، أو الالتفات إلى الأحاجي والأغازي في الشعر كمظهر من مظاهر اللهو الفكري والنشاط العقلي، وقد يتخذها الشاعر (دريئة يلح من خلالها بآرائه في الدين والمجتمع والسياسة)<sup>(2)</sup>

وبذا انشغل الشعراء - وبشكل ملفت للنظر - في ممارسة الرياضة الذهنية وانشاد الشعر على البديهة وقد وضعوا أصولاً وقواعد للإجازة كما أخبرنا ابن ظافر الأزدي في بدائعه<sup>(3)</sup> O حقا يمكن عدّ هذه الرياضة الذهنية من عوامل رقي الأدب في

(2) البيان و التبيين: 243/1.

(1) الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 320.

(2) ينظر: بدائع البدائه: 40، 54.

ذلك العصر، وتلك رياضة ذهنية مشروعة ينافسها من حيث الانتشار (التتجيم) الذي يعتمد على الاستدلال بالنجوم على ما يحدث فوق الارض وغالبا لا يصدق تتجيمهم فيصبحوا عرضة للتندر والاستهزاء<sup>0</sup>

وكان وما زال فن الادب بنوعيه واحةً يتقيأ في ظلالها الادباء، وقد نجح هذا الفن في توطيد اواصر المحبة والتآلف بينهم، فابدعوا (فن الاخوانيات) سواء أكان في مصر او في الشام، ان هذا الفن (صورة من الشعور الانساني النبيل وهي في الحقيقة الشعر النابع من اعماق النفس، لاسعياً وراء مغنم ولا رغبة في عطاء او منزلة او الحصول على جاهٍ او سلطان)<sup>(1)</sup>

وعدّ بعض الباحثين (الاخوانيات) استعراض الاديب لمقدرته الادبية<sup>(2)</sup>، واطلق البعض الاخر عليها (المطارحات والشتويات)<sup>(3)</sup>، ان هذه الممارسات الادبية تغني الشعر وتحرك القريحة وما اصدق ابن خلدون في قوله (القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجف بالترك والاهمال)<sup>(4)</sup> فهي تؤجج التنافس الادبي لاثبات كفاءة كل شاعرٍ<sup>0</sup>

ومن حديث غناء الشعر وحركة القريحة ننطلق مندهشين امام رثاء للمدن والقصور والاعضاء الجسمية وحتى الحيوانات يقابله هجاء للاشخاص (الاحياء والاموات احياناً) والبلاد والحمامات والمساکن...

واتسع ميدان القول امام الكتاب والخطباء، ومازال السبب الجوهري هو الحروب الصليبية وحاجة الامة الاسلامية الى دعاةٍ للجهاد والتحريض ولم يكن النثر وعلى وجه الخصوص (الرسائل الديوانية)، باقلٍ عزمٍ من الشعر فقد ادى دوراً ايجابياً ربمّا كان اشد خطراً واعظم اثراً من الشعر، فقد مضى يتبارى مع الشعر في تصوير الحروب

(3) الادب في بلاد الشام (عصور الزنكيين و الايوبيين و المماليك): 530.

(4) صورة المجتمع العراقي في القرن السادس للهجرة من خلال كتاب خريدة العراق: 324، (رسالة دكتوراه).

(5) ينظر تفصيل ذلك: بدائع البدائ: 138 وما بعدها

الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 268-269.

الادب في بلاد الشام (عصور الزنكيين و الايوبيين و المماليك): 527-529.

(6) مقدمة ابن خلدون: 575.

الصليبية وما ينجم عنها من نصر أو هزيمة وبأسلوبٍ رقيقٍ وعباراتٍ رشيقةٍ اقتضتها دواعي التشجيع والصبر.

وقد ضرب العماد الاصفهاني بسهمٍ وافٍ في مجال الرسائل الديوانية، إذ كان كلما حَقَّق المسلمون انتصاراً على أعدائهم كتب إلى الحكام المسلمين فقد (كتب في فتح القدس، سبعين بشارة)<sup>(1)</sup> وكانت تلك البشارات سجلاً حافلاً للمعارك المظفّرة<sup>0</sup> وعندما توالى الأحداث بعد (سنة 584 هـ) والمحاولات المستميتة البائسة لاستعادة بيت المقدس، هذه الأحداث لم تكن بارزة التأثير في الأدب العربي فكان صداها باهتاً في الشعر جلي في النثر إذ تحدثت رسائل القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني عن هذه الأحداث وصوّرت صداها في النفوس وصوّرت المواقف كما تصوّر الاحاسيس والمشاعر<sup>0</sup>

(1) الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 46.

### 3. أثر المجتمع الايوبي في رؤى الشعراء الفكرية :

ذكرنا سابقا ان المجتمع جماعة من الناس خاضعين لقوانين ونظم عامّة، ويمارس المجتمع تأثيرا بالغا على الفرد، لذا يمكن توضيح دلالة العوامل البيئية من خلال مفاهيم كالضغوط ومن خلال متغيرات تتعلق بوسط الفرد الحضاري<sup>0</sup> وفي الحق ان الفرد مهما كان من التفوق والبطولة فهو وليد بيئته الاجتماعية وبتعبير مباشر لا يستطيع ان يكون ذا اثر خطير في حياته الاجتماعية الا حين تلتقي ارادته بإرادة المجتمع وتتفاعل الارادتان في اتجاه واحد ونحو غاية واحدة.

ومما يؤكد ذلك قول مولاي وكلاكهون<sup>(1)</sup> (ان الشخص هو وجود ضروري من وفي وسط فيزيقي (مادي) اجتماعي وحضاري معين، وهو لا يستطيع ان يظهر في عزلة عن مكانه او عن حضارة الجماعة التي يكون عضواً فيها، او عن مكانته في بنيان تلك الجماعة، ان كل شخص - انما هو اساسا - شخص اجتماعي أي جزء متبادل الاعتماد من نظام التفاعل الانساني)<sup>(2)</sup>

وعلى هذا الاساس لا ينبغي ان نقلل من شأن الفرد وما يمكن ان يقوم به من اعمال في تحقيق الطموح الاجتماعي ودفع التطور التاريخي. ان الفرد في كل ذلك ما هو الا استجابة للضرورة التاريخية من جهة وللوعي الاجتماعي من جهة اخرى. وكل ما يمكن ان يحققه الفرد من نجاح يتمثل في مطابقة ارادته لهذه الضرورة التاريخية<sup>0</sup>

وهنا يخطر ببالنا هذا التساؤل.. ما مدى تأثير المجتمع الايوبي - بكل منعطفاته وبلا حدود - على رؤى الشعراء الفكرية؟

نقول: إن الشاعر فرد في مجتمعه، وشعره مرآة لذلك الواقع الاجتماعي بما يحويه من آمال وآلام، افراح واحزان، بطولة واستشهاد وظواهر اجتماعية وعادات سلوكية نمّت وتطوّرت ولكنها مرفوضة اجتماعيا وغيرها...

(1) من علماء النفس ونظريات الشخصية.

(2) نظريات الشخصية: 253.

الشعراء وهم ارهف الناس حساً.. أمام مجتمع تكالب عليه الصليبيون بالشام أشد ما يكونون قوةً وحنفاً حتى هدد خطرهم بأكتساح البلاد العربية في مصر والحجاز ايضاً، لذا شمر السلاطين عن سواعدهم بعد ان ثبتت فكرة الحرب عندهم فاستجاب الناس لهم بعد طغيان عقيدة الجهاد على أحاسيسهم ومشاعرهم مما لم يترك مجالاً لحياة مترفة مستقرة<sup>0</sup> والناس على دين ملوكها وعوائدها كما يقول ابن خلدون<sup>(1)</sup>.

والناس آنذاك ومنهم الشعراء عندما ينظرون أحد قادتهم قد (هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله واولاده ووطنه وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهبّ بها الرياح ميمنة وميسرة)<sup>(2)</sup>، هذه النظرة تصور روح العصر، تصوّر الطبيعة الحية لمجتمع مضطرب بنار الحماسة للدفاع عن الوطن والعقيدة وحماية نفسه من عدوّ خطير، والسبيل لذلك توحيد الجهود وجمع الشمل واقامة وحدة اسلامية تضم البلدان العربية الاكثر تعرضاً للخطر (الشام ومصر والعراق)<sup>0</sup>

وبحكم كون الشاعر ينتمي الى كل الطبقات والشرائح في مجتمعه فهو يعبر بصدق عما يختلج في صدور الناس، فالحياة ترتبط ارتباطاً مصيرياً بالمجتمع الذي تتحكم به طبيعة احواله السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية التي تؤثر بدورها على طبيعة التفكير الاجتماعي واتجاهاته<sup>0</sup>

وقد شهد المجتمع الايوبي الاحداث العنيفة الجارية فيه، شهد جثوم عدوّ غاصب على قلب الامة الاسلامية، عدوّ لا يفتأ يغير على اطراف البلاد العربية وثغورها الآمنة، ينشر الرعب والفرع في نفوس الأمنين، مستخدماً أشد الوان القسوة فيما تحت يده من بلاد الاسلام<sup>0</sup> عدو هدفه استعباد الشرق الاسلامي كله كما جاء في خطاب البابا اوريانوس\* سنة 1095م (إنها ليست لاكتساب مدينة واحدة، بل لامتلاك اقاليم آسيا وخزائنها التي لاتحصى، فأتخذوا حجة البيت المقدس، وخلصوا الاراضي المقدسة من

(1) تنظر: مقدمة ابن خلدون: 297.

(2) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: 44.

\* اوريانوس (اوريانس) البابا نادى بالحملة الصليبية الاولى 1095م.

أيدي المختلسين وامتلكوها انتم خالصة لكم من دون اولئك الكفار في هذه الارض كما قالت التوراة-تفيض لبناً وعسلاً<sup>(1)</sup> 0

الخطاب غني عن الشرح والتعليق، والذي يهمننا حقاً ردّ فعل الناس آنذاك اتجاه هذه الاحداث العنيفة التي تثير العواطف وتبث مختلف الانفعالات التي تؤجج الغضب والعنف حيناً وتدفع الى الصراخ حيناً اخر 0

وقد يتجلى ذلك الصراخ المتفجر كالبركان اقوالاً وافكاراً ومعاني على لسان الابداء والمتقفين الذين يتمتعون بدرجات اعلى من الحساسية المرهفة بسبب الوعي الثقافي الذي يفتح الآفاق الواسعة للاطلاع على مآسي الحياة ومعاناة الناس، وقد أشار بعض علماء النفس ان سبب الابداع الفني الممتاز هو (تقلقل<sup>(2)</sup> اللاشعور الجمعي<sup>(3)</sup>) في فترات الازمات الاجتماعية مما يقلل من اتزان الحياة النفسية لدى الشاعر ويدفعه الى محاولة الحصول على اتزان جديد)<sup>(4)</sup> 0

الشاعر ومجتمعه وحدة دينامية (حية، متفاعلة) بكل ما لهذا التعبير من معنى، لان الشاعر (عملية- متميزة بعض الشيء- داخل عملية كبرى هي المجتمع)<sup>(5)</sup>، لذا فإن الشعراء يحملون في انفسهم (الاحساس بالمجتمع) هذا الاحساس الذي يخشى على الدوام من تضائله ولاسيما عند المتقفين من ابناء المجتمع 0 وان الاديب أوالشاعر هو الذي ينتج بما الهمة به مجتمعه حيث تظهر على انتاجه (العادات والاخلاق والمذاهب الدينية والسياسية...)<sup>(6)</sup>.

ومن هذه المنطلقات فاضت نفوس الشعراء بشتى المشاعر والاحساسات رداً على التحديات التي كان يواجهها مجتمعهم وامتهم وشعبهم فصوروا الاحداث الكبرى

(1) حياة صلاح الدين الايوبي: 52 ، وينظر ايضا: ماهية الحروب الصليبية: 110-111.

(2) تقلقل: قلقله قلقال أي حركة فتحرك واضطرب 0

(3) اللاشعور الجمعي: المتخلفات النفسية لنمو الانسان التطوري أو مخزن اثار الذكريات الكامنة التي ورثها

الانسان عن ماضي اسلافه الاقدمين (نظريات الشخصية / 112) 0

(4) الاسس الفنية للابداع الفني: 20 0

(5) نفسه: 340 ، الابداع في الفن: 19 0

(6) البحث الادبي: 17 0

خير تصوير، ووصفوا من خلال قصائدهم الأبطال المسلمين، ورسوموا بدقة معاركهم وأشادوا بصبرهم وبلائهم، فبدت صوراً حقيقية، خطوطها الأيمان وحب الجهاد، وألوانها الدم والتضحية وإطارها ملاحم مشتجرة بين المسلمين والفرنجة<sup>0</sup>

استجاب الشاعر بكل ما يملك من موهبة والهام وعواطف ملتبهة فوجد نفسه أمام صراع مرير تسترخص فيه المهج وتبذل له الأرواح في سبيل العقيدة لصيانة الأرض وتحقيق النصر وطرد الغزاة<sup>0</sup>

وكان لنجاح الشاعر في أداء مهمته ازاء مجتمعه وحوادثه الجسام شرف المساهمة في تحقيق الأهداف النبيلة التي يسعى إليها قادة ذلك العصر ومقاتلوه العظام<sup>0</sup>

وبعد طغيان فكرة الجهاد الديني ضد الصليبيين، وشمل طغيانها العارم فئات المجتمع قادة وشعباً وكنتيجة حتمية خلق بينهم الشعور بالوحدة الإسلامية وقد عدّه الدكتور محمد كامل حسين من موضوعات الشعر العربي الجديدة واطلق عليه (فن الشعور بالقومية الإسلامية)<sup>(1)</sup>، وبموجب هذا الشعور القومي الإسلامي الجديد أصبحت حلب جزءاً من مصر ومصر جزءاً من حلب كما يقول ابن سناء الملك (ت608هـ):<sup>(2)</sup>

وفي زمان ابن أيوب غدت حلب من أرض مصر وصارت مصر من حلب  
والدهر بالقدر المحتوم يخدمه والأرض بالخلق والأفلاك بالشهب

وقد تقاسم الشعراء هذا اللون الشعري والمتصفح لكتب الأدب أو دواوين الشعراء سيصاب بالدهشة والاعجاب لهذا الكم الهائل من الشعراء الذين تشاركوا في تعميق فكرة النصر للإسلام والمسلمين ومن هذا الشعار استوحى الأدب نتاجه فكان اللسان المعبر عن هذا الشعور<sup>0</sup>

وبذا كانت الحروب الصليبية من البواعث الأولى على قول الشعر فقد اجبت هذه الحروب مشاعر الشعراء، واستثارت عواطفهم فراحوا يحفزون الأمة على مقاومة الأعداء والتصدي لهم، ويمجدون الأبطال ويتغنون بانتصاراتهم، ويتابعون معاركهم

(1) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 87 0

(2) ديوان ابن سناء الملك: 1/2 0

بكل دقة وتفصيل<sup>0</sup> ولصلاح الدين القسط الاعظم من اهتمامات الشعراء والادباء، إذ تحوّل الى رمز في الحقب التالية مثل وجسد معاني الكفاح والجهاد<sup>0</sup> وقد (الهبته بطولاته وجدان الشعراء وأثارت أحاسيسهم وهزت مواقفه الانسانية النبيلة في حروبه نفوسهم)<sup>(1)</sup>

ان تجاوب الحكام الايوبيين لشعرائهم يدل على مدى حبهم للشعر واحسانهم للشعراء بالاضافة الى ان الشعر جرى على السنة كثيرين من ابناء الاسرة الايوبية<sup>(2)</sup>، واخبارهم واشعارهم ماثورة في ثنايا كتب التاريخ والادب ودواوين شعراء الاسرة الايوبية. ناهيك عن كبار الامراء والوزراء الذين نظموا الشعر<sup>(3)</sup>.

ونجد انفسنا امام تمازج عاطفيّ ملتهب بين الشعراء آنذاك وبين قاداتهم الابطال، ظهر جلياً في الحق الذي يتمتع به الشعراء فهم يفرضون واجبات تمثل آمال الامة ويخططون- ولو فكراً- بقصائدهم للخطوة التالية لتحقيق نصر جديد يضاف الى معارك النصر السابقة المتتالية وتتسمّر افكارهم- جميعاً- عند الامل المنشود (تحرير بيت المقدس)، الحلم الذي يبات كل ليلة في ضمائر المسلمين لعشرات السنين، وعماد الدين الاصبهاني كغيره من الشعراء يرسم للسلطان صلاح الدين طريقاً نحو القدس، حاضاً بطله على السير بلا تلوّ: <sup>(4)</sup>

فسر وافتح القدس وأسفك به  
دماءً متى تجرها ينظف

وللتنبؤ حديث شيق يخص فتح القدس أثار اعجاب السلطان وجاء على لسان قاضي دمشق محيي الدين ابن زكي الدين<sup>(5)</sup> قوله: <sup>(6)</sup>

(1) الشعر في الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ: 0 158

(2) ينظر: الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 27-29، (مجلة آداب الرافدين)، "النشاط العلمي و الادبي في عهد الاسرة الايوبية": 460 وما بعدها.

(3) ينظر: الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 0 30

(4) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 0 304

(5) محمد بن علي بن محمد بن يحيى المعروف بابن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق واعمالها وكان فاضلاً

مترسلاً وله النظم والنثر البديعان ت 598هـ ، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب: 0 106

(6) الروضتين في اخبار الدولتين: 0 45/2

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر      قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

إذن نظر الأدباء والشعراء إلى تحرير بيت المقدس (سنة 583هـ) على أنه فتوح عظيم وهجرة ثانية للتاريخ.

أحس الشعراء أن مجتمعهم يطلب منهم الكثير فهم تارة مراسلون حربيون، وتارة أخرى مؤرخون للتاريخ، ينقلون أخبار الفتوح وحركة الجيش وعدته وعمق إيمانه واستعداداته النفسي للبدل والتضحية ويصفون أعداءه وجيوشهم وقادتهم ...

وتارة يرافقون الأبطال الفاتحين بناءً على طلبهم لتخليد هذه الملاحم الإسلامية الكبرى متذكّرين دائماً أن على الشعراء أن يرتفعوا إلى مستوى الحدث في أشعارهم نصراً كان أم هزيمة وذلك لأن أبطال تلك الملاحم يقدرون خطورة هذه المرحلة وأهميتها في تاريخ الإسلام، والشعراء أيضاً يدركون عظمة تلك اللحظات الحاسمة لتخليد الانطلاقة الأولى لدحر الضعف والاستسلام والذلة.

من هنا يمكننا أن نضع قاعدة لاتكاد تخطئ في ميدان الكشف عن الفعالية الاجتماعية لعملية الإبداع الشعري، ومن خلال هذا المنطق يبدو (الشاعر مؤرخاً ذا فاعلية أصيلة في الحادثة التاريخية)<sup>(1)</sup> فهو إذ يعرض لنا الواقع اليومي لا يكاد ينفصم عن الطموح في استشراف القيم العليا التي ينبغي أن ترقى العلاقات الإنسانية إليها وبذلك يغدو الشاعر أشبه بالمشرع الحضاري ويكتب الشعر عمق الأثر الإنساني في المجتمعات التي لا تقول في علاقاتها إلا إلى القيم العرفية الخالصة<sup>(2)</sup>

وها هو الشاعر ابن الساعاتي قد عبّر عن فكرة خلود ذلك التاريخ بمدحه قائلاً<sup>(2)</sup>:

مدح تذهب الليالي وتفنى      وتحوز البقاء والتخليداً

ومن فكرة خلود ذلك التاريخ المشرف نظر الشعراء إلى الصراع بين المسلمين والفرنجة نظرة عقائدية، لذا سخرُوا كل المعاني الدينية لقصائدهم الجهادية مع

(1) مجلة "قضايا عربية"، ع5: 77.

(2) ديوان ابن الساعاتي: 2/ 297 0

حرصهم على ربط الحاضر بالماضي واستحضار الشخصيات البطولية الإسلامية،  
وعلى وجه الخصوص الخلفاء الراشدين (رضي  
الله تعالى عنهم) وعلى سبيل المثال ربط عماد الدين الأصبهاني بين الخلفاء الأربعة  
وبين البطل عز الدين فروخ شاه مشيداً بكل من الفاتحين كما يبدو في قوله<sup>(1)</sup>:  
في فضله في عدله في حلمه      صديقة فاروقه عثمانة  
هو في السماح وفي اللقاء عليه      هو في العفاف وفي التقى سلمانه

وكذا استلهم الشعراء الدروس والعبر من معارك العرب قبل الاسلام ومعارك  
المسلمين الأولى، وشاعت في شعر تلك الحقبة حتى اصبحت (واجهة جديدة وغرضاً  
متميزاً)<sup>(2)</sup> لقد اثرت العقيدة الفاطمية على علماء وادباء المجتمع الأيوبي كما وضحنا  
سابقاً حيث ان هذه العقيدة لم تمت جذوتها تماماً واستمرت الحال حتى القرن الثامن  
للهجرة كما ذكر ذلك الدكتور محمد كامل حسين<sup>(3)</sup>، والذي نهتم به اثر تلك العقيدة  
في شعر الشعراء، وهل ما ورد في اشعارهم عقيدة راسخة مذهبياً ام انها جرى على  
العادة التي ورثوها من المجتمع الفاطمي؟؟؟ ام ان الناس تعارف عليها ولاقت  
صدى حسناً لدى الممدوحين فهي الاقرب والانسب لقلوبهم كما يمثل الغلو - احياناً -  
اسلوباً للكسب المادي والرضى المعنوي عن الشاعر O

إنَّ الحروب الصليبية العنيفة المستمرة جعلتهم بحاجة ماسة للشعراء وقصائدهم  
وان الوقت من الضيق بحيث لا مجال لمناقشة او محاسبة شاعر بسبب استخدامه  
المصطلحات الفاطمية الخالصة O

إنَّ الشعراء تأثروا بآراء اسلافهم وصوّروها واستمروا في مديحهم بنفس اسلوبهم  
وإذا اردنا استعراض هؤلاء الشعراء نكون قد خرجنا الى دائرة اوسع من مبحثنا هذا<sup>(4)</sup> O

(1) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 436.

(2) الشعر في الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ: 170، (رسالة دكتوراه).

(3) دراسات في الشعر في عصر الايوبيين: 26-27.

(4) لمزيد من التفاصيل ينظر: ديوان ابن سناء الملك: 243/2، ديوان ابن الساعاتي: 52/1-53، دراسات  
في الشعر في عصر الايوبيين/ 28، ديوان ابن النبيه المصري/ 94-95، ديوان ابن مطروح/ 282-284،

321، ديوان فتیان الشاغوري / 6-7 O

وفي خضم أحداث مجتمعنا الأيوبي استرعى انتباهنا امر هو ان الناس عامة احبوا الشعر وتعلقوا به ونظموه لحاجتهم الماسة للتعبير عن مشاعرهم اتجاه امور شتى تتعلق مباشرة بحياتهم اليومية وبنتيجة هذه الهواية قال الشعر (فقهاء وعلماء واطباء ومهندسين وتجار وجنود وقواد واناس من عامة الشعب)<sup>(1)</sup>، فالشعر لم يعد ملكا للطبقة المثقفة، وانما سعى الى العوام من الناس ولعل مرد ذلك (الحروب الصليبية) التي خلقت شعوراً واحداً كان يسيطر على جميع البيئات الاسلامية على السواء، وهو شعور الغضب من العدو الاجنبي، وبدت رؤى الادباء تصدر عن فكرة واحدة هي وجوب الذود عن المواطن الاسلامية عامة وعن البيت المقدس خاصة<sup>0</sup> وعندما يتجرأ الشاعر في التعبير عن افكاره الانتقادية لمجتمعه ومظاهره الخاصة والعامة تلوح امامنا اسباب عدة في مقدمتها احساس الشعراء بذاتيتهم واهميتهم ووعيهم المتزايد لمشاكل وازمات مجتمعهم، وربما شعورهم بالمسؤولية اتجاه ابناء شعبهم تجعلهم صادقين كل الصدق لا يرضون على باطل ولا يسكتون امام مظاهر الفساد الاجتماعي، فهم مصلحون يمثلون الناس الذين لاحول ولا قوة لهم<sup>0</sup> ان مواقفهم الانتقادية ورؤاهم الفكرية تحتضن بلطف دقائق الحياة اليومية وتفحص بدقة ميزان العدل والمساواة وانتقاد القضاة وظلمهم وبعضهم أثر توجيه النقد اللاذع لمظاهر الفساد، ونماذج ذلك كثيرة في شعر الشعراء الذين انشدوا قصائد تظلم امام حكامهم وسلاطينهم وللشاعر ابن عنين القدح المعلى في ثورته الانتقادية القاسية- مع شاعريته الفذة- حتى إنه تجرأ على الناصر صلاح الدين ورجال دولته<sup>(2)</sup>

إن تمازج الشاعر الروحي والفكري مع معاناته المادية وذلة احواله ومعيشته جعلته لا يتحرج من ارسال قصائده الى من يهّمه الامر!! في وقته العصيب ذاك ومن الطريف ان نورد في هذا المعنى قول ابن عنين واصفاً متسوّلاً يستجدي منه وهو أي (الشاعر) على بساط الرحمة من الفقر ولعله اكثر حزنا على نفسه وهو يقول<sup>(3)</sup>:

(1) الادب في عصر صلاح الدين: 213 0

(2) ديوان ابن عنين: 210.

(3) نفسه: 225.

يطلب البرء من مريضى الأيادى  
مثله بل يفوقه فى التكدى  
غره ما رآه من أورامه  
بل يراه شرارةً من ضرامه

وكما صال وجال الشعراء فى تسجيل الوقائع التاريخية وتصوير الملاحم القتالية واستنهاض الهمم والحث على الجهاد، وكما فى العرف العربى القديم ان لكل صاحب سلطان من شاعر يصطنعه ليمجده ويخلد مآثره فى المناسبات والمحافل، فان الشعراء لهم خلواتهم الذاتية الشعرية اذا صح لنا التعبير عنها هكذا، كانوا يعيشون لحظات شعرية هي (صورة من الشعور الانساني النبيل وهي فى الحقيقة الشعر النابع من اعماق النفس، لا سعياً وراء مغنم، ولا رغبة فى عطاء او منزلة او الحصول على جاه وسلطان)<sup>(1)</sup>، إنما هي قصائد اخوانية وجدانية يتبادلها الشعراء كوسيلة للتواصل، فى مواقف جدية او هزلية، ولكنها مفعمة بالمشاعر الصادقة والاحاسيس الرقيقة. من تلك المشاعر الصادقة و الاحاسيس الرقيقة قول الشاعر بهاء الدين زهير (ت656هـ) فى جواب كتاب لصديق:<sup>(2)</sup>

وافى كتابك وهوبال  
قلبي لذيك اظنه  
أشواق عني يعرب  
يملي عليك وتكتب

(1) الادب فى بلاد الشام (عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك): 530.

(2) ديوان بهاء الدين زهير: 18.

#### 4. شعراء العهد الأيوبي ورؤاهم:

نشعر بالحيرة والارباك، ونحن بصدد التحوار عن شؤون- ولا نقول هموم- شعراء العهد الأيوبي، ومصدر حيرتنا واضح لاغبار عليه هو تعدد المداخل لهذا التحوار: فسبيل يرشدنا للتحوار حسب ثقافة الشعراء، وآخر حسب التقسيم الاقليمي بين شعراء مصر والشام.. وسبيل آخر دراسة الشعراء حسب الوانهم ومذاهبهم، وربما ينظر لجنسهم وعرقهم<sup>0</sup> وهناك من يفضل البدء بدراسة الشعر حسب حاجتهم لقول الشعر مادياً ومعنوياً او تصنيفهم حسب الطبقات طبقة الشعراء والعلماء وطبقة المتكسبين بالشعر وطبقة شعراء الصوفية كما يرى الدكتور احمد احمد بدوي<sup>(1)</sup> وهذه السبل قد يتجاوز بعضها على بعض وبذا يفتقر التحوار الموضوعية وتهمل حقائق وتتصدر الامور الجانبية واجهة البحث والاستقصاء، وهذا مالا نريده وسنركز ان شاء الله على مواقف واشارات نتمنى ان تكون ومضات سريعة، لكنها حقيقية، وعندما ينضم بعضها الى بعض تشكل خيطا من نور فيه رؤى مشتركة توصلنا الى ما نبحت عنه بدقة وشمولية.

عندما تبدأ مواجهة الانسان للحياة نراه متكباً اعباءها ازاء خصوصياته، ومسؤولياته اتجاه المجتمع، كل في ميدان اختصاصه، كالسياسة والعلم والأدب... وهذا الانسان (تاريخ والتاريخ تجمع للماضي في الحاضر، وضغط للحاضر على المستقبل)<sup>(2)</sup>، وكل ذلك يعني، ظروف حياته التي يحيها والتي لها اثر بالغ في تكوين فلسفته والعكس كذلك صحيح، وهو ان فلسفة الانسان تؤثر اثراً بالغاً في ظروف حياته، وهذا التفاعل يمتد ما امتدت القرون<sup>0</sup> فما قولنا ونحن نتحدث عن الانسان الشاعر؟

فالشاعر الذي يمتدحه صاحب العمدة بقوله: (ان الشاعر واثق بنفسه، مُدَلِّ بما عنده على الكاتب والملك، فهو يطلب ما في ايديهما وياخذه...)<sup>(3)</sup> فمن اين

(1) الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 122.

(2) مشكلة الانسان: 16.

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 21/1.

تتأتى هذه الثقة للشاعر؟ وهو مدل بما عنده...!! ما الذي عنده حقاً يؤهله لطلب ما في ايديهما وياخذه؟

منذ القدم عرف الشعراء بميلهم الى الحلم والاستغراق، ووصفوا بقوة الالهام<sup>(1)</sup> والتنبوء بالغيب، ولهم نوع غامض من لطف النظر، ولهذا كان اليونان يسمون الشاعر خالقاً، وكان للعبريين كلمة واحدة تدل على الشاعر والنبى معاً ولعل هذا هو الذي جعل الشعراء العرب يعتقدون ان لكل شاعر شيطاناً ينفث فيه الشعر<sup>(2)</sup> هذا بعض ما عرف عن الشعراء، اما (ما عند الشاعر حقاً) فهو (مديحه) الفن القديم ومن اكثر اغراض الشعر في الادب العربي في جميع العصور، وكان الشاعر اسيراً لمطالب الحياة، والجانب المادي اهم الجوانب التي واجهت الشعراء، لذلك كان الكسب احد اهداف المديح، فهو حرفة لها ما للحرف الاخرى من شروط الدوام والبقاء من سوقٍ وبضاعةٍ وبيعٍ وشراءٍ وريحٍ وكساد<sup>(3)</sup>... ان الشعراء خدموا بفنهم الدول والملوك والابطال... وحاولوا جاهدين ارضاءهم في حين اغلب الشعراء غير راضين عن انفسهم، يبيتون في هم وقلق من امسهم ويومهم وغدهم، وقد ينتشي احدهم لحظات انشاد قصيدته، ولكن سرعان ما تزول نشوته وتركبه الهموم ازاء تحديات عصره ولسان حاله يردد ابيات ابي الطيب المتنبى التي ترسم قسوة الحياة على ذوي الهمم العالية من اصحاب النفوس الابية المعذبة حيث يقول:<sup>(4)</sup>

لحى الله ذي الدنيا مناخا لراكب      فكل بعيد الهم فيها معذب  
الا ليت شعري هل اقول قصيدة      فلا اشتكي فيها ولا اتعذب

ولا يفوت القارئ ملاحظة نغمة الشكوى لدى الشعراء وعدم الشعور بالرضا، وخوفهم الدائم من الزمان والنهاية المجهولة التي تنتظرهم بسبب غضب

(1) الالهام: طرء فكرة على الذهن بصورة مفاجئة وهو مرحلة من مراحل التفكير المبدع، (معجم علم النفس /58).

(2) ينظر: النقد الادبي: 69/1.

(3) ينظر: الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي: 85/2.

(4) كتاب العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب: 504/2.

الممدوح، او حسد الحساد أوالحاقدين عليهم، وما اصدق قول الشاعر واصفا حالهم:  
متى يفلح الانسان فيما يرومه      واعدائه عند الامير جلوس

وقد سئل احد المتقدمين عن الشعراء فوصفهم قائلاً: (ما ظنك بقوم الاقتصاد محمود الا منهم، والكذب مذموم الا فيهم)<sup>(1)</sup>، وكثرت الطرق التي سلكها شاعر العصر للوصول الى غايته ولعل الكذب المغلف في اطار المبالغة والتهويل احد اهم اساليبه الناجحة لدى الممدوح<sup>0</sup> ومما لاشك فيه ان نظرة الآخرين للممدوح وتقديرهم له تتحدد في مدى تأثير الشعر فيهم، وما يبرز من صفات يكيلها الشاعر للممدوح<sup>0</sup> ومن الطريف ان يحتل التحليل النفسي ومدارسه مكانة متقدمة في دراسة وتحليل نتاج الشاعر وابداعه رغبة منهم في اكتشاف السر العاطفي لأكبر مشاهير الشعراء والفنانين السابقين ووصلوا الى النتيجة القائلة (ان الفنان والمتأمل يسقط كل منهما عقده الشخصية على العمل الفني ولكن هذه العقد لا يلتقي بعضها ببعض)<sup>(2)</sup>، ومشكلتنا هنا كيفية الكشف عن حقيقة تلك العقد الشخصية، والشاعر متمتع بحرية التفكير، فهو يصور ويصوغ افكاره كفنان حر، ينسج حروفه فتتوقد معانيه وتسطع قصائده كأنها مرايا تظهر فيها اسرار القلوب وخفايا الخطوب، وتكاد تعيد الاموات وتجعلهم ذوي حياة احياناً<sup>0</sup>

لنتأمل جوهر العقدة الشخصية للقاضي الفاضل وهو يبكي قصر الملك العزيز  
عثمان بن صلاح الدين ويرثيه قائلاً:<sup>(3)</sup>  
وقفنا على قصر العزيز، وقد عفا      نعيب عليه الدهر، لما تحكما  
ايا ربع، قل لي: كيف حالك بعدما      تفانوا؟ فقال الربيع : لم يبق بعد ما  
تصدى له من لا يراقب حرمة      ومن ليس، يرعى للمكان محرما

فأبيات القاضي الفاضل سياسية اكثر من كونها (رثاء قصر)، تلمح للسياسة التي يتبعها الملوك من تصفية اثار من سبقوهم بالحكم، يطمسون على اثارهم وأن

(1) العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده: 25/1.

(2) طريقة التحليل النفسي والعقيدة الفرويدية: 386.

(3) ديوان القاضي الفاضل: 401/2.

يميتوا ذكر أعدائهم فقد هدموا بسبب ذلك المدن وأكثر الحصون كما أخبرنا الجاحظ<sup>(1)</sup>، وفي أبياته المقصود بذلك أخوه (الملك الأفضل) وقوله تفانوا يذكرنا بقول زهير بن أبي سلمى والمثل المشهور: تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم<sup>(2)</sup>، يرمي الى نزاع الملك بين الاخوين 0 واذا بدت اللمة السياسية هنا فاننا مع اللمة العاطفية التي يمكن عدها (العقدة الشخصية) فموقف الدهر وبكاء الربيع وتوجيه الاستفهام له وتقصي الجواب منه كل ذلك في حقيقة الامر تعزية لنفسية الشاعر الممزقة التي استحضرت لحظات موت الناصر صلاح الدين من جديد لترثي معه واقع الحال بعده 0 وتوضحت عقده في بيتٍ لاحق مشيراً الى افكاره المضمره التي كان يتمنى تحقيقها، ليحتفظ البيت الصلاحي بوحدته وتماسكه، فيقول:<sup>(3)</sup>

واني لملآن الفؤاد عزائماً      لو اني وجدت اليوم للرأي مغرماً

ونكون منصفين اذا آمنا ان ابداع الشاعر يتصف بالشمول ولا جريرة في ان (تستثار فيه حاجات داخلية تستدعيه لكتابة قصيدة بفعل حوافز خصوصية تكونت بنتيجة ظروفه الخاصة)<sup>(4)</sup>، وبفعل تلك الحوافز الخصوصية لا نندهش كثيراً ونحن نجد رثاء للمدن والقصور والاعضاء الجسمية وحتى الحيوانات يقابله هجاء للشخاص (الاحياء والاموات احياناً) والبلاد والحمائم والمسكن وحتى الشمس ذمها الشاعر ابن سناء الملك بقوله:<sup>(5)</sup>

انت عجوز لم تبرجت لي      وقد بدا منك لعاب يسيل  
وانت بالشيطان قرنانة      فكيف تهدينا سواء السبيل!؟

(1) ينظر: الحيوان: 37/1.

(2) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: 23

والبيت: تدار كتما عبسا وذبيان بعدما      تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم  
والشطر الثاني: مثل يضرب في شدة التشاؤم وانتشار الشر بين القوم .  
كتاب جمهرة الامثال: 444/1.

(3) ديوان القاضي الفاضل: 404/2.

(4) الشعر بين الواقع والابداع: 12.

(5) ينظر: ديوان ابن سناء الملك: 481/2.

وبعضهم (هجا صحن حلوة)<sup>(1)</sup>... ولا نريد التعليق بخصوص تردي حالة الشاعر النفسية او تمرده على النعمة او الحياة نفسها، ولكننا واثقون انه لحظة هجائه للشمس او للحلوة كان حراً تماماً - بسبب حوافزه الخصوصية - مثل حرите وهو يترصد القضاة والاطباء وحتى الامراء والملوك والسلاطين كما فعل ابن عُنين في هجائه لصالح الدين ورجال دولته<sup>(2)</sup>

إن اثر الازمات النفسية الحادة التي يعيشها الادباء تبدو على نتاج الاديب والشاعر وانفعالاته تحركها حوافز خصوصية كما ذكرنا او غير خصوصية تحزبا لرأي او جماعة، فنراه يشمر عن ساعده ويتصدى لهجو المدن الكبرى والحواضر العليا كما اخبرنا ابن الوردي في معرض حديثه عن الكاتب والشاعر سبط ابن التعاويذي (ت 584 هـ) بقوله (وله وقد صودرت جماعة من الكتاب ببغداد)<sup>(3)</sup> من قصيدة:<sup>(4)</sup>

يا قاصدا بغداد جز عن بلدة	للجور فيها زخرة وعباب
ان كنت طالب حاجة فارجع فقد	سدت على الراجي بها الابواب
والناس قد قامت قيامتهم ولا	انساب بينهم ولا اسباب
والمرء يسلمه ابوه وعرسه	ويخونه القرباء والاصحاب

وسبط ابن التعاويذي وان فعل ذلك مجازاً عرض بعاصمة الدولة الاسلامية مناصرة لجماعته الكتاب<sup>0</sup> وقد يهون الامر مقارنة بموقف وقفه الشعراء لابد من ذكره هنا وملخصه ان الشعر لم يكن فعالا بما يناسب مستوى الحدث ونقصد بالحدث احتلال الفرنج لبيت المقدس سنة 492هـ، وكان صدى احتلاله في ادب الحروب الصليبية آنذاك قصائد قليلة يمكن وصفها بالادب الباكي، وربما خطورة الموقف جعل الشعراء يحجمون عن قول الشعر حتى لا يفتوا في اعضاء الجند المسلمين، أو ربما

(1) ينظر: ديوان ابن عُنين: 140-141.

(2) نفسه: 210.

(3) تنمة المختصر في اخبار البشر: 151/2.

(4) ديوان سبط ابن التعاويذي: 47.

مرارة الهزيمة منعتهم عن القول وحبست السننهم  
عن التعبير، وأشهر ما  
وصل إلينا قصيدة الأبيوردي: (1)

مزجنا دماء بالدموع السواجم  
وشر سلاح المرء دمع يفيضه  
فلم يبق منا عرضة للمراجم  
إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

الشعر ترجمان قوي لما كان يضطرب به ذلك العصر من وقائع واحداث،  
والقصائد مواكبة لاحداث عصرها، مما جعلت القوافي مرايا لما حولها، كل  
ذلك أعطى الشعر سمة الحياة وطابع الصدق، وغدا هذا الشعر الموروث عن تلك  
الحقبة سجلاً ذا اهمية معرفية في وصف الكثير من الاحوال والملابسات، بل  
تاريخ ما لا يستطيع التاريخ النهوض به من تصوير منازع الامة ورصد احساسها  
ومشاعرها (2)

إنّ هذا الشعر الملتحم بالاحداث، شعر محفلي يلقي القاءً في المساجد،  
أو ينشد انشاداً في المجالس، يعكس صور الحوادث السعيدة، او صور قهر الخصوم  
او تحقيق الانتصار على عدو... كل ذلك يشكل حافظاً يهيج قرائح الشعراء،  
ويضاعف نظمهم، فتلتئم في اثر ذلك المحافل، وتتطلق الالسنة على المنابر...  
ويكون لذلك كله وقع في اقناع العامة وارضاء الخاصة، حيث تغدو للادب مهمة  
اعلامية ودعائية بالغة الاثر في تهيئة النفوس وتوعية العقول وتعبئة المشاعر. الا  
أننا نفتقد العظمة الادبية التي تمثل شخصية الشاعر العظيمة التي عبر عنها الناقد  
الاغريقي لونجينوس (2) بقوله (ان اول كل شيء واهمه في الادب العظيم هو قوة صنع  
الافكار وان العظمة الادبية صدى للشخصية العظيمة) (3)، لذا يمكن القول ان  
الشعراء اتكأوا في تصوير معارك ومدوحهم على الاوصاف السائدة في الشعر  
الحماسي الموروث، ولا سيما قصائد ابي تمام والمتنبي لما لهذين الشاعرين من منزلة  
كبيرة صنعت لهما هالة في النفوس مع قرب العهد من هذين الشاعرين العباسيين

(1) ديوان الأبيوردي: 156/2.

(2) لونجينوس: ناقد أغريقي عد أول فيلسوف جمالي.

(3) فن الشعر: 143.

بالإضافة الى تشابه الظروف والمواقف والمعارك، ولذلك قيل: لايزال الناس بخير ما بقي الاول يتعلم منه الاخر.<sup>(1)</sup>

ولن يفوتنا ذكر ما نهض به الافذاذ القادة من اعباء جسام ومهام عظام قد يفوق الى حد كبير ما قام به بعض الخلفاء العباسيين، ثم القادة الحمدانيين، ولكنهم لم يحظوا بشعراء مبدعين على النحو الذي جاد بهم الدهر على اسلافهم، الا ما كان على نحو محدود ومن خلال اشعار قليلة... اذ نالت بعض قصائدهم حظاً وافراً ويكاد بعضهم يوضع في مصاف كبار السابقين<sup>0</sup>

ان ديوان ابن سناء الملك يزخر بقصائد او ابيات تآثر فيها بقصائد المتنبى الى الحد الذي تمنى محقق ديوانه قائلاً: (وما اجدر هذه القصيدة ان توضع الى فرائد المتنبى في سيف الدولة)<sup>(2)</sup> ومن قصيدة ابن سناء الملك قوله في صلاح الدين:<sup>(3)</sup>

ومذرات صدّه عن ربيعها حلبُ	ووصله ببلاد حلوة الحلب
غارته عليه، ومدت كف مفترق	منها اليه، وأبدت وجه مكتئب

ولابد من الاعتراف بان عباقرة الحرب والفروسية ابان الصراع الاسلامي الصليبي كانوا بحاجة ملحة الى شعراء كبار يوازنون عظمتهم بما يقابل ذلك من مواهبهم، ويكونون في مستوى الفحول المتقدمين<sup>0</sup>

لقد كان الانموذج الشعري في كثير من الاحيان ماثلاً في اذهان شعراء العهد الايوبي، فسرعان ما تقفز الى الذاكرة روائع شعرية حافلة بالملاحم الملحمية مثل بائية ابي تمام في (عمورية) المعتصم، او ميمية المتنبى في (حدث) سيف الدولة.. فيكون لشعراء الحقبة الصليبية عامة من ذلك معين ثر ينهلون منه ويغريهم على التباري ويحضّهم على التجويد الا انه يبقى الشعراء دائرين في فلك الشعراء الآخرين مما يؤدي الى النأي بشعرهم عن سمات الابداع والاصالة<sup>0</sup>

(1) ينظر: الحنين الى الاوطان:3.

(2) ابن سناء الملك (حياته وشعره): 68/1.

(3) ديوان ابن سناء الملك: 4/2.

عبر شعراء العهد الايوبي عن عواطفهم الانسانية التي يتقاسمونها مع ابطالهم المحاربين، وهؤلاء الشعراء لا يسمون شعراء، لانهم يمتلكون افكاراً خاصةً فقط، ولأن افكارهم متتابعة خاضعة باتجاه عواطفهم حتى ان الزينة اللفظية لم تكن كل شيء في هذا الشعر، ولكن وراء هذه الزينة امور كثيرة تسترعي انتباهنا منها (اشعال العواطف، وقدرة عجيبة على الايحاء، وتصوير جميل للوقائع وغناء متصل بالبطولة وشعور جارف بالقوة)<sup>(1)</sup> وشعر يتميز بعاطفة حادة اساسه واحد هو الصدق يحق له الخلود على مر الزمان

وما اصدق قول الشاعر وهو يعبر عن ذلك:<sup>(2)</sup>

يموت رديء الشعر من قبل اهله      وجيده يبقى وان مات قائله

انطلق شعراء العهد الايوبي متحررين من القيود الفكرية، ناشطين في تعبيرهم عن مكونات ذاتهم وحقيقة مشاعرهم، وقفوا امام قصائدهم المتدفقة حماسا يحتضنها صدق العاطفة الذي يرفد هذه القصائد بالحياة والقوة والانفعال الحقيقي الذي يعيد الى الحياة الاتزان، فهو على صلة وثيقة بالحياة

ولنا وقفة مع الدكتور عمر موسى باشا في قوله (يجب ان نسجل لشعراء هذا العصر الفضل كله في وصف الملاحم الخالدة، وتاريخ الاحداث الكبرى، حتى ان بعضهم اتخذ منها موضوعاً خاصاً في شعره قصره عليه...)<sup>(3)</sup>

لقد ردد الباحثون في ادب هذا العصر عند حديثهم عن شعره الوصفي للمعارك والحروب صفة (الملاحم) وبانهم تفننوا في معانيهم الملحمية ووهبوا شمولية مع ان الادب العربي لم يعرف الملاحم التي عرفت عند اليونان (فلم نسمع لهم بشعر الملاحم، ولا بالشعر يصاغ مسرحيات على نحو ما يفعل اليونان مثلاً...)<sup>(4)</sup>.

(1) ادب الحروب الصليبية: 258.

(2) الكامل: 10/2.

(3) الادب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك): 416.

(4) النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري: 341.

وتطالعنا الباحثة وداد الجوراني برأى مفاده (هناك في الشعر العربي ملاحم كملحمة عنتر بن شداد، وهي من المعلمات السبع التي نسبت للعصر الجاهلي)<sup>(1)</sup>، ومن الطبيعي في كل حين - لدى الناس - الافتتان بمن يجتمع فيه الشعر والحب والبطولة. ولكن الأمر مختلف في عصرنا، فعظمة وسمو الهدف الذي من أجله قامت تلك الحروب، وامتداد الزمن القتالي وكفاح المقاتلين وكثرة المدن والحصون والقلاع وتكرار الحصار والنصر والهزيمة، والأهم من ذلك هولاء الأبطال القادة والأمراء الذين ضربوا المثل الأعلى في التضحية والشجاعة الإنسانية... كل ذلك وغيرها من الظروف والملابسات جعلت تلك الحروب تتعمق في النفوس وينمو صداها العاطفي والنفسي جيلاً بعد جيل مما حباها هذا النفس الملحمي حيث تتشابك أحداثها وتفصيلاتها وويلاتها وكثرة أبطالها وأمورها الغيبية وتنبؤاتها، وقد قيل قديماً إن شعراء الملاحم الممتازين جميعاً لا ينطقون بكل شعرهم الرائع عن قَنٍّ ولكن عن الهام ووحى الهي...<sup>(2)</sup>

وبرغم هذا النفس الملحمي الشعري فإن الشعراء العرب تحدّدوا بما يلائم طبيعتهم الحياتية والنفسية واقتصروا على (القصائد الغنائية ذات المدى المحدود... إذ عرف عنهم أنهم لم يستسيغوا الملاحم الطويلة المعروفة في آداب اليونان والفرس)<sup>(3)</sup>. إنَّ القصيدة الغنائية أو شبه الملحمية - إذا صح التعبير - تنحصر أبعادها في مدح البطل ووصف المعركة والجيش، وإن هذه القصيدة تحدد إمكانات التجديد في المعاني المطروحة، أو الأسلوب في رسم صور التعبير، ولعل ضروب الخلاف بين شاعر وآخر لا تتعدى ما قد يطلق عليه (النفس الشعري) لهذا الشاعر أو ذاك من الشعراء، أي إن كل واحد منهم كان مرهوناً بزاوية رؤيته على حد رأي الدكتور شفيق محمد<sup>(4)</sup>

(2) الرحلة إلى الفردوس و الجحيم في أساطير العراق القديم /31.

(3) ينظر: أيوان أو عن الألباءة من محاورات أفلاطون: 37.

(4) الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 397.

(4) ينظر: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 64.

ولا بد من وقفةٍ قصيرةٍ ونحن نذكر الشاعر ابا الفضل الجلياني الملقب بحكيم الزمان، الذي قصر شعره لنظم قدسياته المشهورة، وأشار في بدايتها الى التباشير القدسية سنة 565 هـ والتنبؤ بفتح بيت المقدس ومن خلال نفسه الملحمي جاءت قصيدته في مائة بيت، وايضا امتدح صلاح الدين سنة 568 هـ بقصيدة نيفت على مائة بيت ومن قوله في التباشير: (1)

وتعنو له الاملاك شرقاً ومغرباً  
بذا حكمت حذاق اهل الملاحم

وعندما هلت سنة 583 هـ ومعها تصديق التباشير القدسية لابي الفضل الجلياني، نظم القدسية الكبرى وعدد ابياتها مائة واثنان وخمسون بيتاً، وله الفتحية الناصرية، والتحفة الجوهريّة، وغيرها 0

وخلاصة القول: اذا كان المؤرخون قد سجلوا الانتصارات والفتوحات كما شاهدوها او سمعوا عنها، متقصين و مثبتين مصادر دراستهم فان الادباء وبالأخص الشعراء وجدوا انفسهم في حل من القيود التي تقيد المؤرخين، فقد ارخوا لمواهبهم العنان، وراحوا يصورون الفتوحات والبطولات كما ارادوا ان يروها، لا كما حدثت بالضبط، ليؤثروا من خلال ادبهم وشعرهم في عواطف معاصريهم، وفي ذاكرتهم وذاكرة المنطقة التاريخية، بنشر صورة البطل وكانت هذه الصورة قد فقدت من المنطقة اعواما طويلة، وقد وصلت الينا الصورة الادبية موازية للصورة التاريخية، تستقي منها ما يروق لها، وتعرضه بصورة زاهية رائقة وجذابة، ورسمت هذه الصورة البطولية في قالب شعري وعاطفي، واشتقت من الذاكرة الشعبية الشامية او المصرية ومن بعض المعتقدات التي تقرب من الخرافات احيانا 0

ويمكننا القول - مثلاً - ان العناصر الموزعة في مدائح صلاح الدين نظماً وشعراً لو جمعت في ملحمة واحدة، لساوت بعض الملاحم الكبرى 0

(1) ديوان المبشرات والقدسيات: 141.

وينظر : ايضا قدسيات اخرى : الروضتين في أخبار الدولتين: 116/2.

الادب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك): 440-441.

أدب الحروب الصليبية: 141.

ان اكثر الشعراء في قصائدهم الجهادية دأبوا على تناول هذا الموضوع المتصل بالاحداث على انه موضوع (مدحي) يدخل ضمن الاطار الشامل لذلك الغرض البارز من اغراض الشعر العربي.. وهذا المفهوم المتوارث عند الشاعر يقوده بطبيعة الحال الى التركيز على شخصية البطل وتغدو معها سائر العناصر الملحمية ثانوية تدور في فلك الممدوح، وهذا يدفع بالشعراء الى كثير من التصنع والتكلف، في حين قصيدة المديح لو نحت منحى خاصا يتمثل في حديث نفس وحديث جماعة، تنقل مشاعر النفس وتعالج قضايا المجتمع والناس وتمتزج بالحكمة، هذا المنحى هو الدنيا الفريدة والمبتدعة والحياة والمحتفظة بحيويتها على الدوام، الا يمكننا ان نطلق على مثل هذه الدنيا: الدنيا الشاعرية المتجددة وعلى الشاعر: المتجدد الذي يمتلك عينين نكيتين نافذتين يرى بهما الاشياء رؤية جديدة ويخلقها خلقا آخر 0 ولا ضير ان تفرض قصائد ابي الطيب المدحية في سيف الدولة هنا فقد ارتقى بفن المدح الى لونٍ آخر رفيع، بينما في كافورياته بدا شعره متنافراً بمقاييسنا النقدية ودالا على التذبذب ولكنه في الحالتين تعبير عن مشاعر جامحة عنيفة ايجابية وسلبية نظن ان المتنبى وهو الشاعر اللامع كان صادقاً فيها فقد اندفع بمشاعره الجياشة الايجابية نحو كافور كما اندفع ايضا بمشاعره الجياشة السلبية عنه<sup>(1)</sup>، ولم يكن باستطاعته على ما يبدو ان يكون غير هذا 0

والفن الرفيع يفرض نفسه على النفس الانسانية، ولا نخفي تذوقنا لايبات الشاعر عمارة اليمني في مدح نجم الدين ايوب والد الملك صلاح الدين<sup>(2)</sup>:

فارقته والبشر فوق جبيني  
ايوانه ، لثم الملوك يميني

ملك اذا قابلت بشر جبينه  
واذا لثمت يمينه وخرجت من

(1) ينظر: الفكر طبيعته وتطوره: 262

(2) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام: 106/3

هنا لن نخفى علينا طبيعة الشاعر النفسية، ففي البيتين مديح مزدوج - اذا جاز لنا التعبير - فهو يثني على الملك ويكيل الثناء لنفسه ولكن من بعض ما عند ممدوحه من البشر بشكل تلقائي سريع، وهو يمدح ملكاً ويخرج من ايوانه وهو ملك ايضاً يلثم الملوك يمينه، ان اعجاب الشاعر بنفسه وثقافته وعلاقاته وملابسات حياته الخاصة خلقت تأثيراً مباشراً في مدى قوة انفعالاته وسرعة تأثره وهذا بدوره يحول خلجاته الى بودقة مملوءة بشتى المشاعر تفيض شعراً، لذا قيل (ان جوهر الابداع هو الانفعال والانفعال هزة عاطفية في النفس.. ومنشأ الانفعال العميق هو الاتحاد المباشر بين العبقري وبين الموضوع الذي يشغله...)(1)

وبمناسبة الحديث عن العبقري، ومن خلال مطالعاتنا لم نعهد شعراء كثيرين وصفوا بالعبقرية في هذا العصر، والعبقري كما هو معلوم للجميع: شخص يتمتع بموهبة استثنائية يعترف بها المجتمع(2) وورد ذكر الشاعر شرف الدين الانصاري، يقول عنه الدكتور عمر موسى ان الناس (اظهروا اعجابهم بعبقريته الشعرية لانه صاحب مدرسة التورية والانسجام في بلاد الشام)(3)، وعد يوسف ميخائيل الشاعر اسامة بن منقذ صاحب اكثر من عبقرية فهو لديه عبقرتان : عبقرية الفروسية والقتال، وعبقرية الشعر، ومن الطبيعي ان يفقد العبقرية الاولى بعد ان عمر وبلغ ستا وتسعين سنة، عندها لجأ الى عبقريته الثانية يشد ازرها او تشد ازره على حد تعبيره(4).

ان استمرار الشاعر اسامة بن منقذ في قول الشعر وتأليف كتب الادب، دليل مشرق على مواهبه الكبيرة في اداء مسؤوليات ادبية وسياسية واجتماعية وعلمية فالشعراء يحفزون كل ما لديهم من استعدادات ومواهب كامنة وقدرات عقلية واجهزة عصبية... يحفزونها للانطلاق والابداع في مجال ما

(1) الابداع في الفن: 76.

(2) معجم علم النفس: 49.

(3) ديوان الصاحب شرف الدين الانصاري: 9.

(4) ينظر: العبقرية والجنون: 32-33.

ولقد اشاد الدكتور ناظم رشيد بشعر اسامة قائلاً (وهو - في جملته - يصلح ان يكون انشودة وطنية تثير الحماسة والنخوة في ساعات المسير نحو ملاقاتة الخصوم لتحطيم عددهم واسكات انفاسهم ... )<sup>(1)</sup>

إنَّ ادب الفروسية يبدو واضحاً في اشعاره وحياته حيث ختم الفصل الكامل عن ادب الفروسية في كتابه (لباب الآداب) بابيات مشبعة باللوم والتقريع للموت الذي يتجنبه في سوح القتال، في حين هو خائض فيه حتى اخذته الايام سراعاً وهو مازال متعلقاً برغبته في الموت فهو امنية النفس المقاتلة اذ يقول<sup>(2)</sup>:

الوم الردى، كم خضته متعرضاً	له، وهو عني معرض متجنب
وكم اخذت مني السيوف مأخذ الـ	حمام، ولكن القضاء مغيب !
الى ان تجاوزت الثمانين وانقضت	بلهينة العيش الذي فيه يرغب

ولن ننسى ان الشاعر اسامة بن منقذ من اسرة توارث بنوها الشعر في الشام وانه (يوضع في مقدمة الشعراء الذين جددوا شباب الشعر، وكسوه حلة من الفخامة والقوة والجلال)<sup>(3)</sup>

ومن الجدير بالذكر ان حياة الشعراء في العهد الايوبي حفلت برعاية شخصية تمثلت بمواقف القاضي الفاضل الودودة لجماعة الشعراء فقد كان راعياً اميناً لهم وللاباء والعلماء والفضلاء<sup>(4)</sup>، واما الرعاية الاسرية فتمثلت باسر تداول ابناؤها حماية الشعراء وتقريبهم واکرامهم ومن اشهر تلك الاسر (اسرة بني الكنز)<sup>(5)</sup> وهم امراء اصائل من ربيعة. ولن يفوتنا ذكر دار (ابن منقذ)، حيث كانت معقلاً للفضلاء والادباء ومنزلاً للعلماء.<sup>(6)</sup>

(1) دراسات في الادب العربي في العصر الايوبي (بحث الحماسة في شعر اسامة بن منقذ):

(2) لباب الاداب: 226.

(3) الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 188.

(4) ينظر: ادب الحروب الصليبية: 144.

(1) ينظر: الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 125.

(2) ينظر: الدارس في تاريخ المدارس: 384/1.

وفيما يخص ابداع الشعراء في النظم فكما هو واضح ان شعراء العصر الايوبي (يتصورون ان الابتكار في الشعر هو ان ياتي بفكرة او بمعنى او بتشبيه لم يسبق اليه)<sup>(1)</sup>، في حين ان ابداع الشاعر من حيث هو شاعر (ليس في ان ياتي بفكرة او معنى ...) وانما ابداعه الحقيقي نمثله بالوثبة تاتي الشاعر ككل بلفظها ومعناها وتأتي منظومة غالبا ... الشاعر مدفوع الى هذا (الكل) الذي هو معان وصور والفاظ موقعة<sup>(2)</sup>.. تلك هي الاصاله في الفن تتبع من عمق الاحساس ومدى حرية الشاعر وحده في التعبير عن ذلك العمق<sup>(3)</sup>

اما ما قيل بصدد السهولة في الشعر وظهور الشعر الشعبي<sup>(3)</sup>، فاننا نجد ذلك طبيعيا وعلى الاخص (زمن الحروب)، وهي احتياجات نفسية تتطلبها نفوس الناس الخائفين من الحروب واثارها فتكون العامية والشعر الشعبي اقرب الى قلوبهم والصق بواقعهم وهم على ما هم عليه احوج الى دفء الحياة الشعبية ولهجتها وجاء في كتاب نظرية الادب عند الحديث عن الادب السوقي (ومن الشائع ان ينظر اليه كتسليه او مهرب)<sup>(4)</sup>، وهكذا بسط الشعراء اشعارهم وتلاعبوا بالالفاظ ومالوا للبديع بالاضافة الى ضعف ثقافة بعض الشعراء وعزوف العامة عن التخاطب بالفصحى ويبدو ان بعض الشعراء تعمدوا هذا النظم مجارة للراي العام الادبي فماذا نقول لبهاء الدين زهير وهو يقول:<sup>(5)</sup>

سيدي، اوحشت عبدك

سيدي، قلبي عندك

وقوله أيضا<sup>(6)</sup>:

ما دمت أنت بخير

والله إنني بخير

(3) ابن سناء الملك (حياته وشعره): 107/1.

(4) ينظر: الاسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة: 303.

(5) ينظر: الادب في عصر صلاح الدين الايوبي: 320.

(6) نظرية الادب: 33.

(7) ديوان بهاء الدين زهير: 105.

(1) ديوان بهاء الدين زهير: 167.

ونراه وما أحسن قوله وهو يصف شباب القلب برقة وملاحة ترسم ابتسامة خفية على شفاه قارئيه: (1)

ويميل بي نحو الصبا  
فيه من الطرب القديم  
قلب رقيق الحاشية  
بقية في الزاوية!

وعلينا ان نستثني شعراء الجهاد الذين عظم في نفوسهم الهدف الاسمي ونظروا بعين الاجلال والتقدير للجهاد وابطاله فأجزلوا بعطائهم الفصيح مخالفين كثيراً من الشعراء الذين غلبت عليهم العامية لذا تميزت اشعارهم الجهادية (بجزالة الالفاظ والتراكيب، مع الدقة التامة في صياغتها واحكام تأليفها...) (2) وقد حدد شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) أوصافاً دقيقة للفظ الفصيح بقوله (يتعارفه الناس في استعمالهم، ويتداولونه في زمانهم، ولا يكون وحشياً غريباً، او عامياً سخيفاً) (3)

وخلاصة القول ان شعراء العهد الايوبي اقتدوا بالاقدمين - بلا ادنى شك - في مناهج الشعر ونظام القصيدة وقصروا انفسهم على الشعر الغنائي (قصائد ومقطوعات ودوبيات... الخ) الذي خلد لنا اجل الملاحم واهم الاحداث في تاريخنا، وهو الذي وشى كتبنا القديمة بارق الشعر واعذب النغمات الصوفية (وما اساليب الشعراء ومذاهبهم الفنية وتياراتهم الادبية الا النتيجة الحتمية التي اوجدها التطور الزمني واختلاط البيئات المختلفة من مجتمعات لها ثقافات متباينة) (4) وقد وازن عماد الدين الاصفهاني في خريدته بين شعراء الشام والعراق قائلاً (شعر الشاميين اصح وزناً، واسح مزناً، وامتن صيغة، واحسن صبغة... فإن العراقيين، بغاية لطفهم ونهاية ظرفهم، غلبت الرقة على كلامهم حتى اعتل نسيم نسيبهم...) (4)

(2) نفسه: 389.

(3) شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام: 201.

(4) كتاب أسرار البلاغة: 4.

(1) خريدة القصر وجريدة العصر: بداية قسم شعراء الشام: 19.

واخيرا فان تاثير البيئة وخصائصها على الشعر والشعراء ظهر واضحا على الشعر المصري فطبعت البيئة المصرية الشعراء بطابعها الميال نحو خفة الروح وجمال الاسلوب والسخرية اللاذعة، فكثرت استخدامهم للجناس والتورية مما يتفق وطبع المصريين وميلهم الفطري للنكتة والتهكم والدعابة<sup>(1)</sup>

ولعل خير من يمثل الادب المصري الشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح (ت 649 هـ) الذي اثرت نشأته المتواضعة في شعره فجاء اقرب الى الروح الشعبية وكان خير من عبر عن حياة الكادحين من الجماهير الفقيرة في عصره، وصور هذه الحياة في اسلوب ساخر ونقد مرير لاذع<sup>(2)</sup>

لقد دعا الايوبيون على المنابر للخلافة العباسية 567 هـ على يد صلاح الدين الايوبي، واستقطبوا رضا الخلافة العباسية في بغداد التي تسعى حثيثة - مع ما تواجهه من مشاكل سياسية معقدة - الى تعزيز المظاهر الدينية، فالخلفاء بنوا حكمهم على اسس دينية شرعية، لذا اكتسبت خلافتهم شرعيتها واحترام الناس لها وحرصهم على طاعتها من الدين وتعاليمه لذا كان (ال خليفة يصدر في جميع اوامره وتصرفاته، بتفويض وتخويل من الخالق سبحانه فلا مجال للتذمر ولا موجب للشكوى)<sup>(3)</sup>

إنَّ العصر (عصر الحروب الصليبية) وان الابطال المقاتلين حملوا لواء الدين في مواجهة الغزو الصليبي، فانهم يقاتلون باسم الخليفة وينفذون اوامره، ناهيك ان الحرب كلها ذات طابع ديني<sup>(4)</sup>

ان مشاركة شعراء العراق في ادب الحروب الصليبية من الامور المسلم بها، فهذا الادب اساسه الدين اولا وآخرا، وبغداد هي مركز الخلافة ولخليفاتها سطوة روحية عظيمة على الملوك والسلاطين والامراء الذين هم على اتصال دائم به

(2) ينظر: خزنة الادب و غاية الارب: 344.

(3) ينظر: جمال الدين يحيى بن مطروح (حياته وشعره): 112.

(4) الشعر العراقي في القرن السادس الهجري: 159.

واستجابة لتلك السطوة الروحية العظيمة نطالع ابياتا للشاعر راجح الحلبي (ت 627هـ) مادحا الامام الناصر أبا العباس أحمد بن الامام المستضيء، وأرسلها من حلب سنة 605 هـ يقول فيها:<sup>(1)</sup>

يا من تلوت مديحه فكأنني	منه لايات الكتاب أرتل
ما قدر أشعاري ومن مد	احكم و الوحي في ابياتكم ينتزل

(1) ديوان راجح الحلبي: 526، (رسالة ماجستير).

## الفصل الثاني

---

منظور الشعراء للحياة والموت في أبعاده الفكرية

1. البعد السياسي

2. البعد الاجتماعي

3. البعد الجمالي والإدراكي

4. البعد النفسي (الوجداني)

منظور الشعراء للحياة والموت في أبعاده الفكرية

الأبعاد الفكرية لأي مجتمع من المجتمعات تمثل حلقة الربط والحل لذلك المجتمع بما فيه من وجوه التفاعل والارتباط وملامح نشاطه الإنساني في كل بعد من أبعاده، وقد سبق القول بان ظواهر المجتمع عامة والأبعاد الفكرية خاصة تعيش حالة تمازج وتداخل وتأثير متبادل فيما بينها<sup>0</sup> لذا نجد صعوبة في فصل الأبعاد الفكرية بعضها عن البعض الآخر بسبب العلاقة الوثيقة بين تلك الأبعاد، فلا يمكن في حالات أن نفصل بين البعد الديني والبعد النفسي (الوجداني) أو بين البعد النفسي والبعد الاجتماعي أو البعد الديني والبعد السياسي مثلا يقول احمد الشايب: (ليست هناك حدود واضحة بين فنون الشعر ولا بين العواطف والانفعالات فكثيرا ما تتداخل ويمتزج بعضها ببعض فلا يخلو الغضب من الحزن ولا يسلم النسيب من الشكوى ولا المديح من الوصف)<sup>(1)</sup> وقد جاء هذا التصنيف لغرض منهجية البحث وترتيبه وتوضيح دراسته<sup>0</sup> والشعراء في كل ذلك يخلقون داخل وحول أنفسهم معبرين عن شعورهم وعواطفهم وأفكارهم بما تصوره مخيلتهم من معان وأشكال تجرهم رغباتهم وميولهم نحو الدنيا حيناً وتعنو بهم نحو المثالية والآخرة حيناً اخر<sup>0</sup> والحياة والموت مخلوقان مثل باقي المخلوقات الكثيرة الأخرى قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً...﴾<sup>(2)</sup> ولسنا مع الرأي القائل (ولعل الموت هو المعرقل الأول لاستمرارية الحياة بل هو انتقاء لتلك الاستمرارية)<sup>(3)</sup>، ونرى قياساً إلى ميزان الكون وقانون البقاء والفناء يعد الموت مسألة اعتيادية، ولكنها حتمية وعلى الإنسان أن يتقبلها بكل بساطة، لان امتعاضه وخوفه من الموت لا يقدم ولا يؤخر فالموت حالة طبيعية، هو الجانب الآخر للحياة غير المنظورة... والإنسان لم يخلق لهذه الحياة الدنيا حتى يبقى خالداً فيها، بل هو في اصل خلقته وتكوينه خلق لحياة أخرى قال تعالى: ﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا

(1) الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية): 78.

(2) الملك: 4.

(3) الحياة والموت في القرآن الكريم: المقدمة أ، (رسالة ماجستير).

أفلا تعقلون<sup>(1)</sup>، لأن لجميع الخلق دارين الدار التي خلقوا فيها وهي الدنيا و الدار الآخرة هي التي يعادون فيها خلقاً جديداً<sup>(2)</sup>، ومن ذلك ننتقل إلى حقيقة مهمة تقول: إن الموت هو احد أركان الحياة المهمة، بل يعد فلسفة الحياة والكون إذ بوجوده تستمر الحياة ويتواصل البشر وتحدث التغييرات المهمة على الأرض وتأتي أجيال وتذهب أجيال وهي محملة ومعبأة بكل ما هو جديد، وبتشبيه أكثر واقعية، فان الموت كحلول وقت الحصاد فالإنسان يزرع لمدة أربعين أو خمسين سنة ليحصد نتائج أعماله وهي (الإيمان والعمل الصالح)<sup>0</sup>

ولا يمكن إنكار مدى ارتباط الحياة بالموت فهي موصلة إليه وهو يحتضنها بالنهاية ويستوعب حياة بشرها<sup>0</sup> ولا يمكن إنكار الآيات الواردة في ذم الدنيا، وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة<sup>(3)</sup>

وقد صدق رسول الله (ﷺ) في وصفه (الدنيا) بعد أن قلل من شأنها قائلاً: ﴿مالي وللدنيا وإنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها﴾<sup>(4)</sup> وقوله (ﷺ) (تحت ظلها) لان الظل في الحقيقة ضوء شعاع الشمس دون الشعاع فإذا لم يكن ضوءاً فهو ظلمة وليس بظل<sup>(5)</sup>

ولا يقل تصوير النبي عيسى (عليه السلام) لصاحب الدنيا روعة من تصوير نبينا محمد (ﷺ) في قوله: ﴿من يسمع كلام الملكوت ولا يعطي ثمرًا فهو المزروع في الشوك: له من هموم هذه الدنيا ومحبة الغنى ما يخنق الثمر فيه﴾<sup>(6)</sup>، وبهذه الشرطية صور صاحب الدنيا هذا التصوير حيث لم يترك مجالاً لمن يقول ويتحدث عن كون الحياة صراعاً أبدياً بين التناقضات في الأعماق وان بدا توازن الإنسان ظاهرياً<sup>0</sup>

(1) يوسف: 109.

(2) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: م/269/5.

(3) ينظر: إحياء علوم الدين: 3/249.

(4) نفسه: 3/266.

(5) لسان العرب: مادة الظل: م/189/9.

(6) الكتاب المقدس (العهد الجديد): 25.

وإذا آمنا بواقع الإنسان القائل بأنه من أكثر الكائنات الحية استخفاء وسترا للحقيقة النفسية ولما يعتمل بحق في الدخيلة<sup>(1)</sup>، فإن ذلك الإنسان نفسه مؤمن بان الموت هو الحقيقة الوحيدة الكبرى في حياة البشرية، وفي الكون بكل موجوداته فهو واع مدرك يتساءل: كم من دولة زالت وجماعات بادت، وأمم محيت؟ ويبقى مكسبه الذاتي العميق الذي يزرع الطمأنينة والاستقرار في نفسه هو أن الموت حد يتساوى أمامه الجميع، فكل نفس ينتفسه الإنسان - سيذا كان أم عبدا - هو خطوة يقطعها إلى الأجل وكما ذكر عن الإمام علي (عليه السلام) قوله: ﴿نفس المرء خطاه إلى أجله﴾<sup>(2)</sup>

والأدباء والشعراء كغيرهم من الناس لهم نظرة خاصة إلى الحياة والموت كما أن لهم قدرة خاصة على التعبير عن مشاعرهم<sup>0</sup> فهم مؤمنون بان الأدب عامة والشعر خاصة مرآة الحياة الإنسانية في كل زمان ومكان فلا مجال للشك في أن الشعر في عهد بني أيوب قد مثل الحياة الإنسانية الحقيقية اصدق تمثيل وشمل مختلف مظاهر الحياة وجوانبها وإفرازاتها الدقيقة وهذا ما سنحاول دراسته وتحليله وبحسب الأبعاد الفكرية كما ذكرنا، مراعين التسلسل الزمني للشعراء ما أمكننا إلى ذلك سبيل<sup>0</sup>

(1) سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب: 108.

(2) نهج البلاغة: 16/4.

## 1. البعد السياسي :

إن صفحة العلاقات القائمة على الصراع الحربي بين المسلمين والفرنجة تستأثر بأوسع مجالات الشعر السياسي وأشدّها عمقا، في عهد بني أيوب خاصة وفي ذلك العصر عامة، وهي الصفحة المميزة التي من أجلها نشأت معظم العلاقات الأخرى سواء أكانت داخلية أم خارجية، وإن أكبر أهداف السلاطين والأمراء والقادة يومئذ الجهاد في سبيل الله وإعداد القوة لاستتقاذ بلاد الإسلام من يد أعدائه 0

## المديح:

ويكتنف البعد السياسي شعر المديح الذي هو بحد ذاته يمثل الحياة السياسية بكافة تشعباتها بما فيها الروح الدينية والجهادية أيضا، ونعزو ذلك إلى التداخل العميق في قلب الأحداث ولأسيما الغزو الصليبي، والدعوة للجهاد، والتحريض والحث عليه، وتمجيد البطولة، وتسجيل المعارك الكبرى 0

وقد أحاط الأدب بهالته المقدسة الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب وخلصهم في صورة حبيبة إلى النفس، قريبة من القلب، يزينها الإيمان ويجملها اليقين، ولا غرو في أن الحياة في عهد بني أيوب لم تكن حلما يتمنى المرء ألا يستفيق منه ولكنها حقيقة واقعة، تثير الانفعال وتهيج الوجدان ولكل ذلك فإن الأدب يومئذ سجل نبضات قلوب المسلمين خير تسجيل، وعبر عن آمالهم وأحاسيسهم اصدق تعبير وأوفاه صورا مشحونة بالعواطف تجول في القلوب وتحرك النفوس الصابرة المتلهفة لتحقيق الآمال 0

ومن الطبيعي أن تكون المدائح النبوية ممثلة للعمق الديني في نفوس الشعراء اتجاه النبي الأكرم عطر الله ذكره إلا أننا نميل إلى الاعتقاد بان شيوع المدائح النبوية، ولأسيما في هذه الحقبة الزمنية يعزى لأسباب سياسية بحتة، أراد الشعراء تحقيقها ونشرها عن طريق المدائح النبوية، ذلك أنهم أمام تحد للإسلام ورسوله فغشاهم الخوف من المساس بهما فانطلقوا بكل ما لديهم من قدرات شعرية وفنية وإبداعية لإحياء معتقداتهم الدينية التي هي بحاجة لكرهم القتالي ومنافحتهم اللسانية الشعرية، مضافا إلى ذلك عمق الحاجة لتلك المدائح كملاذ نفسي للانتقاء من الحروب والفتن والكوارث، أرادوا بها دفع الشرور والآثام ملتجئين إلى الله تعالى وشفاعة رسوله

الكريم<sup>0</sup> والمدائح النبوية ليست رثاء للرسول الكريم، وإنما هي مدح كأنما الشعراء لحظوا أن الرسول (ﷺ) موصول الحياة وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء، والغرض منها التقرب إلى الله بنشر محاسن الدين والثناء على شمائل الرسول (ﷺ)<sup>(1)</sup>

وقد ساهم عدد كبير من الشعراء في عصر الحروب الصليبية وما بعدها نظم قصائد على وزن وروي ومنهج قصيدة كعب بن زهير المشهورة:<sup>(2)</sup>

بانث سعاد فقلبي اليوم متبول  
متميم أثرها لم يفد مكبول

وجاءت معارضتهم لها باعتبارها الأكثر قربا وحببا لرسول الله (ﷺ)، حتى أن بعض العلماء كانوا لا يستفتحون مجالسهم إلا بقصيدة كعب بن زهير<sup>(3)</sup> تبركا بمن أنشدت بين يديه، ومن ذلك انطلق الشعراء قديما وحديثا يسعون حثيثا لتوارثها وشرحها ومعارضتها والنسج على منوالها والإقتداء بألفاظها ومعانيها، ومن شعراء عهد بني أيوب ابن الساعاتي (ت 604هـ) وشرف الدين الأنصاري (ت 662هـ) فلهما الحصاد الأكبر في هذا المديح المبارك لخير البرية،  
ابن الساعاتي في لاميته:<sup>(4)</sup>

ومنطقي ورسول الله مأمول	وكيف أخمل في دنيا وأخرة
وللشهادة تجريح وتعديل	هو البشير النذير العدل شاهده
ولا الفرات وجارها ولا النيل	لولاه لم تك شمس لا، ولا قمر
والقلب من دنس الأطماع مغسول	وكيف يصبو إلى الدنيا وزينتها
فرمحه قاتل للقرن مقتول	يردي الكمي ويردى رمحه قصدا
لد إذا جادلوا سحب إذا سيلوا	أسد إذا نازلوا، شهب إذا أسفروا

(1) ينظر: المدائح النبوية في الأدب العربي: 17.

(2) شرح ديوان كعب بن زهير: 6.

(3) ينظر: نفع الطيب: 688/2.

(4) ديوان ابن الساعاتي: 48/1، 49.

الشاعر يستنكر خموله في دنياه وآخرته ما دام رسول الله (ﷺ) هو المؤمل بالشفاعة والقبول<sup>0</sup> ونلمح روح المبالغة في بيته الثالث، وهذا وارد لدى بعض شعراء المديح النبوي، فهو أصلاً يرجع إلى أصل من أصول التصوف<sup>(1)</sup>. ويستمر الشاعر في نفيه المطلق عن الرسول (ﷺ) الصبابة إلى الدنيا وزخرفها، ولكنه عليه الصلاة والسلام بطل ورمحه قاتل للعدو مقتول فيه وتعرض في البيت الأخير لآله الأبرار وأصحابه الأخيار فهم اسود في ساحة الوغى، ونجوم في الظلماء، فصحاء بلغاء، كرام لا مثيل لهم. وللشاعر فتیان الشاغوري (ت 615هـ) أملٌ في شفاعته ينعم بفيضها في جنات خالدة، انه يبحث عن الخلود وأمله رسول الله يقول فتیان في مدح الرسول الكريم:<sup>(2)</sup>

أؤمل من خير الأنام شفاعته	بها في نعيم الجنان أخلد
فأنت رسول الله وهي شهادة	أقر بها حتى المعاد وأشهد
وددت بأني زرت قبرك راجلاً	وقبلت تريباً أنت فيه موسى
ومرغت خدي عند قبرك ضارعا	بأرض حصاها لؤلؤ وزبرجد
واني لذو شوق إليك مضاعف	بواعثه لا تأتلي تتجدد
إلى الحجرة البيضاء و الجدث الذي	به الخير في الدارين يرجى ويقصد
ألا أيها الزوار بالله بلغوا	سلامي إليه وآرققوا وتأيدوا
وقولوا له فتیان يشكو صبابة	إليك، ووجدنا حره ليس يبرد

ولعل ما يكابده الشاعر هو ازدياد الشوق المضاعف كل يوم وأسبابه تتجدد دائماً إلى قبر الرسول العظيم وحجرته البيضاء الطاهرة، وجعل خير الدنيا والآخرة مرهونة برضا صاحبها، حقا أن العلاقة الوجدانية بين المرء ورسوله العظيم تجعله يتيه دلالة عليه حتى انه يوصي الزائرين لقبره أن يحملوا شكواه من شدة وجده وشوقه وما ألطف قوله: (وقولوا له فتیان يشكو صبابة)<sup>0</sup> ينقل للنبي الكريم أشواقه ويصور له مواجهه التي تتلظى في فؤاده متمنيا أن يزور تلك الديار فيمرغ خده بترابها الطاهر

(1) ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: 169/1.

(2) ديوان فتیان الشاغوري: 108-110.

ويعانقها عناق المحب الواله، يقول: (أؤمل من خير الأنام شفاعة) إلى آخر القصيدة... ولابد من طلب الشفاعة والرضا في ختام كل قصيدة... وتسترعي الانتباه قصيدة شرف الدين الأنصاري (ت 662هـ) في مدح سيدنا الرسول (ﷺ) التي مطلعها<sup>(1)</sup>:

ويلاي من غمضي المشرد                      فيك، ومن دمعي المررد  
يا كامل الحسن ليس يطفئ                      ناري سوى ريقك المبرد

وتعارف شعراء المدح النبوية على التمهيد بأبيات تخلص إلى الغرض الأساس، وكان الغزل في اغلب الأحيان له النصيب الأوفر، ويثني النقاد على حسن تخلص الشاعر شرف الدين الأنصاري إلى مدح الرسول من الغزل في قوله:<sup>(2)</sup>

فمن رأى ذلك الوشاح                      الصائم صلى على محمد  
خير نبي نبيه قدر                      عودي إلى المدح فيه احمد  
ومرسل حمده شعاري                      لأنه في المعاد أعود  
أبان نقص الجميع عنه                      لما غدا في الكمال مفرد  
فالعيش من سيبه المهنا                      والموت من سيفه المهند

إنَّ المدائح النبوية ظلت موصولة مستمرة قرونا طويلة تحمل إضافة أجيال ورؤية أجيال وعلى الرغم من خفوت صوتها حيناً، إلا أنها بقيت قادرة على العطاء تنبض بالحياة في أوقات الشدة، تمنح الإحساس بالأمان وتكمن فيها قوة دفع كبيرة بما تقدمه من قيم سامية ومثل عليا نحن في اشد الحاجة إليها، فالعودة إلى نبع الإسلام الأول وأصوله هو الملاذ من التخبط الفكري<sup>0</sup> وعندما نودع المدائح النبوية الشريفة نكون واثقين أنها تهدف إلى إرضاء الشعور الداخلي النفسي للشعراء باستحقاق الرسول الكريم للثناء والمدح، بعيدين عن الكسب والمغنم، وبرأينا فقد أجاد الشعراء في مديحهم للرسول الكريم، برغم نفي ابن خلدون الحذق فيه وحصره بالفحول يقول (كان

(1) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: 146، 148.

(2) نفسه: 149.

الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب ولا يحزق فيه إلا الفحول<sup>(1)</sup> وعلى عكس شعر المديح العام الذي رافق مسيرة الشعر العربي عبر العصور، وقد تختلف مقاصده وأهدافه ولكنه الغرض الشعري الأكثر أهمية بين الأغراض الشعرية الأخرى<sup>0</sup>

ولا نريد التعمق في الحديث عن المديح، بقدر رغبتنا في الإطلاع على صورة الحياة والموت في دواوين الشعراء في عهد بني أيوب، من خلال أمثلة مختارة مبنوثة هنا وهناك في قصائد المديح<sup>0</sup> أما ظاهرة التكسب في الشعر فهي ليست بجديدة على الشاعر وعصره، وما نريد تأكيده والغات النظر إليه أن التكسب بالشعر لم يكن سببا في نشوء المديح كما قال ابن رشيقي في عمدته (كانت العرب لا تتكسب بالشعر وإنما يصنع احدهم ما يصنعه فكاهاة أو مكافأة عن يد لا يستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها)<sup>(2)</sup>.

وربما يغنيننا قول ابن سناء الملك عن الحديث عن المديح وشعرائه عندما مدح شخصيات بارزة في المجتمع ولم يلتفتوا إليه:<sup>(3)</sup>

وأنفقت عمري في مدائح معشر      كموتى ولو أنصفت كن مرثي

ويعود ليعترف على نفسه فيجد انه كاذب في مدائحه، صادق في أهاجيه:<sup>(4)</sup>

كأبة الكذب في مديحي      ورونق الصدق في هجائي

وخلاصة القول يبقى المديح في مهبط ريح الأفكار المخزونة لدى الشاعر، فطورا يبدو قانعا مؤمنا بما يستحقه الممدوح وطورا تضعف قناعته أمام المنفعة المادية، الخيط الموصل بينه وبين ممدوحه صاحب الجاه والسلطان<sup>(5)</sup>.

(1) مقدمة ابن خلدون: 575.

(2) العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده: 80/1.

(3) ديوان ابن سناء الملك: 474/2.

(4) نفسه: 472/2.

(5) ينظر: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد : 75.

ومن الأمور التي يجدر الإشارة إليها هنا هو أننا غرضنا النظر في تقسيم المديح إلى تكسبي تقليدي أو جهادي أو بطولي وسلطنا طريق البحث الأدبي لاكتشاف رؤى الشعراء لثنائية الحياة والموت وتحليل ودراسة تلك الرؤى. لقد تركزت الحياة وصورتها عند الشاعر عرقلة الكلبى (ت567هـ) في مدائحه الجادة البعيدة عن الهزل وروح النكتة في أمرين - حسب ما نرى - الأمر الأول، حبه للمال وصراحته في السؤال ومن خلال قصيدته المدحية للناصر صلاح الدين، جرى تأكيده على ذلك بشكل ملفت للنظر يقول: (1)

وامرض من جفاك ولن أعادا	آلام آلام فيك وكم أعادى
فلا سعدى أريد ولا سعادا	وقد أنساني الشيب الغواني
إذا ما يوسف بالمال جادا	وهل أخشى من الأنواء بخلا
وللأموال لم يبرح فسادا	فتى للدين لم يبرح صلاحا
جواد لم يهب إلا الجوادا	هو المعروف بالمعروف حقا

إن ما يشفع لعرقلة في أبياته هو أنها قيلت قبل أن يملك صلاح الدين الأيوبي مصرًا، يحته على قصدها، والناظر في أبياتها تبدو له لأول وهلة وكأنها تلمح لفضيلة نفسية هي الكرم والعطاء، وبالتالي يجدها القارىء نظمت للرزق والاستجداء، وما تكراره كلمة (المال، وللأموال) إلا إشارة واضحة لذلك ولم تغن كلمة (الأنواء) شيئًا إزاء صراحته بطلب المال 0

وكل ذلك لم يؤثر في جمالية مطلع قصيدته وما تتركه في القارىء من اثر نفسي لطيف والأمر الثاني هو ألمه الشديد من أولئك الممدوحين الذين لا يقدرّون الشعر ولا يفهمونه، وهذا الأمر قد قاسى منه شعراء سابقون كابن الرومي والمتنبي. ولكن حين يتذكر عرقلة الكلبى شعره تبدأ شخصيته بالظهور والتجلي والقوة وقد كان عرقلة معتزا بفته يقرن نفسه بكبار الشعراء ويرى أن له حقا على الزمان حيث يقول: (2)

(1) ديوان عرقلة الكلبى: 30-33.

(2) نفسه: 82.

فأصخ لقصيد قصيدة، مامثلها  
لو أنشدت بحمي كليب خالها  
لجرير في الأمس القديم وجرول  
في الجاهلية من لسان مهلهل

وحين يمدح عمارة اليمني (ت 569هـ) الملك المعظم شمس الدولة يصفه  
بصفات مستمدة من الحياة التي تعتز بالجار وحقوقه من جهة وتؤمن تفضيل  
المهاجرين والأنصار من جهة أخرى. يقول:<sup>(1)</sup>

إن الليالي أساءت غير عالمة  
أما الزمان فقد وافى رحابك بي  
أن ابن أيوب لي من جورها جار  
مهاجراً فليكن لي منك أنصاراً

لكنه يرتفع بمدحته لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين فتغشى أبياته هذه  
المقابلات المعنوية المستساغة التي هي اقرب للنفس البشرية من المعاني الأخرى،  
في لحظات الإعجاب والثناء تتولد الاماني في اللاشعور لمشاطرة الممدوح بما يملك  
من أمور الحياة الهائلة، ولكن الشاعر لا يطلب ذلك ولا يلح في طلبه لأنه متحقق  
تلقائياً بلا تدبر وتخطيط، نراه يشاطر ممدوحه (البشر واللثم) وكلاهما - الشاعر  
والممدوح - نالا نفس القدر من المدح والتقدير، نلاحظه يقول:<sup>(2)</sup>

ملك اذا قابلت بشر جبينه  
واذا لثمت يمينه وخرجت من  
فارقته والبشر فوق جبيني  
إيوانه لثم الملوك يميني

والبيتان يجوز فيهما وصف ابن أبي الإصبع (إن حسن النسق من  
محاسن الكلام)<sup>(3)</sup>، والنسق في الكلام جاء على نظام واحد مع عطف بعضه على  
بعض 0

وصفة الكرم كالإدمان على الشيء إذا سيطرت على وجدان الشاعر يعتاد  
على العطاء، وتتمو بعلو غريزة حب البذل على من حوله وبالذات مجالس لهوه

(1) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 266.

(2) خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام): 106/3.

(3) تحرير التحبير: 425.

وأنسه، وينطلق تاج الملوك بوري بن أيوب (ت579هـ) يمدح أخاه (صلاح الدين) من دون تمهيد قائلاً: (1)

وهكذا يسترد الدهر ما يهب	أعطى الزمان نفيساً ثم عاد به
أم هل يسر بجمع الشمل مكتسب	هل ما نأى من حبيب النفس مقرب
كما تعم إذا ما سحت السحب	يا مالكا عمت الدنيا مواهبه
مثل الزجاجه كسرا ليس ينشعب	اجبر بصنعك قلبي فهو منكسر
فعند مثلك لا يستحسن اللعب	لا تتركن صروف الدهر تلعب بي

يخيل إلينا أن مدحه يشوبه الاستعطاف، فناداه بالمالك الذي بسط قدراته فشملت الدنيا، إلا قلبه المنكسر، ألفاظ تدل على انكسار وتصدع نفسي مرير، إنها أزمته النفسية تجعله يصدر نهياً بعدم السماح لصروف الدهر اللعب به وعلل ذلك بمدح رقيق 0

إن مفتاح شخصية هذا الشاعر الشاب الطموح للمجد والحرص على الشهرة، وبهذا يمكن تفسير سلوكه وأقواله لقد عرف معنى لحياته وبذلك عرف نفسه وهو مقتنع بذلك المعنى فكانت الشجاعة طريقه إلى المجد والعلو وهي عنوان الكرم عنده، وقد أشار بعض الباحثين في علم النفس والحياة إلى هذه الحالة بقولهم (الإنسان لا يعرف نفسه إلا حين يعرف للحياة معنى) (2) ولعل شعوره بأنه مفضل لدى أخيه السلطان وأهله نمم لديه هذه الأحاسيس المرهفة والدليل على ذلك عندما نعاها السلطان قال فيه (ما وفت حلب بشعرة من أخي تاج الملوك بوري) (3) ومع هذا التفضيل والدلال نراه يفضل الموت يوم الوغى على طيب الحياة بقوله: (4)

ياصاحبي، دعني اكر على العدا	فليس كريم القوم من يتهيب
ولا تبغ لي طيب الحياة مسالما	فللموت في يوم الكريهة أعذب

(1) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 104.

(2) التفسير النفسي للأدب: 13.

(3) خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام): 393/1.

(4) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 26.

ودعني أنل بالطعن حضا من العلا  
 ولا انتقاص عندما نستذكر بيت المتنبي موجزا كل ما قاله: (1)  
 وإذا لم يكن من الموت بد  
 فمن العجز أن تكون جبانا

ولم تزل قصائد المدح تنهج المنهج التقليدي القديم وهو النهج الذي سارت عليه غالبا قصيدة المدح عبر عصورها المختلفة، ولذلك (جاء إصرار الشاعر على أن يجعل كل ممدوحيه مثالا للعقل والشجاعة والعدل والكرم) (2) ولكن الشاعر ابن الدهان الموصلي (ت581هـ) جعل حد سيف الممدوح صلاح الدين الأيوبي هو الهلاك بعينه والفارق ما بين جماجم الأعداء وأعناقهم وإن رضاه الحياة وسطوته الموت يقول: (3)

فما سل إلا اهلك الشرك حده  
 حياة إذا ترضى حمام إذا سطا  
 ولا سئل الإحسان إلا تهللا  
 قدير إذا يعفو غفيف إذا خلا  
 إذا سيفه في الروح فارق غمده  
 يفرق ما بين الجماجم والطللى

ويستمر في وصف حال الدنيا قبل إقبال الممدوح عليها فهي قبيحة عاطلة وبمحاسن أخلاقه جعلها حسنة مقبولة ومن أمجاده ألبسها حلّى، ربط الشاعر بين الفضل والموت وبين الممدوح الذي عز عليه غياب الأمانى وضياعها يقول: (4)

وقد كانت الدنيا كشوواء عاطل  
 ولولاك مات الفضل هزلا وأصبحت  
 فصرت لها حسنا وصغت لها حلّى  
 رياض الأمانى زاويات وعطلا  
 لعلك راث للفضائل والنهي  
 فتحيي ميتا أو تميت معطلا

(1) كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 512/2.

(2) ديوان الأبله البغدادي: 39، (رسالة ماجستير).

(3) ديوان ابن الدهان: 39.

(4) نفسه: 45، 46.

وتميزت مدائح الشاعر سبط ابن التعاويذي (ت583هـ) بنبرة الشكوى والتنظم وتكرر ذلك بعد غزله في قصائد مدحية وكأنه يعرض الجانب المظلم من الحياة نراه عندما يمدح احد الوزراء يقول: (1)

أرقع عمرا أخلقته بكرها  
عزفت عن الدنيا فما أنا طامح  
الليالي إلى كم يرقع الخلق البالي  
بطرفي إلى وفر عداني ولا قال  
وسيان إكثاري لدي وإقلالي  
وأعرضت عنها غير مكترث لها

وحصر الشاعر الأرزاق والأجال حصرا بيمين ممدوحه وبذلك كسب رضا الله ودينه وناسه قائلاً: (2)

قسمت يمينك في الورى الأرزاق وال  
آمال بين منى وبين منون

والحديث عن الشاعر أسامة بن منقذ (ت584هـ) يجرنا لاستنكار الجو الحربي المملوء بأخبار القتال مع الإفرنج، وتلك البيئة التي أعدت رجالاً متدربين على حمل السلاح، ماهرين في الطعن والرمي، متميزين بكفاءةتهم العالية وجراتهم على اقتحام المخاطر، وها هو ذا يوجز الحياة والموت بأبياته: (3)

جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا  
دماء العدا أشهى من الراح عندنا  
صوارمنا حمر المضارب من دم  
نسير إلى الأعداء والطير فوقنا  
يروون لهم في القتل خلداً، فكيف  
ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمر  
ووقع المواضي فيهم الناي والوتر  
قوائمها من جودنا نضرة خضر  
لها القوت من أعدائنا، ولنا النصر  
باللقاء لقوم قتلهم عندهم عمر

بمثل هذه الروح القتالية وهذه الجودة والحكمة رسم صورة الحياة الجهادية المنزهة عن ملاذ الدنيا، وما الخلود والعمر التليد إلا في ضرب الخصوم ومحققهم وانتزاع الحق

(1) ديوان سبط ابن التعاويذي: 364.

(2) نفسه: 422.

(3) ديوان أسامة بن منقذ: 203، 201.

الشاعر بطل من أبطال الإسلام<sup>(1)</sup> وقد تحدث عن فروسيته وشجاعته، إلا أنه في قصيدته تلك لا يتحدث عن بطولة فردية وإنما البطل فيها هو "الجماعة" لأنها تتحدث بنون الجمع "جعلنا، همنا، اشتغالنا 000 صوارمنا 000 ونلمح في الأبيات الصورة المألوفة في أدبنا العربي، صورة الطير المحلق فوق جيشه السائر إلى ميدان القتال 0 ويكرر القاضي الفاضل (ت 596هـ) تلك الصورة وذلك المعنى حيث يقول:<sup>(2)</sup>

يلاقيهم بالسيف والطير طاعما      فهم منهما بين الردى والمقابر  
يقول لنا درا ويندى سماحة      فما البحر الابين كف وخاطر

وازن بين الكف والخاطر، فالأول بحر يندى سماحة مثله، والثاني بحر يفيض بالدر على لسانه. وجمال خاطر القاضي الفاضل ليرسم لنا صورة لعروس المنايا وهي حاسرة الرأس وعلى خدها حمرة الحياء يقول:<sup>(3)</sup>

تلقى عروس المنايا، وهي حاسرة      وخدها فيه من فيض الدما خفر  
والضرب بالببيض من آثاره عكن      والظعن بالسمر من آثاره سرر

ومن الملاحظ أن شعر القاضي الفاضل لم يتحدث إلا قليلا عن الحروب الصليبية وعل ذلك احد الباحثين بقوله (ربما تحدث عنها فيما ضاع من شعره، أو اشبع رغبته منها فيما كتبه من رسائل 000)<sup>(4)</sup> ولاحظنا مدحه لأبناء أيوب جملة حتى أن غضبهم لا يمنع نداهم، وهم شاربون لكؤوس المنية مملؤة ورماحهم تعلوها دماء الأعداء وفوقها الحبيب يقول:<sup>(5)</sup>

الشاربون كؤوس الموت مترعة      وللأسنة في حافاتنا حبيب

(1) ينظر: دراسات في الأدب العربي في العصر الأيوبي.

(2) ديوان القاضي الفاضل: 236/1.

(3) نفسه: 222/1.

(4) نفسه: 1/المقدمة (د).

(5) نفسه: 163/1.

والمضرمون لنار الحرب ليس لها  
اطلب على كل حال منهم، وإذا  
القوم هم واصلو الأرحام دهرهم  
إلا الرماح وأضلاع العدا حطب  
كانوا غضابا فلا يثني الندى الغضب  
وبين أموالهم والمعني نسب

ولا يخفى أن القاضي الفاضل و عماد الدين الاصبهاني (ت 597هـ) كانا أكثر  
من شاعرين في عهد دولة بني أيوب وهذا ما دعا الدكتور ناظم رشيد إلى القول:  
(ولكن المديح يختلف عندما يصبح الشاعر صاحباً ورفيقاً للممدوح في حله  
وترحاله)<sup>(1)</sup> ولعل مخاطبة عماد الدين الاصبهاني لصلاح الدين الأيوبي مهناً بفتح  
القدس سنة 583هـ مستهلاً قصيدته بمقدمة غزلية رقيقة تمس شغاف القلوب تنم  
أبياتها عن حنين كأنها تخاطب السلطان فعلا يقول:<sup>(2)</sup>

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا  
وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا

حتى يصل ذروة قوله:<sup>(3)</sup>

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا  
وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر  
واشرف من أضحى وأكرم من أمسى  
ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا

نقد أكد النقاد العرب أن ما يمدح به الخلفاء غير ما يمدح به الوزراء أو  
الأمرء وغير ما يمدح به الآخرون من شرائح المجتمع<sup>(4)</sup>، وقوله في السلطان لم  
يتجاوز الحد المعقول في الثناء قياساً بقول: الأبله البغدادي (ت 579هـ) في مدح  
ال خليفة الناصر لدين الله:<sup>(5)</sup>

بك تفخر الدنيا وأنت نعيمها  
والدهر أنت وجندك الأيام

(1) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 17.

(2) نفسه: 230.

(3) نفسه: 231.

(4) ينظر: نقد الشعر: 82-85.

(5) ديوان الأبله البغدادي: 564، 392، (رسالة ماجستير).

وروي عن الإمام علي عليه السلام: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "انزلوا الناس منازلهم" <sup>(1)</sup> صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد قصد منازلهم أي أقدارهم ومكانتهم في المجتمع وإخلاصهم لدينهم ودنياهم.

ويستمر عماد الدين الاصبهاني في نقل صورة الواقعة التي ارتجت بها الأرض وحل الدمار فكانت بطون الذئاب قبورا للأعداء بعد أن أبت الأرض "الأم" أن تكون مدفنا لأعداء الله ورسوله يقول: <sup>(2)</sup>

بواقعة رجت بها الأرض جيشهم  
دمارا كما بست جبالهم بسا  
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم  
ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا

وافتح الشاعر ابن الساعاتي (ت 604هـ) مدحه في صلاح الدين سنة (583هـ) في فتح القدس قائلا: <sup>(3)</sup>

جلت عزماتك الفتح المبينا  
فقد قرت عيون المسلمينا

فرح الشاعر بهذا الفتح المبين وغلبته فرحته فتراقصت تشبيهاته وخيالاته حتى رسم لنا صورة لصياح الأعداء وصورة لنهايتهم فنراه يقول: <sup>(4)</sup>

جعلت صباح أهلكها ظلما  
لبيضك في جماجمهم غداء  
وأبدلت الزئير بها أنينا  
لذيذ علم الطير الحنينا

كنى عن البؤس والشقاء الذي حل بالأعداء فغدا صباحهم ظلما دامسا، وصراخهم انقلب أنينا خافتا بسبب القهر الذي لحقهم وجاءت مطابقتها متلائمة واقعية تخلو من التكلف أو الضعف وحسن اختيار الشاعر للصورة المعبرة في البيت الثاني عن كثرة القتلى فسيوف صلاح الدين تضرب أعناق المشركين، ولتلك الضربات صوت جعله الشاعر (غناء) ليدل على عمق الفرح النفسي لتلك الضربات ووصفه

(1) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 29/1.

(2) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 234.

(3) ديوان ابن الساعاتي: 2/ 406 وما بعدها.

(4) نفسه.

بـ(لذيذ) لتشد من أزر فرحة النصر، والطيور تحنو لتلك النغمات السريعة المتتالية المستمرة، فتهجر الأعشاش والفضاء لتملاً بطونها من جثث القتلى وعلى أنغام تلك الموسيقى المفرحة<sup>0</sup>

وتكاد مقطوعات الافتخار بالنفس تطغى على قصائد المديح كثيرا لدى شعراء عهد بني أيوب، وتقابلها نغمة السؤال والاستجداء من طرفها الآخر، ويكاد ذلك يكون من سمات الشعر في ذلك الحين<sup>0</sup> ولا سيما مديح الشاعر ابن سناء الملك (ت604هـ) للأيوبيين وللوزراء والقضاة وغيرهم إذ جاء على وتيرة واحدة تقريبا سواء أكان بالألفاظ أم في المعاني، حتى يبدو لنا خلوه من الفطرة الذاتية للثناء والاستحسان إذا صح لنا التعبير فلنسمع إليه يصف بطولة صلاح الدين وكرمه:<sup>(1)</sup>

ولم يكفه أن اخجل البيض بالدماء	إلى أن أرانا جوده اخجل المزنا
ولما رأوه أدبروا حين عاينوا	أعنة خيل لا تعود ولا تتنى
وقد وقفوا لكن لأسر رقابهم	وقطف رؤوس منهم أن أن تجنى

الآبيات ينبعث منها ضجيج الحرب وصخبها، فرار و إقبال وحوافر الخيل، وقطف الرؤوس بالسيوف بادية للعيان وربما تأثر الشاعر بخطبة الحجاج الشهيرة عندما قال: (أرى رؤوسا قد أينعت وحنان قطافها 000)<sup>(2)</sup> ولعل كلمة (جز) الرؤوس انصب وأقوى في دلالة المعنى<sup>0</sup>

احتل البطل صلاح الدين الأيوبي الذي بهر الشعراء جميعا الدرجة العليا في المديح والإعجاب، وهزت مواقفه نفوسهم وشغلت بطولاته وفتوحاته حياتهم اليومية حتى أن ابن سناء الملك في أكثر من قصيدة ترك الغزل على غير عادته وصرح بذلك في شعره<sup>(3)</sup> 0 ولابد من إلقاء نظرة على مدحه له في القاضي الفاضل يخاطبه فيها وكأنه خطاب خليفة أو سلطان، يقول:<sup>(4)</sup>

(1) ديوان ابن سناء الملك: 322/2، 323.

(2) الكامل : 381/1.

(1) ينظر: ديوان ابن سناء الملك: 340/2.

(2) نفسه: 18/2، 17.

وكيف يخاف الفقر أو يهرب الردى      فتى من يدي عبد الرحيم اكتسابه  
أرى الدهر بحرا وهو في البحر دره      وكل الورى حصباؤه وحبابه  
وما الدهر إلا خادم أنت ربه      ولا الرزق إلا منزل أنت بابه  
وتبدو صورة الموت باهتة- أحيانا- لدى الشاعر فتیان الشاغوري (ت615هـ)  
من خلال مدائحه ولكن أبياته الاتية تجلت فيها صور تستحق الانتباه إليها، نراه يقول  
مادحا الناصر صلاح الدين:<sup>(1)</sup>

واريتهم لما التقى الجمعان بالبيت	المقدس هول يوم المحشر
فلصخرة البيت المقدسي كفؤها	الحجر المفضل عند أفضل معشر
فكأنه إنسان عين صورة	يلقاك أسوده بمعنى أنور
ولو و عقبان المنون مسفة	والخيل تعثر بالقنا المتكسر
شكت الفيافي ثقل وطء جيوشه	فبناهم رصفا كبسط المرمر
فالخيل لا تمشي بها إلا على	هام منضدة وشعر أشقر

صور ممدوحه وهو يرى الأعداء أهوال يوم القيامة، وجاءت دلالة قوله: التقى الجمعان، وقوله: هول يوم المحشر، وصخرة القدس، والحجر الأسود بتأثير من المعاني القرآنية والشعائر الإسلامية، ثم تلك الموازنة المحببة بين صخرة القدس والحجر الأسود، قريبة من النفس لما لها من منزلة عظيمة لدى المسلمين<sup>0</sup> وختم تلك الصور المثقلة بالتشبيهات بصورة جديدة لخياله ماشية فوق رؤوس الأعداء، التي نضدت فوق الطرقات لكثرتها وتقاربها وجاء ذكر (الشعر الأشقر) كناية عن قتلى الإفرنج الذين يمتازون بشقرة الشعر.

ونحا ابن النبيه المصري (ت619هـ) منحى تتضح فيه معالم التفاعل الديني، مستمدا معانيه من الموروث الديني الذي يشيد ويثني على أداء الممدوح فإن مدينة "دمياط" هي الطور والممدوح الملك الأشرف موسى بن أبي بكر الذي شبهه بالنبي موسى عليه السلام ويوم الحرب هو الميقات ويعقب على ممدوحه أمرا بالصبر وان لكل امرئ ما نوى، ونية الممدوح اثلجت صدر الرسول الكريم محمد صلى الله عليه

<sup>(3)</sup> ديوان فتیان الشاغوري: 143-145.

وسلم، فقد تكشفت غمومات الحرب عن وجه الدين وصلحت حال الدنيا، كل هذه المعاني نجدها في مدحه للملك الأشرف موسى بن أبي بكر العادل قائلاً: (1)

صنائف كتبت فيها المنيات	صفائح هي إذ دب الفرند بها
وأنت موسى وهذا اليوم ميقات	دمياط طور ونار الحرب موقدة
واصبر وربط فلأعمال نيات	أنت الصباح فمزق ليل كفرهم
عن سرحة الدين والدنيا غمومات	أثلجت صدر رسول الله وانكشفت

والقصد من الاستشهاد بهذه المدحة، بعدها عما ورد في شعره من غلو (2) وصدق موازنتها بين المعاني الدينية والدنيوية في الحرب، والبيت الثالث فيه اقتباس من قوله صلى الله عليه وسلم ( إنما الأعمال بالنيات (3) )

وتترأى لنا انطلاقة الشاعر راجح بن إسماعيل الحلبي (ت 627هـ) من دنياه التي شفها الشوق والوجيب إلى أفضل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الذي قصده الدنيا خاطبة عدله بعد أن جار ملوك الأرض 100! وتزاحمت خطوبهم على الناس يقول: (4)

فأرى الدنيا إلى فضلك قد	شفها فرط اشتياق ووجيب
خطبت عدلك إذ عمت بها	من ملوك الأرض بالجور خطوب

وله في قصيدة أخرى يدعو لممدوحه بدوام الدنيا (5) ولا يخفى علينا أن دوامها له يعني استمرار العطاء والنوال للشاعر أيضا ولا نفوت فرصة القول إن شعراء عهد بني أيوب كغيرهم من شعراء العربية دأبوا على جعل ممدوحهم فوق الأقدار يتحكمون بها يقول راجح الحلبي: (6)

وهي المقادير قد جاءتك مقبلة	فمر تطعك وسل ما شئتة تجب
-----------------------------	--------------------------

(1) ديوان ابن النبيه المصري: 356-359.

(2) نفسه: 83، 86.

(3) صحيح مسلم: 1515/3.

(4) ينظر: ديوان راجح الحلبي: 153.

(1) ينظر: ديوان راجح الحلبي: 154.

(2) نفسه: 162.

وهذه المبالغة والإغراق في تقديس الممدوح وجعله في مقام عال تارة<sup>(1)</sup>،  
 وخلق صفات الأنبياء عليه تارة أخرى<sup>(2)</sup>، تعزى لأسباب سياسية دنيوية بحتة، ناهيك  
 ما للعصر وفلسفته وظروفه من تأثير مباشر أيضا 0

ولحاجة في نفس يعقوب قضاها، فإن الشعراء غالبا ما يجمعون بين كرم  
 الممدوح وبطولته التي تنزل الموت بالأعداء وكأنهم ربطوا الثناء والمديح بالعتاء،  
 ووهبوا للممدوح ثناءهم برضى أو بغيره ولكنهم يسعون وراء هدف مادي معروف  
 للممدوح قبل المادح وبذلك يصرح الشاعر ابن دنينير (ت 627هـ) بقوله:<sup>(3)</sup>  
 فإذا بدت لك نار موسى فأستعد      أبدا بظل رواقه الممدود  
 سحب المنى بيض لديه وطالما      تزجي بسحب للمنية سود  
 يعطي ولو سئل الحياة أو الحيا      أتيا لمن يعفوه غير بعيد

وفي أبياته نظر الشاعر إلى قوله تعالى ﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً﴾<sup>(4)</sup>  
 ولنتأمل قوله في مدح الملك الكامل محمد بن أبي بكر العادل في وقعة دمياط<sup>(5)</sup>  
 أطيعوا مليكا يشتري الحمد بالندى      ويرقد في جفن الردى وهو أرمد  
 ضمّن الشاعر ابن دنينير جزءا من معنى عجز بيت المتنبى في مدح سيف الدولة  
 يقول فيه:<sup>(6)</sup>

وقفت وما في الموت شك لواقف      كأنك في جفن الردى وهو نائم

لأشك في أن مديح (المخاطب) اشد تأثيرا في النفس من مدح الممدوح  
 بضمير الغائب، مع علمنا بمناسبة مدحة ابن دنينير (تقاعد الملوك عن نصره الملك  
 الكامل ثم نجدته من قبل أخوته...)، فهو يأمرهم بطاعته، ولكنه جعل ممدوحه يرقد

(3) ينظر: ديوان ابن نبيه المصري: 83 - 129.

(4) ينظر: ديوان فتيان الشاغوري: 52.

(5) ديوان ابن دنينير اللخمي: 231 ، 232 ، 240 ، (رسالة دكتوراه).

(6) طه: 9، 10.

(7) ديوان ابن دنينير اللخمي: 189، (رسالة دكتوراه).

(1) كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 404/2.

في جفن الردى وهو أرمـد... فما الدلالة الجمالية في وصف جفن الردى بالرمـد وهو اشد أمراض العين ألما وفتكا بها...! وجفن الردى كناية عن اقرب المواضع خطرا منه وأشدها اشتمالا على الممدوح، وممدوح المتنبى كان الردى نائما (والنوم سلطان)، فلم يبصره فسلم منه، وممدوح ابن دنينير (رداه) أرمـد، فلم يبصره فسلم من الموت، أيضا.

ومهما كانت فكرة الشاعر التي عبر عنها بمثل تلك الألفاظ، فان النقاد القدامى قد التفتوا إلى الجمال، وعابوا على بعض الشعراء صورهم، وعابوا أيضا أن يواجه الممدوح بهذه الصور وهذا دليل واضح لفكرتهم عن التقويم الجمالي والخلقي<sup>(1)</sup>

ويلطف القول في حق الملك بهرام شاه (ت 628هـ)، احد أبطال الحروب الصليبية، ومواقفه مشرفة في صد الإفرنج عن بلاد الشام ومصر، ولبطولته تلك ولمواقفه القتالية، خلده الشعراء ممن عاصروه، منها على سبيل المثال لا الحصر قول الشاعر ابن عنين في قصيدة طويلة:<sup>(2)</sup>

تمضي المنايا بما شاءت اسنته	إذا القنا بين فرسان الوغى اشتجرا
تكاد تخفي النجوم الزهر أنفسها	خوفا ويشرق بهرام، إذا ذكرا

أما صورته (الملك الأمجد) وهو مادح فبدت في وصفه حماسة أصحابه الأقوياء، وشجاعتهم في مقارعة العدو وتكررت هذه الصورة في شعره، يقول:<sup>(3)</sup>

وانجاد حرب ما بدت جبهاتهم	من النقع إلا وهي كالأنجم الزهر
يخوضونها والخيـل شهب فتنتني	من الطعن في زهو بألوانها الشقر

وتكاد دواوين شعراء بني أيوب، لا تخلو من التركيز على خطب أو عارض يكتنف حياة شاعر ما، فيشكل ذلك الخطب أو العارض، موقفا يحدد مسيرة حياته، ويلون نغماته بألوان الألم واللهفة، ويحرك وجدانه نحو هدف لا يكل من المطالبة به،

(2) ينظر: النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري: 331.

(3) ديوان ابن عنين: 57.

(1) ديوان الملك الأمجد: 15.

وهذا ما عاناه الشاعر ابن عنين، عندما نفي من دمشق، إذ أصبحت حياته رهينة ذلك الخطب أو العارض، ولهذا جاءت قصائده معبرة عن نفسيته ابلغ تعبير وقد بلغ بها الذروة وتصرف في كل مقطع من مقاطعها تصرف الشاعر المطبوع الحاذق البصير، طبعها بالرقعة في وصف لوعته وحنينه إلى وطنه ومنها قوله: (1)

وقلب عن الأشواق ليس يحول	حنين إلى الأوطان ليس يزول
قفول تهادى أثرهن مقفول	أبيت وأسراب النجوم كأنها
فليس له فجر إليه يؤول	فيالك من ليل ناي عنه صبحه

وللفلاسفة رأي في هكذا حنين فيقول احدهم: فطرة الرجل معجونة بحب الوطن، ولذلك يقول بقراط: يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فان الطبيعة تتطلع لهوائها، وتنزع إلى غذائها<sup>(2)</sup>... وإذا تناسينا أسباب نفيه فقد تمكنت شاعريته من دخول قلب الملك العادل محمد بن أبي بكر فاستجاب له، فقال مستهلا قصيدة له وقد ترقق فيها: (3)

وماذا على طيف الأحبة لو سرى	وعليهم لو سامحوني بالكرى
وحققت قصيدته تلك، حلم حياته في العودة إلى دمشق بعد أن لان قلب الملك العادل، نلاحظه يقول: (4)	

هبني اسات كما تقول وافترى	واتيت حبيك أمرا منكرا
ما بعد بعدك والصدود عقوبة	يا هاجري قد أن لي أن تغفرا
ما مدحه بالمستعار له ولا	آيات سؤدده حديث يفترى
بين الملوك الغابرين وبينه	في الفضل ما بين الثريا والنرى

(2) ديوان ابن عنين: 68-69.

(3) ينظر: الحنين إلى الأوطان: 8.

(4) ديوان ابن عنين: 3.

(1) ديوان ابن عنين: 6، 3.

وربما راقبت هذه الأشعار المدحية بعضا منا، ويخيل إلينا لو فكرنا بأثرها النفسي والاجتماعي في حينها لدى المادح والممدوح تبعا لمناسبتها وظرفها، لمال الرأي إلى استحسانها<sup>0</sup> وقلما يتناسى الشعراء الرغد والعطاء في مدحهم، وعندما يطغى هدف المناسبة على كل الحوافز الأخرى، عندها تكون المدحة للمدح فقط وهذا ما نراه عند بهاء الدين زهير (ت 656هـ)، حين هزت معركة دمياط مشاعره الدينية والهبت احساساته ، قال مادحا الملك الكامل محمد بن أبي بكر العادل:<sup>(1)</sup>

بك اهتز عطف الدين في حل النصر      وردت على أعقابها ملة الكفر  
وليلة غزو للعدو كأنها      بكثرة من أرديته ليلة النحر

الليتان مقدستان، ليلة الغزو وليلة النحر، والتقدّيس هنا تقدّيس الجهاد، وتقديس الفرخ بليلة نحر الأضحية، وشتان بين المشاعر الإسلامية التي تعمل في نفوس المقاتلين وبين مشاعر الخيبة والخسائر للعدو<sup>0</sup>

وبات هاجس الوديعه محور حياة الملك الناصر داود بن عيسى (ت 656هـ)، فقد استنفد كل قدراته لإعادة تلك الوديعه من الخليفة العباسي، وكان المديح احد المنافذ التي طرقها، والاستشفاع بالرسول الكريم ﷺ، حتى كادت أسفاره للحج وللعراق تودي بحياته يقول:<sup>(2)</sup>

وجف مزاد القوم فهي اشنة      وخف لورد الموت كف ومعصم  
ووسع ميدان المنايا لخيله      فضاق مجال الريق والتحم الفم  
فوحش الرزايا للرزية حضر      وطير المنايا بالمنية حوم  
فلما تبدت كربلا وتبينت      قباب بها السبط الزكي المكرم  
أنخت ركابي حيث أيقنت أنني      بباب أمير المؤمنين مخيم  
فصن ماء وجهي عن سواك فانه      مصون، مصوناه الحيا والتكرم

(2) ديوان بهاء الدين زهير: 121.

(1) الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية: 233، 234.

الأبيات تفصح عن حالة نفسية متردية يعيشها الشاعر، بسبب الخطب الذي عاناه من فقدان وديعته، وتكرر الأهل والقوم والأخوان له، إذ الموت يرافقه في سفره، موت الآمال وتبدد الوعود، والمشقة وانقطاع أسباب الحياة في هذا السفر الطويل<sup>0</sup>

ومن خلال هموم الشاعر الشخصية، يرصد شرف الدين الأنصاري (ت 662هـ) حياة ممدوحيه في حربهم وسلمهم، وترحمهم ومرحهم وعافيتهم ... مترقبا، ومتحسسا مشاعرهم، وأبياته المختارة تثير الدهشة في أسلوبها وفكرتها، قالها بعد أن تعرض الملك الناصر إلى أزمة صحية مع حلول شهر الصوم، يقول له:<sup>(1)</sup>

حييت فينا حياة الخضر مغتبطا      كما بملك قرين الخضر حييتا  
لديك عشنا كما شئنا فدمت لنا      وعشت في سابغ النعمى كما شئنا

ممدوحه يحيا حياة الخضر عليه السلام وبملك صاحبه النبي موسى عليه السلام يحيا، وقوله (عشنا كما شئنا)، إشارة إلى حرية العيش كما يشاءون لا كما يشاء الممدوح، في حين يعيش هو في النعمة كما يشاء، فكيف يمكن تصور نمط تلك الحياة التي يصفها الشاعر؟ مع العلم انه وزيرهم وشاعرهم المفضل في مملكة حماة الأيوبية. ألا يتضارب هذا مع آراء بعض الشعراء في التحسس من القرب من السلاطين والملوك؟ إن من يصاحب السلطان أو الملك يكون حذرا لأنه لا يفكر حرا، وإنما يفكر بعقل السلطان، ولكثرة خوفه من الوقوع في الخطأ يصاب رواؤه بالخمود ونظره بالكلال، فهو يتمعن رؤية وجه السلطان لمعرفة ما يرضيه وما يغضبه، كل ذلك عبر عنه القاضي الفاضل بقوله:<sup>(2)</sup>

ما خادم السلطان إلا عرضة      من فيض وأبله ولفظ وباله  
والهم يطرقه لدى غدواته      والهم يصلية لدى آصاله  
يعزى إلى التزويق في إكثاره      ويزن بالتكذيب في إقلاله

(2) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: 101-104.

(1) ديوان القاضي الفاضل: 278/1-279.

ونعود لنتأمل تلك المدحة لشرف الدين الانصاري حيث يقول: (1)

تأمل شوائب عصر الشباب	وخف من عواقبها ما أمنتا
جعلت البطالة شغلا لديك	تقضي بها الدهر وقتا فوقتا
إذا قلت: صاف الحيا، قلت : قد	وان قيل: ناف الدنا، قلت: حتى
وهبك تركت زمان الحياة	فأين المفر؟ إذا أنت متا؟
وكيف الفرار إذا ما الجبال	نسفن فلم تر فيهن أمتا؟

وبعد الإطالة في النظر للأبيات، نجد الروح المدحية- إذا جاز لنا التعبير - قد اختفت، وحل الوعظ مكانها، وأضفت لفظة (البطالة) رؤية غير واضحة، غير محددة، فهي من البطالة أي التعطيل أو من بطل (صار شجاعا)، والمعنى الأول أقرب لانسق الكلمات في البيت، فقد سبقها بقوله (تأمل، شوائب عصر الشباب، خف، عواقب،... ) كل هذه الألفاظ بمعانيها لا تناسب الشجاعة، وقوله (البطالة شغلا) مما جعلها ترمي إلى معنى إضاعة الوقت وتفويته<sup>0</sup> وأبياته الأخيرة استمد معانيها من الآيات الكريمة من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نَسَفْتَ﴾ (2) وقوله ﴿عَجَلًا﴾: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (3) ولم يفت الشاعر استخدام حروف النحو لإظهار أسلوبه الذي عرف عنه.

### الحياة والموت في شعر الجهاد

إنطلاقاً من أن الحياة الصحيحة في نظر المؤمن محبة الله تعالى وجهاد في سبيله، آثرنا الوقوف أمام صور الحياة والموت في شعر الجهاد، مستلهمين الحكمة الإنسانية من الحياة والموت، فكما ينبغي أن يحيا الإنسان حياة صالحة، ينبغي عليه أن يموت موتاً صالحاً أيضاً، وسنقصر الحديث على أمثلة شعرية تجلّى الجهاد - من وجهة نظرنا - فيها، وقد تحدد شعر الجهاد بالدعوة والحث

(2) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: 101-104.

(1) المرسلات: 10.

(2) طه: 107.

عليه، ووصف المعارك وصفا حيا كما وقعت أمامهم، أو كانوا قريبين منها، تؤثر فيهم أحداثها ونتائجها<sup>0</sup>

والتاريخ الأدبي يعيد نفسه، وكما سفه الخليفة المعتصم بالله أراء المنجمين<sup>(1)</sup> والعرافين مصمما أن الحكم الفاصل والأخير للقوة، فحد السيف هو الذي يحسم الأمور لا النظر في بطون الكتب، وبهذا المعنى بقيت قصيدة أبي تمام شامخة وفكرته عالية سامية إذ يقول في مطلعها:<sup>(2)</sup>

السيف اصدق أنباء من الكتب  
في حده الحد بين الجد واللعب

والاستدلال بالنجوم على ما يحدث فوق الأرض كان شائعا في عهد شعراء بني أيوب، وبهذا الصدد ينوه القاضي الفاضل مؤكدا أن السيوف هي التي يتم بها تحقيق الأعمال العظيمة:<sup>(3)</sup>

ويطلع في سحب العجاج كواكبا  
لها الفعل لا للثاقبات الطوالع

وحق للمسلمين التفاخر بالسيوف ومتقليديها، فقد روي عن سعيد بن جبير (رحمه الله) في قول الله تعالى: ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾<sup>(4)</sup>، قال: (هم الشهداء، متقلدو السيوف حول العرش)<sup>(5)</sup> 0  
لله ما أروع هذا الوصف واجل هذا المقام وأكرمه !! 0

وأسمى وصف للجهد والمجاهدين قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة..﴾<sup>(6)</sup>، وجسد القاضي الفاضل أيضا صورة الجهاد مستمدا بليغ المعاني من الآية الكريمة السابقة، راسما للجهد صورة سامية عظيمة حيث يقول:<sup>(7)</sup>

(3) ينظر: البصائر و الذخائر م/472.

(4) ديوان أبي تمام: 14.

(5) ديوان القاضي الفاضل: 1/253.

(1) الزمر: 68.

(2) مجمع البيان في تفسير القرآن: م/508/8، لباب الآداب: 157.

(3) التوبة: 111.

(4) ديوان القاضي الفاضل: 1/255.

اشترى الله من أناس، فباعوا  
هو قواهم على ما رآهم  
والجهاد الطريق حقا إليه  
إنما هذه الحياة متاع  
فصلوا أمره بخير جواب  
ودعاهم إلى الهدى، فأطاعوا  
أهله من جهاده، فاستطاعوا  
درجات لم يسلكوها، فضاعوا  
ثم تفنى حياتنا والمتاع  
فانقطع الجواب عنه انقطاع

وهكذا كانت استجابتهم خير ما فعلوه، فقد دعاهم سبحانه وهم أهل لتلك الدعوة

### الكرامة<sup>0</sup>

إن شعراء الجهاد اقتبسوا من بعض الشعراء المتقدمين كالمتنبي وأبي تمام وغيرهما عن طريق محاولة المحاكاة والاحتذاء ولكنهم لم يجعلوا قصائدهم معارضة واضحة، لأننا نعلم أن من شروط المعارضة أن يتفق المحدث مع القديم في الوزن والقافية والروي<sup>(1)</sup> ومع ذلك احتذوا أقوال سابقهم، واقتدوا بهم<sup>(2)</sup>.

يقول الشاعر سعادة بن عبد الله الحمصي الشاعر الضرير مادحا صلاح الدين:<sup>(3)</sup>

تعودت ضرب السيف والطعن بالقنا وكل امرئ مغرى بما قد تعودا

ويبدو الاقتباس واضحا من شعر أبي الطيب المتنبي في قوله:<sup>(4)</sup>

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

لقد حبا الله سبحانه الشاعر سعادة الضرير بصيرة نافذة وقلب مرهف بحب الجهاد وأهله، وجدير بنا الإطلاع على قصيدته الجهادية الطويلة، ويطالعنا حسن التخلص فيها، فقد جاء رقرا يفيض رقة وعذوبة من الوصف إلى المديح، وما أن وصل إلى سيوفه حملنا معه لنخوض غمار ملحمة إستشهادية، أينما نولي وجهنا، تتراصف أمامنا الجحافل والأبطال الشجعان والموت الزؤام:<sup>(5)</sup>

(5) ينظر: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام: 215.

(1) ينظر: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية: 285.

(2) الروضتين في أخبار الدولتين: 12/2 .

(3) كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 384/2.

(4) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام: 408/1 ، 409.

وتضاحكت أفواهاها بمباسم	تروي قراشفها صدى ظمأنها
بمروق صاف كأن زلاله	متدفق من راحتي سلطانها
تلك السيوف المرهفات بكفه	أمضى على الأيام من حدثانها
وإذا جحافله أثرن سحائبها	لمعت بروق النصر في أحضانها
من كل شهباء الحديد كأنما	الأمواج مائجة على شجعانها
وكتيبة كم قد كتبن لها الطبي	كتبا يلوح العز من عنوانها
وإذا ذوايله هزرن رايتها	والموت مشتمل على خرصانها

غدا الشعر ترجمانا قويا لما كان يضطرب به ذلك العصر من وقائع وأحداث،  
وان في مواكبة القصائد لأحداث عصرها، وجعلها من القوافي مرايا لما حولها، كل  
ذلك وهب الشعر سمة الحياة وطابع الصدق<sup>0</sup>

ومن البديهي أن طبع الحر يأنف الذل والهوان، والمجد لا يدرك بالأمانى  
والوعود، وطيب العيش لا يتوفر إلا بالعزة والكرامة والدفاع عن الزمام،  
يقول الشاعر بهاء الدين اسعد بن يحيى السنجاري في أبياته الجهادية قائلاً:<sup>(1)</sup>

المجد يدرك بالعسالة الذبل	والمشرقية، لا بالوعد والأمل
ما لذة العيش الاصوت معمعة	ينال فيها المنى بالبيض والاسل
اعزم ولا تترك الدنيا بلا ملك	وجد، فالملك محتاج إلى رجل
وابرز إلى الموت يوم الروح مدرعا	قلبا، إذا زالت الأفلاك لم يزل

ومما استرعى انتباهنا قول الشاعر (الملك محتاج إلى رجل) وقلما يمدح  
الشعراء ممدوحهم بلفظة (الرجل) ولكننا نراه موقفا في قوله ذاك وعلة هذا التوفيق  
يكمن في سر الرجولة التي جاءت على لسان (حسن بن زيد الانصاري)  
وهو يعزي بمقتول في الحرب (أكرم مصارع الرجال في معارك الأبطال،  
وأفضل مهالك الاجواد فوق سهوات الجياد، ولولا هذه الفضيلة والخلة الجميلة ما انف  
الشجعان من الموت على الفراش، وتهافتت على السيوف تهافت الفراش، ورأت أن

(1) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: 143/3.

فراق النفس برماح الفوارس خير من فراقها في صدور المجالس...<sup>(1)</sup> وفي بيته الشعري الأخير، اختار القلب ليكون درعا للممدوح يوم القتال، والقلب هو الفؤاد وقد يعبر به عن العقل، قال تعالى: ﴿لمن كان له قلب﴾<sup>(2)</sup> أي عقل، وقلب الجيش وسطه، وقلب الممدوح ثابت الجأش، رابط العزيمة وبذلك يمكن القول إن الممدوح في نظر الشاعر رءء الجيش الواقي لقلبه وجناحيه فكان الممدوح هو القوة الذي ينصر جيشه ويدافع عنه<sup>0</sup>

ولن تغفل الساحة الأدبية مسيرة الشعراء الأبطال الذين قاتلوا بسيفهم وشعرهم، منهم الملك الأجل تقي الدين عمر (ت 587هـ) خاض بسيفه عددا من المعارك أكثر من سواه مما حدا بالشاعر عماد الدين الاصبهاني أن يقول فيه بعد وقعة الرملة الخالدة سنة 573هـ التي أبلى فيها البلاء العظيم على الرغم من استشهاد ابنه في ميدانها<sup>(3)</sup>:

اخفت الشرك حتى الذعر منهم      يرى قبل الولادة في الجنين  
ويوم الرملة المرهوب باسا      تركت الشرك منزعج القطين

ويبدو الاقتباس في بيته الأول، فقد اخذ المعنى من قول أبي نواس<sup>(4)</sup> وربما يصل الثناء والمديح بالشاعر إلى أعلى درجات المبالغة، يقول الشاعر نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور<sup>(5)</sup>:

وعليه انزل في الجهاد مفصل      فلذاك يقرؤه بسبعة أحرف  
قوم يخوضون الحمام شجاعة      لا ينظرون إليه من طرف خفي  
إن صبحوا الأعداء في أوطانهم      تركوا ديارهم كقاع صفصف

(2) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء مصر: 79/2.

(3) ق: 37.

(1) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 429.

(2) واخفت أهل الشرك حتى انه      لتخافك النطف التي لم تخلق

(ديوان أبي نواس: 401).

(3) الروضتين في أخبار الدولتين: 103/2.

وتبدو الثقافة واضحة في روح هذه الأبيات وأسلوبها، وليس فيها ذلك التكلف الذي يغلب على شعر العلماء والفقهاء<sup>0</sup> وقد أفاد الشاعر من قراءة القرآن الكريم وربما يشير إلى (نزل القرآن على سبعة أحرف) وكذا تأثره بألفاظ القرآن الكريم (ينظرون من طرف خفي، وقاع صفصف)<sup>(1)</sup>

ابتهاج وجه المجاهد إضاءة إيمانية ودليل الشغف الذي لا يتزعزع حبا في الجهاد وهذا الابتهاج لن يقلل من القيمة الحماسية والبطولية للمجاهدة والشاعر اسعد بن الخطير بن مماتي يصف كفاح صلاح الدين وكيف أصبح هو والجهاد حالة واحدة، والموت رجاءه وأمله، الموت تحت أقدام خيله، وكلما تقدمت هذه الخيول، أسرع الموت في فناء الأعداء يقول:<sup>(2)</sup>

مردى الكتائب بذال الرغائب	فضاح السحائب بر القول والعمل
إذا طوت خيله في السير مرحلة	طوى الردى من عداه مدة الأجل
بكل قرم يلاقي الموت مبتهجا	كأنما الموت ما يرجو من الأمل

وفي البيت الأخير نلمح اقتباسا من بيت أبي الطيب المتنبى في مدح سيف الدولة:<sup>(3)</sup>

تمر بك الأبطال كلى هزيمة	ووجهك وضاح وثرغك باسم
--------------------------	-----------------------

وما أعظم الجهاد وتقوى الله وخشيته يرافقان خطواته، والنصر حليفه، يقول عماد الدين الاصبهاني:<sup>(4)</sup>

رأى النصر في تقوى الإله، وكل من	تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة	أغذ من الأولى مسيرا إلى الأخرى

(4) ينظر: أدب الحروب الصليبية: 139.

(5) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء مصر: 117/1.

(1) كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 404/2.

(2) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 160.

أشار في بيته الأول إلى قوله تعالى ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا...﴾<sup>(1)</sup> وجاءت فكرة (الأخرى) وهي الحياة الآخرة، بعد الموت، وبذلك (أغذ السير) من الدنيا للوصول للأخرى، ولم يكثر الشعراء الحديث عن الحياة بعد الموت وعن الخلود فيها حتى يخيل إلينا أن حياة الحرب والجهاد والبطولة والموت، شغلت أذهانهم عن الحديث عن أمور كثيرة تكتنف حياتهم الدنيوية والدنيوية<sup>0</sup> ومن جميل ما قيل في الجهاد والحث عليه قول أبي عبد الله الحسين بن علي القمي (ت 581هـ):<sup>(2)</sup>

اخيفة الموت اثني النفس عن شرف  
إذا برئت من العلياء والأدب  
لا خير في رجل لم يوه كاهله  
حمل اللواء أمام الجحفل اللجب  
يظن هندية هندا فيلثمه  
فما يزال بليل معرس الضرب

بهذا التساؤل، ينفي عن نفسه الخوف من الموت، بل هو شرف وتفضيل للنفس، فما هي مقامات الرجال إزاء الدين والأرض والعرض، ولم يقل (السيف، الرمح)، كي يداوي رغبته الشديدة في أن يكون مقامه في مقدمة الجيش  
الجرار<sup>0</sup>

أما لثم السيوف والرماح، فأعزاز وإكرام لها، وقد جاء على لسان أكثر من شاعر يقول  
اسعد بن الخطير بن مماتي:<sup>(3)</sup>

يلذ في السلم تقبيل اللمي شغفا  
لحبه في القنا سمر القنا الذبل  
مع فارق ظاهر في رؤى كل شاعر لهذا اللثم، وتشبيهه بما يلائم المعنى واللفظ.  
ولأبي العلاء المعري في هذا المعنى قوله:<sup>(4)</sup>

يقبل الرمح حبا للطعان به  
كأنما هو مجموع من اللعس<sup>(5)</sup>

(3) الطلاق: 2.

(4) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام: 80/3.

(1) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء مصر: 117/1.

(2) شروح سقط الزند: القسم الثاني، قصيدة 692:27.

(3) اللعس: سمرة في الشفتين.

ولا زال السيف يتربع عرش الجهاد، تزينه اكاليل الزهور والغار، وهذا يتفق عليه جميع شعراء بني أيوب، إلا أننا مازلنا نتأمل هذين البيتين لابن سناء الملك في مدح القاضي الفاضل: (1)

فتبا لمن ظن السيوف ككتبه      لقد ظن ظنا فاسد الأصل والوضع  
تشبع هاتيك الطيور وهذه      من الأمن تملأ أنفس الناس بالشبع

ولسنا نفاجأ من تفضيله كتب القاضي الفاضل وقلمه، فقد جاهد بقلمه، وكتبه تشير إلى القلوب الصابرة، وإلى آمال المجاهدين بالنصر، فالسيوف رهينة الجهاد، ورسائله تباشير امن وسلام، وحق لصالح الدين الأيوبي الفخر بجهاد قلم القاضي الفاضل 0

ومن الواضح أن صور شعراء الجهاد، واضحة، بيّنة، سليمة الدلالة على المعنى، قريبة المأخذ، لا غموض في فهمها ودلالاتها، صور عبرت عن الإعجاب موشحة بصدق المعنى وحرارة العاطفة 0

ومن تلك الروح الموغلة في الإيمان والجهاد وضع الأبطال متلازمين، (سيكولوجية) الذين صنعوا الملحمة الإسلامية، فقد كان لهم مثل ديني أعلى وقد ارتضوا طاعة معينة، دون أن يفقدوا شيئاً مع هذا من روحهم الاستقلالية، ذلك لأن تجانسهم جاء من داخل أنفسهم ومن حماسهم، ومن امتثالهم للوازع الديني، وليس من الخوف من أية سلطة 0 كان لكل فرد ناصح يلزمه الاستمسك بالواجب وهذا الناصح هو الدين وفي سبيله كفروا بالثروات (2) 0

هذه صورة الجهاد لديهم، صورة مشرفة، رسمها حصار عكا سنة (585هـ) بحيث كثر الموت في الطائفتين، جعل ذلك الحصار السلطان صلاح الدين يصيح صيحة قوية يكاد ينزع لها قلبه قائلاً:

أقتلاني ومالكا      وأقتلا مالكا معي !

(4) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء مصر: 66/1 (وقد أخل ديوان ابن سناء الملك من هذين البيتين).

(1) ينظر: ابن خلدون فلسفته الاجتماعية: 104.

يريد أنه قد رضي أن يتلف إذا اتلف الله أعداءه والبيت السابق لعبد الله بن الزبير بن العوام<sup>(1)</sup> وقد انشده السلطان متمثلاً، وجاء في الروضتين وصف لردة الفعل تلك (وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الإسلامية)<sup>(2)</sup>.

---

(2) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: 168.

(3) الروضتين في أخبار الدولتين: 180/2.

## 2. البعد الديني :

في حضارتنا الإسلامية كانت العقيدة الدينية هي القاعدة الحضارية والمرجع الأول لموقف الإنسان من الحياة والموت وما يتصل بهذا الموقف من قيم الثقافة وأنماط الحضارة، بالإضافة إلى تأثير الاتجاه النفسي والفكري على حياته<sup>0</sup> إن العقيدة الدينية تخضع الشعراء إلى نظم خاصة وقوانين شاملة لكل ألوان الحياة، إلا أن الشعر ظل يصور حياة الناس بعذوبة ورقة مستوعبا الهموم والآمال، معبرا عما يجيش في صدورهم أو يدور في أفكارهم<sup>0</sup> وكان لابد لشعراء عهد بني أيوب - في مجتمع عقائدي إسلامي - كالمجتمع العباسي - الحديث عن التوحيد والوحي والنبوة وعن الخلق والحياة والموت والبعث والحساب والعقاب والثواب والجنة والنار والجهاد والاستشهاد والبطولة والفروسية والزمان والدهر والحدثان والشباب والشيب والهرم<sup>0</sup> مع ويلات الحروب والفتن والكوارث والمجاعات رسمت الحياة الأيوبية طريقا واضحا أمام الشعراء لإعلاء شأن الدين الإسلامي والحفاظ على مقدساته من الانتهاك والاعتصاف، وظهرت الحاجة الملحة لدور الوعظ الديني في الهداية والتوجيه والإرشاد، حيث أكدها (ﷺ) في قوله «إذا نصحو الله ورسوله»<sup>(1)</sup>، ومما ساعد في ديمومة الحاجة إلى الوعظ الديني طبيعة المجتمع الإسلامي المتأثرة بالنفس الإنسانية من حيث تأملاتها وأفكارها ورغبتها في التحرر من هذه الدنيا من خلال نظرتها الفاحصة للحياة أو مرورها تحت طائلة حياة التجربة الذاتية<sup>0</sup> ومن الممكن أن تكون آيتا الحياة والموت آية واحدة هي (آية الحياة) وما بعد الحياة هدف لها، لان الحياة تتصل بكل الدقائق الكلية والجزئية التي يثيرها الإنسان في هذا الوجود اللامحدود، وقولنا هذا يذكرنا بقول شهير لأحد علماء النفس مفاده (إن هدف الحياة هو الموت)<sup>(2)</sup>، ولا يلام عرقلة الكلبى (ت 567هـ) عندما يصدر أمرا بالتحكي عن الدنيا بكل إكبار ونزاهة، واشترط لذلك أن تكون هي البادئة بتجنب

(1) التوبة: 91.

(2) نظريات الشخصية: 61.

الإنسان، ويؤكد حقيقة قاسية لبني البشر قد لا تروق للكثيرين وهي أن لا فتى يزهد في الدنيا إلا إذا رفضته وأشاحت بنعيمها عنه وبذلك يقول: (1)

جنب عن الدنيا إذا جنبت  
فما ترى فتى زاهدا  
عنك بإكبار وتنزيه  
إن لم تكن قد زهدت فيه

وبرغم ما عرف عن عرقلة الكلبي من ميله إلى الخلاعة والمنادمة في حياته<sup>(2)</sup>، إلا انه يصرح بان الإسلام يمنعه من الانغماس في الاستمتاع بلذائذ الحياة والمتع المحرمة وكأنني به بين رغبتين: المتعة وبين شبيهه وإسلامه وكان صد المتعة هو الفائز في الأخير، يقول: (3)

في وجنتيه جنة وجهنم  
ما رمت ذاك الطبي إلا صدني  
وبمقلتيه صحة وسقام  
عن ساحتيه الشيب والإسلام

ويعبر عمارة اليميني (ت 569هـ) بقلب يقطر ألما ويفكر يتشتت فرقا وغضبا ونفس تواقفة إلى الأمان بعد أن تناولتها الهموم من كل جانب، فالبلاء عظيم وكيف تغفو أجفانه والموت يتوسدها مترصدا له بعد أن حكم عليه بالإعدام فكانت مناجاته قائلة: (4)

هذي مناجاة عبد رق حاسده  
لا يطرق النوم أجفانا لمقلته  
من البلاء الذي أمسى يكابده  
ومقلة الموت من قرب تراصده  
لست الجليد على ما قد بليت به  
إن سبعين قد اشفى على طرف  
فأرحم فلو كنت صخرًا ذاب جامده  
من المنية واختلت قواعده

(1) ديوان عرقلة الكلبي: 107.

(2) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر / شعراء الشام: 178/1.

(3) ديوان عرقلة الكلبي: 94.

(4) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 221.

إن عمارة اليميني ينعى نفسه بأبياته أكثر من مناجاته لربه فقد اختلت قواعده وشعر بعجز تام ملا عليه نفسه، فأراد التخلص من ذلك العجز وإبعاد نفسه من مسؤولية الإصلاح، فقال داعيا ربه بعد أن يئس من الخلق: (1)

يارب هيء لنا من امرنا رشداً      واجعل معونتك الحسنى لنا مدداً  
ولا تكلنا إلى تدبير أنفسنا      فالنفس تعجز عن إصلاح ما فسداً

وفي أبياته يعرض الشاعر أفكاراً تأملها من القرآن الكريم ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من امرنا رشداً﴾ (2) والسنة النبوية الشريفة ﴿اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين﴾ (3). ولطالما تساءل الإنسان منا: كيف ستكون الحال بعد موته؟ ولطالما تخيل أموراً تخص داره وصغاره وممتلكاته المحببة إليه، كل ذلك صورته عمارة اليميني في أبيات تخط أماناً ذلك الحال القاسي ولكنه في خاتمة أبياته تشدد قسوته أكثر من قسوة الحال، كي نتأمل ونفكر وصولاً للعة الأزلية القائلة بان الدنيا عواري، وها هو ذا يتمنى قائلاً: (4)

ليت شعري بعد موتي      من ترى يسكن داري؟  
وكذا ياليت شعري      من لهذي الكتب قار  
فلقد أنفقت فيها      عمر ليلي ونهاري  
يا غريم اليتيم رفقا      باطيفال صغار  
وتحكم كيف ما أحييت      فالدنيا عواري

ولعله متميز عن سواه بهذه الحسرة المتولدة من قلقه الشديد بعد موته: (من سيقراً كتبه التي انفق عمره في كتابتها؟)، ولا ننكر عليه دوافعه الذاتية التي دفعته إلى هذه الأفكار والتأملات التي فاقت إحساسه بالرهبة والخشوع اتجاه الموت إلى ما يمكن أن يحدث بعد موته 0

(1) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 216.

(2) الكهف: 10.

(3) المسند الجامع: م/289 وأيضاً: مجمع الزوائد: 181/10.

(4) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 274.

وعندما يطالعنا ديوان تاج الملوك الأيوبي بوري بن أيوب (ت 579هـ) نصطدم بحقائق - أحيانا تثير الاستغراب - منها أن الشاعر يتمتع بقسط كبير من الثقافة الدينية والتاريخية واللغوية والأدبية والفلسفية، إلا أنه كان صادقا مع نفسه ومع الآخرين فعنده أن الصدق جوهر الحياة وبوجوده يكون حصاد الحياة خصبا ثمينا، وصدقه تجلى في كونه (لا يدعو إلى زهد في دنيا هو يسبح في نعيمها، بل يلفت النظر إلى توقع الشر منها وإعداد العدة لها)<sup>(1)</sup>. فهو ناصح بعدم الركون إلى الدنيا فهي بئس القرار، والزمان إن جاد بشيء فلا دوام لجوده، ودنياك يا صاح تضعك أمام تفكير مستمر لتخلص نفسك بالعبرة حيث تمر لحظات الهناء مسرعة عجلة كالأيام وتطول لحظات الهموم كالسنين، يقول:<sup>(2)</sup>

صاح لا تركزن إلى هذه الدنيا	فان الدنيا بئس القرار
لايغرنك، فالزمان إذا جا	د بشيء فانه يستعار
إن دنياك لو تفكرت فيها	لافتكار ما ينقضي، اعتبار
فليالي الهموم فيها طوال	وليالي السرور فيها قصار

وكما أنّ المستقبل المجهول يعد من أهم البواعث عند الإنسان لاستمرار الحياة، فإن السابقين والأمم السالفة تؤكد لحقيقة حتمية الموت وشموليته حيث أصبحوا مضرباً للأمثال وباتوا عبرة لمن اعتبر وموعظة تقول: الأجدر بالإنسان ألا يتباهى فهذا الموت يحمل ورقة المساواة وربما في سؤال الأيام نجد الجواب كما فعل الأبله البغدادي (ت 579هـ) حين أمر بذلك قائلاً:<sup>(3)</sup>

سل الأيام ما فعلت بكسرى	وقيصر والقصور وساكنيها
أما استدعهم للموت طرا	فلم تدع الحليم ولا السفهيا
دنت نحو الدني بسهم خطب	فاصمته وواجهت الوجيها
أما لو بيعت الدنيا بفلس	أنفت لعاقل أن يشتريها

(1) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 75.

(2) نفسه: 159 وينظر أيضا: 217.

(3) ديوان الأبله البغدادي: 371، 372، (رسالة ماجستير).

وفي بيته الأخير يلوح عزوفه عن الدنيا واستصغاره لها علما أن جل شعره كان مديحا بالمرتبة الأولى وهجاء يليه ثانية، والغرضان كما يبدو من وجهة نظرنا يمتان بصلة وثيقة بالدنيا من قريب أو من بعيد<sup>0</sup>

والدنيا في نظر الشاعر أبي بكر بن احمد بن محمد العيدي اليميني (ت 580هـ) هي غير دنيا الأبله البغدادي، دنيا يرتبط بها ارتباطا روحيا أزليا، دنياه يحتضنها حب يدفع له قلبه طوعا وفي كل زمان ومكان، انه الارتباط بمكة المكرمة والبيت الحرام ومواقفها العظام ويشرب مدينة الرسول (ﷺ).

يقول وقد سبق ابن الفارض بذلك النفس الصوفي:<sup>(1)</sup>

لي بالحجاز غرام لست ادفعه  
ينهزي البرق مكيا تبسمه  
ينقاد قلبي له طوعا ويتبعه  
إذا تراءى حجازيا تطلعه

إن التخلق بأخلاق الإسلام الحنيف واحتذاء سيرة الرسول الكريم (ﷺ) يمكن أن يتحفنا بشعر ديني يحمل سمة أخلاقية، تحدد للإنسان السبيل للعمل الصالح وتلهمه الحكمة الرائعة التي تؤمن له طريق النجاة من المهالك، وما أجمل النصيحة من الشاعر ابن الدهان (ت 581هـ) الذي نظم في كل الأغراض الشعرية عدا الهجاء، فجاءت أبياته سهلة المبنى، بعيدة المرمى إذ يقول ناصحا:<sup>(2)</sup>

حفظ اللسان عن القبيح أمان  
وحياته محمودة بين الورى  
وإذا جنائيات الجوارح عدت  
ولديك فقدان الحياة ورحلة  
يزكو به الإسلام والأيمان  
أن تختلف في شكره الأديان  
فأشدها يجني عليك لسان  
يلقاك فيها القبر والأكفان  
ما في الردى خدع ولا ادهان  
لا تغترر، إن عجلت لك مهلة

(1) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر/قسم الشام: 184/3.

(2) ديوان ابن الدهان: 77، وأيضا 180-181.

وفي البيتين الأخيرين أشاد بقوله (فقدان الحياة) ليثير لدى المتلقي الشعور بالفقد والحرمان والفرق وتقطع الأسباب بين الإنسان وما أقام لنفسه في حياته، وبعد فقدان تبدأ الرحلة الأزلية وأخيرا يحذر ابن الدهان من الحياة والاعتزاز بها مؤكدا إن الموت هو الأقوى، وهو المنتصر 0

وينادي سبط ابن التعاويذي (ت 583هـ) الإنسان المتهاك على الحياة التي دأبت تسخر منه بان قصوره وقلاعه لن تمنعه من الموت ولكنها ستصبح مستقبلا دار لهو ومتعة لورثته، ويوجه اهتمامه إلى غناه في الآخرة، وزاده قائلا: (1)

يا خاطب الدنيا وأحداثها	منه ومن أمثاله ساخره
هيهات أن يدفع عنك الردى	ما شددت من أبنية فاخره
يلهو بها بعدك مستمتع	وفي الثرى أعظمك الناخره

أما أسامة بن منقذ فقد هيا له طول العمر حصادا هائلا من التجارب الشخصية، ونجح في التعبير عنها، فكانت عصارة حياته، نقلها لنا بصدق، مدعمة بما يملك من ثقافة أدبية واسعة، وهبته تفوقا ملحوظا، حيث نأى بشعره عن الهزل والمزاح واطره بالجلال والوقار (2)، وترك الرحيل الدائم أرقا و ألما وغصة في نفسه مما مسح شعره بمسحة من الحزن والأسى ما حمله على العزوف عن الدنيا والزهد فيها بعد أن كان من ملوك البأس والجود قائلا: (3)

وأحسن شيء في الدنا زهد قادر	عليها، فما يصبيه ملك ولا وفر
ولولا سوال الله عن خلقه الذي	رعيناهم حفظا اذا ضمنا الحشر
لملنا عن الدنيا، وقلنا لها: اغربي	لك الهجر منا، ما تمادى بنا العمر
فما خير ملك، أنت عنه محاسب	ومملكة، من بعدها الموت والقبر

(1) ديوان سبط ابن التعاويذي: 213.

(2) ينظر: الحياة الأدبية في عهد الحروب الصليبية بمصر والشام: 177.

(3) ديوان أسامة بن منقذ: 206.

وكان لحوادث الزمان وعبر الأيام اليد الطولي لنظرته الصائبة في الحياة ولكنه كغيره من الشعراء مؤمن بان الناس لأحول لهم ولا قوة اتجاه الموت الذي لا بد من ورود حياضه ويشير إلى النبي داود عليه السلام صاحب القصة المشهورة قائلاً: (1)

ماحيلة الناس؟ وهل من يد	لهم بدفع الموت أو صده؟
ورده لا بد منه، فلم	تتكر ما لا بد من ورده
سهامه لم يستطع ردها	داود بالمحكم من سرده

وقصد النبي داود عليه السلام ودرعه، فهو أول من صنعها وكان قبلها صفائح في جملة الناس (2) وتوالت دعوات أسامة لاستقبال الشدائد والمحن بحسن الصبر وألح في ذلك في متفرقات أبياته ويبدو أن دعوته تلك جاءت لفرط حاجته النفسية الذاتية لتأكيد هذه الصفة النبيلة بسبب أزمته الأسرية ووحده وبذلك يقول آمراً: (3)

اصبر تتل ما ترجيه، وتفضل من جارك شأؤ العلاء سبقا وتبريزا

ومن الملاحظ كثرة الأفكار التأملية المعتمدة على (آيات كريمة أو أقوال مأثورة) في شعر أسامة بن منقذ الوعظي، يقول مثلاً: (4)

لو نطقوا قالوا: التقى خير ما	تزود المرء إلى لحده
فارجع إلى الله، وثق بالذي	وافاك في الصادق من وعده

حيث عرض الشاعر الفكرة الإيمانية العظيمة من قوله تعالى: ﴿وتزودوا فان خير الزاد التقوى﴾ (5)

(1) ديوان أسامة بن منقذ: 279.

(2) ينظر: تفسير الجلالين: 435. سورة الأنبياء آية 79.

(3) ديوان أسامة بن منقذ : 251.

(4) نفسه: 280.

(5) البقرة: 197.

ولا يخفى على من يطلع على ديوانه هذه الكثرة الكاثرة من مقطوعات الوعظ والنصح والزهد، وهذه الأفكار الطريفة المنوعة وللمستزيد منها أن ينظر في صفحات ديوانه<sup>(1)</sup>، حيث لا تفوته هذه الفكرة المثيرة للانتباه مستخدما هذه التشبيهات التي تشد القارئ إليها بعد أن بهرته تأملاته عن الناس والدنيا والموت،  
 القارئ إليها بعد أن بهرته تأملاته عن الناس والدنيا والموت،  
 نجده قائلا:<sup>(2)</sup>  
 الناس كالطير، والدنيا شباكهم وهم بها بين ركاض ومختبط<sup>(3)</sup>  
 والموت قناصهم، يأتي على مهل لهلكهم بين مذبوح ومعتبط<sup>(4)</sup>

وليس من شك في أن (البيئة أثرا كبيرا واضحا في حياة الشعراء وآثارهم، وان للمحن والأحداث التي تغمر حياتهم وتحيط بهم، عملا هائلا شديدا في طبعهم بطابع خاص)<sup>(5)</sup>

ومن ذلك الطابع الخاص أن ينوه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت 587هـ) بأصحاب الملك والسلطان وسعيهم الحثيث إلى المناصب والجاه، فإذا هم واقعون في شرك الأمامي الكاذبة يقول:<sup>(6)</sup>

كل يوم يسعى إلى الملك قوم  
 في ازدياد وعمرهم في انتقاص  
 شرك هذه الأمامي فيالله  
 كم واقع بغير خلاص

إن مقطوعات الوعظ والزهد لا بد أن تقترن بمشاعر الخوف والرجاء، حين تصور نوازع النفس التي تتجاذبها مغريات الإقبال على الحياة والإدبار عنها، ويكاد يتفق شعراء بني أيوب في وصفهم الدنيا بأنها عارية وأهلها أيضا عواري سواء أطل بهم العمر أم قصر، وهذا يمكن أن يكون حكما شاملا ينطبق على شعراء العربية، وبذلك صرح القاضي الفاضل (ت 596هـ) قائلا:<sup>(7)</sup>

(1) ينظر: ديوان أسامة بن منقذ: 281-293.

(2) نفسه: 283.

(3) الخطب: السير على غير هدى.

(4) معتبط: اعتبط الذبيحة، نحرها من غير علة وهي سميحة فتيحة.

(5) الشابي حياته وشعره: 35.

(6) خريدة القصر وجريدة العصر / بداية قسم شعراء الشام: 99.

(7) ديوان القاضي الفاضل: 397/2.

الدار عارية، كما سكانها  
يا صاحب الأيام، حاذر صحبة  
فيها، وان طال اللقاء، عواري  
محذورة الإقبال والإدبار  
يحكون عنه، أطول الأعمار  
فالعمر اقصر ما يكون، وعمرنا

ويعظ القاضي الفاضل الإنسان ناهيا عن فعل المنكرات التي تحزنه وعليه  
بعمل المعروف الذي يسره ويعلي من شأنه يوم الحشر، وعرض فكرته بصورة غير  
مباشرة قائلا: (1)

فلا تحشر بقبرك غير ما قد  
يسرك أن تراه يوم حشر  
الهي، لا تعذبني، فاني  
مقر، والتجاوز عن مقر

فأه من قلة الزاد وطول الطريق، وبعد السفر وعظيم المورد، والناس على الدوام  
بحاجة لمن يذكرهم بان الحياة ظل زائل (وان ساكنها وان طال عمره، وطار  
في الخافقين أمره، لديغ سمها، وصريع سهمها....)(2)، لذا دأب الشعراء على البحث  
عن حقيقة الموت والحياة بعد إشاراتهم بمناقب الميت وتعداد مآثره، ونراهم بعيدين  
عن التأمل الروحي لتلك الحقيقة وتبدو صياغتهم لتلك الفكرة مجرد حديث ذي شجون  
يدور في مجالس الشعراء وهذا ما يبدو في قول عماد الدين الاصبهاني (ت  
597هـ): (3)

نؤمل في دار الفناء بقاءنا  
ونرجو من الدنيا صداقة ما قت  
وما الناس إلا كالغصون، يد الردى  
تقرب منها كل عود لنا حت  
ونحن مع رأي الدكتور ناظم رشيد معلقا على أبياته: (فليس للعماد فضل في  
هذين البيتين سوى تذكير الناس بان الحياة ظل زائل، وإنهم خارجون من الدنيا،  
وذائقون الموت مهما طال بهم العمر)(4).

(2) نفسه: 360/2.

(3) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: 90/9.

(4) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 93.

(1) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 26.

ولن نفشي سرا إذا قلنا أن مراجعتنا الدقيقة لديوان عماد الدين الاصبهاني لم تسعفنا في الوصول إلى انموذج وعظي نصحي ولا حتى زهدي، في حين يعج ديوانه بقصائد متنوعة مطولة (خطابات) لها طابعها الخاص المتولد بتأثير الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، ومن هذا الطابع الخاص ينطلق شعراء العهد الأيوبي في اتجاه شعري يستحبه أكثر من غيره وعله ذلك ميل الطباع والله در القائل (وللناس فيما يعشقون مذاهب)، وكان للمديح حصة الأسد كما يقولون، ولكن شعر الحكمة والموعظة المباشر لم يكن الشعراء سباقين إليه ولا متحمسين له على الرغم من تماسهم المباشر بالحروب وويلاتها وشهائها، وكأننا أمام تجربة ضئيلة، تعاني من (عقم مضمونها الإنساني عندما يغرق الشاعر فيها بالوجدانية التي تنقل همومه الذاتية منفصلة عن المعاناة الإنسانية الرصينة لواقع الأشياء)<sup>(1)</sup>

ومن الإيمان المطلق بوقوع حادثة الموت يعبر الشاعر ابن الساعاتي (ت 604هـ) أن الحياة مفازة وهي إشارة إلى ما يعانيه الشاعر من شعور بالاستحالة واليأس والبؤس والندم، فالحياة صحراء قاحلة مع كل ما فيها من جمال ومتعة ونعم فهو يقول:<sup>(2)</sup>

ولما رأيت الموت بالخلق واقعا      وفي كل يوم لي حبيب أفارق  
تبين لي أن الحياة مفازة      وأيقنت أنني لا محالة لاحق

والشاعر بعد ذلك يتحدث بلسان الجماعة ويعلن كرههم لذكر الموت في حين ينسى أن الإسلام الحنيف أمر بتذكر الموت كما أمر بالاستعداد له، قال رسول الله (ﷺ) ﴿أكثرُوا ذِكْرَ هَادِمِ الذَّاتِ﴾<sup>(3)</sup>، وبعدها ينفي وجود مرجع غير الموت يقول:<sup>(4)</sup>

ونكره ذكر الموت في كل حالة      وليس لنا إلا إلى الموت مرجع  
ونعلي البناء المشمخر وكلنا      إلى جدث ضنك الإقامة نودع  
ومن ذا الذي يدري أوان حمامه      وفي أيما قطر من الأرض يصرع؟

(2) في النقد والأدب: 159/3.

(3) ديوان ابن الساعاتي: 276/1.

(1) سنن ابن ماجه : 1422/2.

(2) ديوان ابن الساعاتي: 282/1.

وما كان أهنا العيش في كل منزل لو إنا بأدنى العيش نرضى ونقنع

وما أشقى حياتنا ونحن نشيد القصور ونجمع الممتلكات ونحرص على سلامتها، وختام شقائنا وتعبنا أن ندفن في حفرة قيست علينا بالأشبار ونلاحظ الاقتباس من آي الذكر الحكيم في البيت الثالث من قوله تعالى ﴿وما تدري نفس بأي ارض تموت﴾<sup>(1)</sup>

ويمكننا أن نتساءل: هل حقا أن الدنيا تساوي بين المحسن والمسيء؟ وان ضحاياها الأغنياء وهنا أغفل الفقراء فيا ترى ألا يشكل الفقراء العدد الأكثر تأذيا في الدنيا، فهم فقدوا المال وعاشوا العوز والحرمان وقهر النفس، ولا هم أنبياء مأمورون بتبليغ رسالات السماء وتحمل مشاق النبوة وبالتالي لهم نصر الله وجنته، وربما لان الفقراء ارتضوا حالهم وكيفوا أنفسهم لتقبل الدنيا، فلا داعي لإشارة إليهم لا من بعيد ولا من قريب<sup>(2)</sup> في هذا المعنى يقول ابن سناء الملك (ت 608هـ):<sup>(2)</sup>

فأف لدنيا تساوي الذي	ن بساحتها أحسنوا أم أساءوا
يعم أذاها فلا الأغنياء	نجوا من أذاها ولا الأنبياء
ونالت كما تشتهي ما تشاء	وما نال خلق بها ما يشاء

والموت لدى ابن سناء (الدواء) الشافي إذا كانت الحياة داء، وهذا معنى معكوس لقوله (ﷺ): ﴿لكل داء دواء إلا السام، قيل وما السام يا رسول الله قال:

الموت﴾<sup>(3)</sup>، فالرسول الكريم جعل الموت داء ولا دواء له حتما<sup>(4)</sup> يقول ابن سناء:<sup>(4)</sup>

وإذا ما الحياة كانت كمثل الدا ء كان الممات مثل الدواء

وفي بيت آخر يرجع إلى عرض حديث الرسول الكريم قائلا:<sup>(5)</sup>

(3) لقمان: 34.

(4) ديوان ابن سناء الملك: 490/2.

(1) شرح الزرقاني: 458/4.

(2) ديوان ابن سناء الملك: 495/2.

(3) نفسه: 534/2.

اعيا دواء الطب في سقمه

والموت داء ماله من دوا

ونراه يدأب على تكرار مثل هذه المعاني كلما دعاه تأمله في الحياة وتصريفها<sup>0</sup> وليس من السهل القول أن شعر الموعظة والحكمة اخذ حيزا شاسعا في هذا العهد الذي نحن بصدد دراسة شعره وحتى أننا لا نستطيع عده صنفا من أصناف الشعر كما جاء في كتاب العمدة<sup>1</sup> والسبب في ذلك - في رأينا - يعود للحروب التي جعلت الشعراء يفقدون الصلة الحميمة بين اللغة والبيئة وواقع النفس، (وما الشعر في الواقع سوى تعبير عن فهم الإنسان للكون وما يتصل به من خلال النفس)<sup>(2)</sup> والكون ملكوت عظيم، وما يتصل به أعجب وأصعب، وعلى الشاعر أن ينقل آيات الكون وصوره وأحداثه نقلا صادقا<sup>0</sup> ومن غير النفس يقوم بأداء هذه المهمة الخطيرة ولكن بأسلوب تأملي روحي، من القلب والى القلب، وبعيد عن أساليب المحادثة والتقرير وقريب من الانفعال والتأثير في السامع<sup>0</sup>

وعندما نفكر بالموت نشعر بالرهبة، ولكننا عندما نقرأ أبيات الشعراء فيه نجده خبرا كله وتختفي مشاعر الرهبة والخوف، ونفكر بالدنيا ونشتط في التفكير ولكننا أمام أبياتهم الشعرية نقف مذهولين بسبب نظام التكرار والتقليد لما قال السابقون من الشعراء<sup>0</sup>

وينطلق النداء جليا على لسان الشاعر فتيان الشاغوري (ت 615هـ)، لعاشق الدنيا فيسمعه درسا قاسيا في التحذير من الدنيا وتتكرر صورة العدالة الربانية للبشر كبارهم وصغارهم، حيث يقول:<sup>(3)</sup>

فيا عاشق الدنيا، النجاء، فإنها	إذا سالمته، غارت، وأظهرت الضعنا
إذا ما رأيت القوم أودى كبارهم	فليس يقيم الله يوما لهم وزنا
ولو رد عن الموت بأس لأزهقت	شفار المواضي أنفسا والقنا اللدنا
ولكنه الموت الذي لا يرد إن	أراد معارا في الأنام، ولا يثنى

(4) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده: 118/1.

(5) في النقد والأدب: 281/3.

(1) ديوان فتیان الشاغوري: 546.

وجاء عجز البيت الثاني مستمداً من قوله تعالى ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾<sup>(1)</sup>

ومن خلال مقطوعات المراثي لابن النبيه المصري (ت 619هـ) تتجلى حكمة الموت مشبهاً الناس بالخيل الجامحة المسرعة نحو الموت ومن يسبق فهو الجواد، والموت ذواق نقاد يختار الصفوة الخيرة من العباد وحياة الانسان امدها قصير ومهما امتدت حياته فهي زائلة كالظل وهذا تشبيه متداول ومعروف يقول:<sup>(2)</sup>

الناس للموت كخيل الطراد	فالسابق السابق منها الجواد
والله لا يدعو إلى داره	إلا من استصلح من ذي العباد
والموت نقاد على كفه	جواهر يختار منها الجياد
والمرء كالظل ولا بد ان	يزول ذاك الظل بعد امتداد
لا تصلح الأرواح إلا إذا	سرى إلى الأجساد هذا الفساد

ونلمح في بيته الشعري الأخير إشارة واضحة إلى الروح والجسد فالمعروف والثابت أن الإنسان خلق من طينة الأرض ومن شتى ألوانها، وهذا الجانب الأول، أما الجانب الثاني فهو روحاني شفاف لا علاقة له بتكوينات الطبيعة، والحياة الأخرى هي فيما وراء الحياة الدنيا، فهي لا تتقبل التكوينات المادية (الجسد) وتركه في المكان الذي اخذ منه (الأرض)، حتى تتمكن الروح من الالتحاق بالحياة الأخرى التي تكون معها متلائمة ومتوائمة، ولكي تتحقق عملية الموت لابد من حصول هذا الانفصال بين الروح والجسد<sup>(3)</sup> وبشكل حتمي لان الإنسان لم يكتب له الخلود على هذه الأرض فالروح تعود إلى السماء لأنها من الله تعالى ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي...﴾<sup>(4)</sup>. والروح عند الشاعر لا تصلح إلا بهذا الانفصال بعد سريان الموت إلى

(2) الكهف: 106.

(3) ديوان ابن النبيه المصري: 104.

(1) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: 140 - 141.

(2) ينظر: تاريخ الفلسفة الغربية: 221.

(3) ص: 72.

الجسد ومن ثم فساده وتفسخه، وتبقى الروح الصالحة لأنها مجهولة الخواص والتكوينات فهي خارجة عن مدركات التفكير الإنساني بدليل قوله تعالى ﴿يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾<sup>(1)</sup> ويتفق الشعراء عامة وشعراء عهد بني أيوب خاصة على تأكيد حتمية الموت والفرق الأبدي، فتبدو أشعارهم تأملات في القدر والحياة والموت<sup>0</sup>

ولابن دنينير (ت 627هـ) أيضا فلسفته التي جمعها في أبياته التي يقول فيها:<sup>(2)</sup>

واعلمن أن لذة العيش أحلا	م منام لزارتك في الدهر زورا
وإنما العمر ملبس مستعار	سيرد الذي غدا مستعيرا
غاية المرء في الحياة ممات	يرقب البعث بعده والنشورا
لا تغرنك الليالي وان أو	لت نعيما جما وملكا كبيرا
سوف يأتي عليك حين من الدهر	ر طويل ولم تكن مذكورا
بينما أنت نطفة ثم خلق	إذ تسوى منها سميعا بصيرا

الشاعر في أبياته لم يترك شاردة ولا واردة إلا وحاول أن تحتل مكانا مناسباً لتكون جديرة ومعبرة عما في خلجات نفسه، فجاءت ألفاظه وكأنها تتقل أخباراً أجيد تسلسلها، وللناقد إيليا حاوي رأي بخصوص الألفاظ والنفس الإنسانية نراه يناسب المقام هنا، يقول (فليست الألفاظ إلا ابنة النفس... إنها تفيض عنها وتتطبع بطابعها)<sup>(3)</sup> ونوه ابن دنينير أن لذة العيش أحلام منام والعمر ثوب مستعار وهدف الإنسان في حياته الموت وهناك البعث والنشور ويبدو اقتباسه من القرآن الكريم واضحاً في قوله (سوف يأتي عليك حين من الدهر) استمدها من قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾<sup>04</sup>

(4) الإسراء: 85.

(5) ديوان ابن دنينير اللخمي: 565-566، (رسالة دكتوراه).

(1) في النقد والأدب: 35/3.

(2) الإنسان: 1-2.

وعندما يفتتن شاعر مثل الملك الأمجد (ت 628هـ) بالوقوف على الأطلال وبالغزل والعذول وبالخمر والفخر بشعره وأصحابه وحماسياته، نجده يشير من خلال وقوفه على الأطلال للعالم بهذا البيت قائلاً: (1)

وعيشا تولى في ذراها زمانه  
وما هذه الدنيا بباق نعيمها

وربما كان هذا كافيا لديه فقد أورد (الزبدة) كما يقولون بان الدنيا فانية زائلة ولا نعيم باقٍ فيها 0 وله بيتان قد نستشف منهما شيئاً من الحكمة والموعظة أو الزهد يقول: (2)

كم يذهب هذا العمر بالخسران  
ما أغفلني فيه وما أنساني  
ضيعت زماني كله في لعب  
يا عمر فهل بعدك عمر ثاني؟

ويطالعنا الشاعر ابن عُنين (ت 630هـ) وهو يحمل طبع الشاعر وفن الصانع ومقدرة اللغوي وتهذيب العالم المثقف بنظرته الصائبة من خلال مرثية لولد صغير قائلاً: (3)

فلقد مضيت وما كسبت خطيئة  
وتركت دار بلية وفساد  
وسكنت دارا ملكها لك خالد  
وتركت دارا ملكها لنفاد

فالدنيا دار بلية وفساد وزوال والآخرة دار الاستقرار والخلود، وأيضا له في الدنيا والردى نظرات استمدها من آي الذكر الحكيم من قوله تعالى ﴿كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ (4)، يقول: (5)

لولا الردى كانت الدنيا لمن سبقا  
الله يبقى ويفنى كل ما خلقا  
يهوى الحياة بنو الدنيا وقد علموا  
أن الحياة عناء دائم وشقا  
ما مر من عمر الإنسان في حزن  
أو في سرور كطيف في الكرى طرقا

(3) ديوان الملك الأمجد: 97.

(4) نفسه: 405.

(5) ديوان ابن عنين: 64 .

(1) الرحمن: 27، 26 .

(2) ديوان ابن عنين: 116 .

ومن العجيب ألا نجد في ديوانه مقطوعات وعظية زهدية بعد أن تاب واعرض عن اللهو وشرب الخمر ومال إلى التقشف والزهد كما يقول الدكتور عمر موسى باشا<sup>(1)</sup> في حين يربى الشاعر ابن الفارض (ت 632هـ) في بيئة علمية دينية وقد روض نفسه على طريقة الصوفية من زهد وعبادة واتصل بمنابع الوحي والإلهام في مكة المكرمة، يصفه الدكتور احمد بدوي قائلًا: (وساعده على الظفر بمحبة الناس ما منحه من جمال الخلقة والخلق، وما سار على السنة الناس من شعره)<sup>(2)</sup>. وحالته هذه مثال شاف لصورة الزاهد الناسك الذي يرتضيه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذ يروى عنه انه نظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت<sup>(3)</sup>، فخفقه بالدرّة، وقال: لا تمت علينا ديننا، أمانك الله<sup>(4)</sup>

وهكذا تربعت شخصية الشاعر ابن الفارض المكان المرموق في عصر طغت فيه موجة الزهد والتصوف، فظهر في شعره الحب الإلهي مع حظ كبير من الرقة، تغذيه المحسنات البديعية، وهاهو يستعير لغة أهل العشق والغرام قائلًا في التائية الصغرى:<sup>(5)</sup>

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتني	فيا حبذا، ذاك الشذا حين هبت
تتيح المنايا إذ تبيح لي المنى	وذاك رخيص منيتي بمنيتي
ولو لم يزرني طيفها نحو مضجعي	قضيت ولم اسطع أراها بمقلتي
فلم أر مثلي عاشقا ذا صباية	ولا مثلها معشوقة ذات بهجة
إلا في سبيل الحب مالي وما عسى	بكم أن ألقى لو دريتم أحبتي

(3) ينظر: الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 306-305.

(4) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر و الشام: 238.

(5) متماوت: من صفة الناسك المرائي.

(6) الكامل: 164/2.

(7) ديوان ابن الفارض: 21، 22.

بدأ تائيته ب نعم، وهي كلمة تأتي في جواب الواجب فكأنه قيل له: اصبا قلبك لأحبتك؟ فقال في جوابه، نعم: بسبب اتصال الصبا بجسمه وهي هنا كناية عن الروح الامري الإلهي<sup>0</sup> وقيل في شرحه: صبا قلبي لاحبتي أي حن ومال إليهم لأنها روح محبوبة كما قال تعالى ﴿ونفخت فيه من روحي﴾<sup>(1)</sup>، وقوله (ذاك) إشارة إلى البعيد لبعدها الحاضرة الإلهية عن مشابهة الأكوان<sup>(2)</sup> أما (الصبا) فذكرها لأنها الريح التي جاءت بريح يوسف إلى يعقوب عليهما السلام، ولأجل ذلك نرى المحبين يكثرون من ذكرها في أشعارهم الغرامية، إذ يستروح كل محزون بريح الصبا، وأكثر الشعراء من ذكرها فمن ذلك قولهم:<sup>(3)</sup>

فإن الصبا ريح إذا ما تنفست      على كبد حرى تجلت همومها

وبذلك تميز ابن الفارض عن غيره (بشاعريته التي جعلت منه شاعرا من اكبر شعراء الصوفية في العالم الإسلامي واستحق لقب سلطان العاشقين)<sup>(4)</sup> إلا أن شاعريته قد تحتاج إلى ترو وهدوء في طبع قارئيه ودارسيه لإدراك معانيه وأسراره<sup>0</sup> والحياة عند ابن الفارض زهد وعبادة وتأمل وتفكير وتجرد واتصال بمنابع الوحي والإلهام كما قلنا إلا أن الموت عنده يعني الفناء والاتحاد في الذات الإلهية يقول:<sup>(5)</sup>

وها انا ابدى في اتحادي مبدئي      وانهي انتهائي في تواضع رفعتي  
وجل في فنون الاتحاد ولا تحد      إلى فئة في غيره العمر أفنت  
فمت بمعناه وعش فيه أو فمت      معناه واتبع أمة فيه أمت  
فأنت بهذا المجد أجدر من أخي اج      تهاد مجد عن رجاء وخيفة  
وموتي بها وجدا حياة هنيئة      وان لم أمت في الحب عشت بغصة

(1) ص: 72.

(2) شرح ديوان ابن الفارض: 1/139.

(3) مجمع البيان في تفسير القرآن: م/263/5.

(4) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 82.

(5) ديوان ابن الفارض: 37، 41، 43.

وبعد التدقيق والبحث في شعره، ينتاب الإنسان فضول للمعرفة، ويقف عندها مبهوراً أمام هذا التناغم الخفي لهذه النفس التواقئة إلى شيء قد نجهله لكنه يعرفنا تمام المعرفة، انه يضعنا أمام أمور خفية علينا لا عليه حيث يقول: (1)

وتم أمور تم لي كشف سترها	بصحو مفيق عن سواي تغطت
فبالنفس أشباح الوجود تنعمت	وبالروح أرواح الشهود تهنت
فأعجب من سكري بغير مدامة	واطرب في سري ومني طربتني
فيرقص قلبي وارتعاش مفاصلي	يصفق كالشادي وروحي قنيتني

إنَّ الأمور التي أشار إليها والنفس والأشباح والروح وشهوها وسكره بلا مدامة وطربه سرا ورقص قلبه على موسيقى نبضاته، والتصفيق والغناء، كل هذا المجلس الساحر يوحى ببلوغه (حال الفناء في العالم والامتزاج فيه بحيث تتوحد كل تناقضاته ويغدو شيئاً شفافاً خالياً من الاعتكار والصراع)<sup>(2)</sup> ولعل أبياته التالية تثير في نفس القارئ الفزع لأول وهلة ولكن بتقصي أحوال الصوفية نجدهم يطيرون في عالم تعبدي هدفه إصلاح النفس الإنسانية لان دنياهم (دار عمل واختبار، والموت هو القدوم على من يرجى خيره والرحيل عن لا يؤمن شره)<sup>(3)</sup>، لنلاحظ قوله: (4)

وفي شهدت الساجدين لمظهري	فحققت أني كنت آدم سجدتي
وعانيت روحانية الارضين في	ملائك عليين اكفاء سجدتي

انه يرمز إلى الأمر الصادر من أذات الإلهية لجميع المخلوقات للسجود للنبي آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ..﴾<sup>(5)</sup>، وكأنه شهد ذلك الموقف العظيم وحققت عليه نعمة المولى فكان من أوائل الساجدين،

(2) نفسه: 46 ، 47.

(3) الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي: 30.

(1) الرسالة القشيرية : 153.

(2) ديوان ابن الفارض: 50.

(3) الكهف: 50.

وتلك إشارة إلى سمو روحه بأزلية الموقف وعظمة الحال ومشاركتها السجدة الأولى المباركة<sup>0</sup> عند ذلك سبحت في عالم الأرواح، ومما يثير الدهشة هذا الوصف الرائع الذي يربطنا برمز السجود في أبياته حيث يقول المستشرق جب: (السجود درجة تعنو بها الوجوه وتغرس في نفس العابد روح التواضع وإسلام الوجه للحي القيوم، وهذا يمهّد للعابد طريق الاتحاد مع الله، فيبلغ تلك العلاقة الشخصية التي يتجلى فيها كل فكر وتسيطر على كل فعل)<sup>(1)</sup> فإذا كان هذا حال السجود كجزء من الصلاة حيث يفرغ القلب ما فيه من قلق وهموم، فكيف بابن الفارض وقد سمت روحه ورقيت وكانت رتبته من التشريف في سجودها لأدم عليه السلام<sup>0</sup> وتشتد حالة الوجد حتى أن كلامه يظهر مرامه في دوام الحياة وعند الممات ويركز على النفس وهواها بقوله:<sup>(2)</sup>

ومني لو قامت بميت لطيفة  
لردت إليه نفسه وأعيدت  
هي النفس إن ألفت هواها تضاعفت  
قواها وأعطت فعلها كل ذرة

ونجاح النفس في جهاد هواها، يساعدها على مضاعفة قواها و(انطلاق طاقة الإنسان النفسية التي كانت مقيدة في أغلال القلق فيشعر الإنسان بتدفق النشاط والحيوية في كيانه)<sup>(3)</sup>

ولا ندري مدى صحة زعم الشاعر ابن عربي (ت 638هـ) من أن (الله يملي له على لسان ملك الإلهام جميع ما يسطره)<sup>(4)</sup>، إلا أن زعمه يذكرنا بـ(محاورات أفلاطون) في الحديث عن الشعراء وطيرانهم كالنحل، ينهلون الأشعار التي ينقلونها إلينا من ينابيع تقيض عسلا في حدائق ربات الشعر ووديانها وهم لا ينظمون أشعارهم الجميلة وهم منتبهون إذ حينما يبدأون اللحن يأخذهم هيام عنيف وينزل عليهم الوحي الالهي...<sup>(5)</sup>

(4) دراسات في حضارة الإسلام: 253.

(5) ديوان ابن الفارض: 56.

(1) الإسلام والصحة النفسية: 58.

(2) ترجمان الأشواق: 5.

(3) ينظر: إيون أو عن الإلياذة (من محاورات أفلاطون): 37.

ولطالما تحدث الشعراء أنفسهم عن الإلهام والوجد والاندهال، ولم يكن بالامكان أن تخلق كلمة الإلهام من العدم وقد أصبحت كلمة تردد باستمرار، فذلك أمر مؤكد، ولكن كل كلام معاد يقتضي أصلا، وكل وهم يقتضي وجود أساس واقعي، في حين مازالت حضارتنا مرهفة كثيرة الشكوك والريب مما حدا ببعض النقاد إلى القول (إن أقوال هؤلاء الشعراء، لا ينبغي أن تحمل على معناها الحرفي، ذلك أن الإلهام بالنسبة لهم إلا تشبيه)<sup>(1)</sup>

وأفاض الشاعر ابن عربي على شعره نعومة ورمزية مع وجد كئيب ملتهب في احتفائه بوصف الظل المهجور والظعن والناقة والأسماء والأمكنة العربية<sup>(2)</sup> وقد شكلت الحياة بما فيها من رموز طبيعية آفاق شعره فتميزت بمعنيين: الظاهر والمعنى الصوفي (الباطني) يقول في ذلك:<sup>(2)</sup>

فأصرف خاطر عن ظاهرها      واطلب الباطن حتى تعلما

ومن الواضح أن فلسفته الشعرية النفسية تستند في حقيقتها إلى آيتين كريمتين هما «فاتبعوني يحببكم الله»<sup>(3)</sup> و«يحبهم ويحبونه»<sup>(4)</sup>، من تلك المحبة الإلهية تأسست وعمرت حياته فاتصلت بالحياة التي لا تنفد، يقول:<sup>(5)</sup>

ما حياتي بعدهم إلا ألفنا      فعليها وعلى الصبر سلام

إن حالة التجلي أو الكشف عند الصوفي تجعله في حالة استغراق أو حلم، وأقصى مداها بلوغ حال الفناء التام ودخول عالم الحقيقة، حيث النور الإلهي والنقاء الروحي<sup>(6)</sup> ونلمح براعته النفسية وهو يتحدث عن الحمام قائلا:<sup>(6)</sup>

يحوم الحمام لنوح الحمام      فيسأل منه البقاء يسيرا

(4) طريقة التحليل النفسي والعقيدة الفرويدية: 382.

(5) ترجمان الأشواق: 11.

(1) آل عمران: 21.

(2) المائة: 54.

(3) ترجمان الأشواق: 29.

(4) نفسه: 65.

الحمام عنده مقام انفصال اللطيفة الإنسانية عن تدبير هذا الهيكل الظلماني المقصود به (الجسد)، فقد أسمعته واردات التقديس والرضا والمشاهدة من اللطائف الإلهية والعلوم الربانية ما يسنده إلى قول الرسول محمد (ﷺ) في فضل من مات بعد أخيه بزمن ﴿وما يدريكم ما بلغت به صلواته﴾<sup>(1)</sup>

يمثل عالم الشاعر المتصوف خصوصية مطلقة بريئة من حدود الزمان والمكان فقد أطلق لنفسه العنان، حيث ينطلق في خياله أنى شاء، لذلك استحوذت فكرة الحرية لاستباحة أي شعر يجد فيه روحه ووجدانه ويضفي عليه روح الصوفي ويدخله في حيز ملكيته، من هنا جاءت العلاقة الوطيدة بشعر الحب العذري ولسائر الشعراء دون أن يهमे الزمان والمكان والفكرة<sup>(2)</sup>

وبمجرد الانتقال من عالم الروحانيات ذلك، يصدمنا عالم المحسوسات، وشتان ذلك عن هذا ولا ندري كيف يمكن الجمع بينهما على رأي الشاعر جمال الدين بن مطروح (ت 649هـ) حيث يصرح قائلاً:<sup>(2)</sup>

وقم نهب اللذات قبل فواتها      ودعني من قول ابن حجر: قفا نيك  
واني لأصبو والصبابة شيمتي      فاجمع ما بين الخلاعة والنسك

انه أمر (بنهب اللذات) فهي غنيمة لمن يشاء طلب اللذة، ولن تفوته السخرية من صاحب (قفا نيك) وأطلاله، في حين يأخذه شوقه وصبابته بعيداً، يدرك الشاعر ابن مطروح أن (نهب اللذات) محكوم بسلاسل العمر والشباب، وقوى الطبيعة بدأت نحتها في جسده شيباً وضعفاً وهماً، مذكرة إياه بالموت والفناء وإذا به أمام خسائر محصولته منها قبض ريح وحصاد هشيم كما يقولون<sup>(3)</sup>

عجا لهذه الدنيا، تشغل الإنسان بأمورها حتى كأنه نائم وما أعمق قول الإمام علي (عليه السلام) في وصفه للناس ﴿الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا﴾<sup>(3)</sup> إذن في الموت يتحقق هذا

(5) موطأ مالك: 174/1.

(1) جمال الدين بن مطروح (حياته وشعره): 371، 372.

(2) كشف الخفاء: 414/2.

الانتباه والاكتشاف للحياة الحقيقية، أما وهو حي فإنه نائم مخدر، بل منوم اجتماعيا، غافل عما يحيط به، ومن هنا يرتكب الإنسان بعض الذنوب والمعاصي نتيجة لهذه الغفلة التي نومه عليها مجتمعه بحكم العادات والتقاليد والخبرات الدنيوية الكثيرة، والأمر يختلف مع الشاعر ابن مطروح فقد سجل احساساته وخلجات نفسه وهو يعاني سكرات الموت معبرا عن مدى عمق إيمانه بالله وثقته في عفوهِ (1) ومن خلال مخاطبته لصديقه بهاء الدين زهير: (1)

إذا أنا مت فاندبني  
وقل : مات الغريب فأب  
فرب أخ أندبا  
ن من يبكي على الغربا ؟

نخلص إلى أن حياته العريضة لم تتجده للتخلص من الشعور بالغبية في الحياة، واستمر هذا الشعور حتى لحظات موته الأخيرة، والذي قد يكون متولدا من نشأته المتواضعة وإصراره على الوصول للشهرة والجاه. والشاعر في موقف لا يحسد عليه، يحاول التوبة، ومجاله الزمني في البقاء ضيق، فهو معترف بالعصيان راغب في التوبة وحصول الغفران، وها هو ذا يناجي ربه قائلا: (2)

عصيتك طول أيام الحياة  
فإن سامحتني كرما وفضلا  
وجئتك تائبا عند الممات  
فقد يعفو الكريم عن الجناة

فان ابن مطروح دؤوبا على كتابة مذكراته ففي يوم الجمعة عاشر رجب سنة 648 للهجرة، دون أبياته التي أثارت شيئا من الدهشة في نظرنا، ولكنها تنوه عما كان يحاوله ويستमित في محاولته للوصول إلى رضا الله سبحانه ولكن بمثل هذه الألفاظ، يقول: (3)

يا أيها الشامخ في قربه  
بالباب كلب وجل خائف  
يا أيها الظاهر في حجه  
من طول ما أسلف من ذنبه

(3) جمال الدين بن مطروح (حياته وشعره): 320 .

(1) جمال الدين بن مطروح (حياته وشعره): 355.

(2) نفسه: 355.

منكس من خجل رأسه  
 منكس من خجل رأسه  
 فهل له غيرك راحم  
 هل يرحم الكلب سوى ربه

إنها من أبيات هذيان القلق والخوف، ومن المرجح لدينا انه لم يعد العدة لمواجهة أزمة الموت وفي لجج حياته نسي كلام العباد والزاهدين الأوائل ﴿إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار فخذوا من ممركم لمقرمكم﴾<sup>(1)</sup>، لذا تراه مناديا الناس أمرا إياهم بالحيلة والحذر مما وقع هو فيه، يقول:<sup>(2)</sup>

يا أيها الناس اعملوا لمعادكم  
 قبل الوقوف على المقام الاهول  
 وخذوا لأنفسكم بحوطة حازم  
 عن كل ما في الأرض بات بمعزل  
 واقل ما يرعون روعة منكر  
 ونكير تحت الحصى والجنجل  
 وإذا بدأتم اختتمتم دعوة  
 صلوا الصلاة على النبي المرسل

ولم يترك الشاعر منفذا إلا طريقه حتى انه أوصى أن يكتب على قبره أبيات مفادها أن الرحمة الإلهية وسعت كل شيء حتى لو جاء العبد بذنوب الوري، نلاحظ رعبه الشديد من أوزار حياته، فأراد الاطمئنان بتلك الأبيات بعد أن أنزل في حفرة ولحده مع كفته<sup>(3)</sup>

من البديهيات أن تتحكم السلطة والسياسة بالملوك (الشعراء) وان بذلوا أقصى جهدهم لتجنب مهاوي الحكم، وهذا ما أثبتته تجربة الشاعر الملك الناصر داود بن عيسى الأيوبي (ت 656هـ). إذ نضجت موهبته الشعرية بعد أن أزاح عرش الملك من فكره وحياته وبذلك يقول عنه الدكتور ناظم رشيد (إن المعاناة الصادقة والتجربة الحقيقية البعيدة عن الزيف والافتعال تجدها في شعره الذي نظمه بعد نزوله عن

<sup>(3)</sup> نهج البلاغة : 219/2.

<sup>(4)</sup> جمال الدين بن مطروح (حياته وشعره): 355، 356.

<sup>(1)</sup> جمال الدين بن مطروح (حياته وشعره): 355، 356.

عرشه (...)<sup>(1)</sup>، بعد أن ضرب سهم التناحر بينه وبين أبناء قومه، وقاسى الأمرين مما افقده ثقته في الحياة، وكان من افرازات تلك التجارب الأليمة حياة قلقة يحيطها الشر بكافة ألوانه وباب منفصل في ديوانه (في الإلهيات والزهديات) وتترامى نغمة الزهد والتصوف في مقطوعته الرائعة التي يبدو فيها النفس الصوفي عندما يقول:<sup>(2)</sup>

يا من تردى بالجلال جماله	وله من الأنوار حجب تبهر
مالي إليك وسيلة أنجو بها	يوم المعاد إذا أزم المحشر
وإذا الملوك تكثرت بعديها	ألفيتني بسواك لا أتكثر
لكن رجائي أن أراك، وخشيتي	من أن تقبحني الذنوب فاهجر

لقد غابت على أشعاره نغمة الشكوى من واقعه المرير، يعظ الآخرين، والحقيقة هو واعظ نفسه، يحذرهم من الدنيا وحبائلها ويدعوهم إلى هجرها ونبذها، والمقصود هو بذلك التحذير والهجر، يقول:<sup>(3)</sup>

لا تخدعك الترها	ت بذاهب للعيش زور
واسمع كلاما واعظا	من قول بحاث خبير
ما هذه الدنيا بدا	ر للمهذب والبصير
لا تغترر بغرورها	فلأنت في دار الغرور
واحذر حبائلها إذا	ما أزينت فعل الحذور

لقد عركته الحياة وتجرع حلوها ومرها، وكان سابرا لأغوارها ونتيجة لذلك وصل إلى القرار النهائي الذي لن يحيد عنه وتراه يعلن ذلك قائلاً:<sup>(4)</sup>

سأترك ما لا تترك النفس مثله	من المال والأولاد والخال والصهر
واهجر ملكا، لا رجاء بقاؤه	وصالا لملك لا يبديد مدى الدهر

(2) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية: 28.

(3) نفسه: 165-166.

(1) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية: 189.

(2) نفسه: 187.

اختار موفقا الملك الخالد الدائم وربما مستذكرا قول الرسول الكريم (ﷺ) ﴿يا عجا كل العجب من المصدق بدار الخلود وهو يعمل لدار الغرور﴾<sup>(1)</sup> إن النفس ثاني مصدر للقوة المدركة في الإنسان وثاني مصدر للحياة، ولهذا يصفها الشاعر بهاء الدين زهير (ت 656هـ) بالعلو و السمو نكاية بالدنيا وربما غاب عن باله أن الله ﷻ وصفها قائلا ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾<sup>(2)</sup>، وسنرى في أبياته آلياته كيف عالج ذلك بسهولة ويسر مبتعدا عن الفلسفة و التعقيدات التي قد يستحسنها نخبة من شعراء العربية، يقول:<sup>(3)</sup>

أيتها النفس الشريفه	إنما دنياك جيفه
لا أرى جارحة قد	مليئت منها نظيفه
فاقنعي بالبلغة النز	رة منها و الطفيفه
وعقول الناس في رغ	بتهم فيها سخيفه

والجيفة هنا كما هو واضح جثة الميت إذا أراح وقد ملئت الجوارح منها، فما على النفس إلا القناعة بما يتبلغ به من العيش الطفيف وان سخر من عقول الناس الذين غلبتهم رغباتهم السخيفة فيها. وفي هذا المجال يحضرننا وصف للدنيا من شعر الإمام الشافعي رحمه الله وقد سبقه فيه وبدا اشد قسوة منه اتجاه الدنيا بعد أن تذوقها وطعمها فما وجد غير الغرور والباطل تلوح للغافلين بسرابها، ومنها قوله:<sup>(4)</sup>

وما هي إلا جيفة مستحيلة  
عليها كلاب همهن اجتذابها

(3) مصنف بن ابي شيبة: 82/7.

(4) الشمس: 7، 8.

(5) ديوان بهاء الدين زهير: 217.

(1) ديوان الشافعي: 34.

ويخلص بهاء الدين زهير من فكرته مع نفسه لينادي الإنسان وينعته  
ب(المسكين) معرضا بالخليفة- صاحب الجاه والسلطان- بان الموت يساوي بينهما في  
تلك الخاتمة التي يتحتم أن يصلها الكل بقوله:<sup>(1)</sup>

ك في الدنيا خليفه	أيها المسكين هب ان
نك و الدنيا الكثيفه	هل يرد الموت سلطا
ك بعد الموت صوفه	تترك الكل ولا تمل

واختياره لفظة (الخليفة) لمناسبة القافية وعنى بها الإطلاق والشمول.

وما اشد العجب من شعر شاعر ينشد في حلقات المتصوفة، ويغنى في  
مجالس الطرب، يحدد زمنا معيناً للزهد ويحث عليه، عبر عن ذلك الشاعر شرف  
الدين الأنصاري (ت 662هـ) في قوله:<sup>(2)</sup>

و الزهد في شرح الشباب واجب فكيف من بعد المشيب والكبر؟

ويفصح الشاعر عن أمله المستمر بالحياة، ومعروف للجميع أننا مجبولون-  
بإرادة من الله- على حب الحياة و التعلق بالأمال- صادقة أم كاذبة- لاستمرارها،  
ولكن الموت يبدو ناصحا دائما، فهو لا يأتي غيلة ولا يأخذنا على حين غرة، بل  
هو يسوق إلينا كل يوم نذيرا وواعظا يؤكد مجيئه، ففي الجنائز التي تحمل كل يوم  
إلى التراب قريبا منا أو بعيدا، صغيرا أو كبيرا، يطويه عنا الموت مرغمين لا نملك أن  
نرد عنه شيئا.. كل ذلك لشاهد لا يكذب على أن الموت آت لا محالة على كل  
احد<sup>(3)</sup>، يقول الشاعر شرف الدين في ذلك:<sup>(4)</sup>

تمر بي الموتى تهز نعوشها	اوامل أن أحيا وفي كل ساعة
بقايا ليال في الزمان أعيشها	وهل أنا إلا مثلهم، غير أن لي

(2) ديوان بهاء الدين زهير: 128.

(3) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: 241.

(1) ينظر: الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي: 138.

(2) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: 553 ونسبت الأبيات للإمام ابن أبي عصرون في خريدة القصر.

وجريدة العصر (شعراء الشام): 357/2.

ورد تعبيره عن حال الموتى بقوله (تهز نعوشها)، بسبب ارتفاعها فوق الأكتاف وتوحي العبارة بالهزة و الارتفاع معا حتى لا تتجاهلها الأنظار، وتصحو لها الأفكار، وأردف بعدها أسلوب القصر لتوكيد كونه واحدا منهم- لا محالة- ولاحقا بهم- لا فرار- ولكن متى شاءت الإرادة الربانية.

ومن الطريف أن يصف الشاعر شرف الدين الأنصاري الموت بقوله:<sup>(1)</sup>

والموت وصف جامع	بين القشاعم و الفراخ
وإذا رجوت سوى الإله	أضعت بذرك في السباخ

بمثل هذه السهولة والدقة رسم لنا الموت، وقنن على من يرجو سوى الله سبحانه فقد أضع ثمرة تعبته وحياته في ارض ذات نز وملح. ويختتم آراءه بدعوة صادقة للميل عن الهوى والإقبال على التقوى، ويحذر من الاقتراب من الدنيا إلا لضرورة وصور تلك الضرورة بصورة غريبة ما بين النور القوية الكاسرة والفراخ المستضعفة<sup>(2)</sup>

<sup>(3)</sup> ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: 145.

## 3. البعد الاجتماعي والأخلاقي

إن تفاعل الشاعر مع بيئته وتفاعل البيئة بكل أبعادها معه، كانت المهاد الذي انبت هذا الثمر وعلى الرغم من معرفتنا أن تحديد ماهية الأدب وفنونه يتم عن طريق النشاط الاجتماعي، إلا أننا لا يمكن أن نتجاهل الدور التاريخي والاجتماعي الذي لعبته (بيئة الحروب الصليبية) وعلى مدى متني عام، ومن هنا نما الشعر في العهد الأيوبي وهو يتغذى من تلك البيئة، وتركت تلك الحروب بصماتها في الشعر خاصة والحياة الاجتماعية عامة<sup>0</sup>

ولابد أن يكون لذلك العهد أنواعه الأدبية التي تحقق مثله الجمالي الأعلى، التي تعكس العلاقات الاجتماعية والأخلاقية التي ترتبط بالعناصر الثابتة من القيم، وبال حاجات الإنسانية العامة التي تدور حول الحياة ومباهجها وأحزانها، والموت وأثاره وآلامه، وهنا يبدو الصراع بين الوجود، وبين الموت والحياة، وهو صراع صورته البشرية منذ تاريخها الأول في أساطيرها، وكل لحظة تمر بنا فيها انتصار للموت، لأنه انقص من حياتنا، وكل دقة من دقائق قلوبنا تذكرنا بأن الحياة في ذهاب، وان قدرا من حياتنا قد وضع خلفنا بعيدا عنا<sup>(1)</sup>

## الرثاء:

يطارد الموت الحياة، ويغتال الإنسان سواء أكان بين أهله أم كان وحيدا في القفر، لا يرحم شابا ولا شيخا، ولا يفكر في رضيع أو طفل<sup>0</sup> وقيل في الرثاء (مصدر الفعل رثى يرثيه)، إذا بكاه بعد موته، وعدد محاسنه ونظم فيه شعرا<sup>(2)</sup>.  
وتسند الميثولوجيا الدينية شعرا رثائيا لآدم عليه السلام قاله بالعربية، وقد أسندت رواية ذلك الشعر إلى يعرب بن قحطان<sup>(3)</sup>، لذا كان الرثاء فنا عريقا أصيلا، صاحب النفس البشرية، لأنه (فن الموت ولغة الحزن، ومجال اليأس،

(1) ينظر: قضايا في الأدب والنقد: 37.

(2) ينظر: مراثي القادة المسلمين حتى نهاية العصر الراشدي: 5، (رسالة ماجستير).

(3) دائرة المعارف: 474/1.

ومعرض الوفاء<sup>(1)</sup> يا ترى أين من كل تلك الملامح قول الشاعر عرقله الكلبى  
(ت567هـ) وهو يرثي الأمير احمد بن صلاح الدين<sup>(2)</sup>

كان سراجا قد طفا  
قل للنحاة ويحكم  
على الورا، ثم انطفا  
أحمدكم قد صرفا

حيث من الشائع أن للثناء طرقا يسير على خطاها الشعراء منها: الندب،  
والتأبين والعزاء<sup>(3)</sup>، ومع إحسان صلاح الدين للشاعر العرقله لا يبدو رثاؤه قد اتبع  
طريقا من تلك الطرق، بل على العكس جاء البيت الثاني يخيل للقارىء أن الشاعر  
يرمي إلى الدعابة والفكاهة وهو يشير إلى اسم (احمد) والقاعدة النحوية المشهورة  
(الممنوع من الصرف) ولكن الموت قد صرفه!!

ويالصدق (الحمامة النادبة) التي استطاعت أن تحرك سواكن الأشواق في قلبه  
النادب، وقد ارتفع أسلوبه حتى بلغ مرتبة الشعراء المجيدين القدامى في قوة الأسر،  
وانسجام الألفاظ يقول العرقله في ذلك<sup>(4)</sup>:

ونادبة ناحت سحيرا بأيقة  
فتهجت الوسواس في قلب نادب  
تنوح على غصن أنوح لمثله  
وهل حاضر يبكي أسى مثل غائب

وتلاحظ شاعريته واختصاره الفني الرائع، وكيف أن الطبيعة وهي منزل وحي  
الشاعر وإلهامه نجحت في جذب انتباهه وإثارة وساوسه، فندب وناح مشاركة  
وانسجاما مع (الحمامة النادبة)، والفرق كبير بين رثائه لابن السلطان وتجاوبه مع  
الحمامة التي لا يخفى ما تتركه من اثر شجي في نفس الإنسان في كل أحواله0  
ولعمارة اليمنى (ت569هـ) مرات كثيرة في أولاده وزوجه، وكان  
رثاؤه تقليديا، والشيء الذي يسترعي الانتباه حقا هو جزعه على أولاده وندمه الشديد  
على بقاء بناته، فهل هو ممن تنطبق عليهم وصف الآية الكريمة ﴿وإذا بشر

(1) الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية): 85 .

(2) ديوان عرقله الكلبى: 65.

(3) ينظر: الإسلام والشعر: 160.

(4) ديوان عرقله الكلبى: 5.

أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم<sup>(1)</sup>، وعبر عن ندمه ذاك عندما  
رثى ولديه على التوالي<sup>(2)</sup>

أرجو بقاء أم صفاء حياة      وقد بددت شملي النوى بشتات  
أتبلى الليالي لي بنيا ذخرتة      وتبقي لي الأيام شر بناتي

إن الرثاء يبني على شدة الجزع كما يقول ابن رشيق في عمدته<sup>(3)</sup>،  
وحتى هذا الجزع، عليه أن يبدو لنا رقيقا، والسؤال الذي يطرح هنا: أيهما اشد وقعا  
على النفس الإنسانية موت الولد أو الزوجة أم موت السلطان أو الملك؟  
أيهما أبكى للعين وأشجى للفؤاد فراق المرء بالموت لشخص أحبه أم فراق المرء  
لشخص له أياد بيضاء ومواقف سمحاء عليه؟ وكانت إجابة علماء الصحة النفسية  
واضحة، فقد لاحظوا أن الانفعال الداخلي مهما كان محتواه ودرجة التحسس به هو  
انفعال يتقرر بطبيعة الحياة النفسية للفرد ومدى ارتباطه وحبه وتعلقه بالمتوفي ومعنى  
الخسارة بالنسبة له، كما يعتمد على التجارب الحياتية السابقة<sup>(4)</sup> لذا كانت مراثي عمارة  
اليميني لدولة الفاطميين وخلفائها وقصورها وأهلها عميقة في صدقها<sup>(5)</sup>، وكذا كانت  
مرثيته لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين التي يقول فيها:<sup>(6)</sup>

صفو الحياة وان طال المدى كدر      وحادث الدهر لا يقي ولا يذر  
وما يزال لسان الدهر يندرنا      لو أثرت عندنا الآيات والنذر  
كم شامخ العز ذاق الموت من يدها      ما اضعف القدر إن ألوى به القدر!

ويقترح الشاعر عمارة إلى العزاء بالسابقين، والأمثال العظيمة من الأنبياء والخلفاء،  
حيث يقول في القصيدة نفسها:

(1) النحل: 58.

(2) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 183-187.

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 153/2.

(4) ينظر: الصحة النفسية في الإسلام: 257.

(5) ينظر: كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 328، 333، 398، ينظر: مرآة الزمان في تاريخ

الاعيان: 303/8-304.

(6) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 269 وما بعدها.

أودى علي وعثمان بمخلبها  
ومن أراد التأسى في مصيبتيه  
ولم يفتها أبو بكر ولا عمر  
فللورى برسول الله معتبر

وعندما يقترن الشاعر والمرثى بوشيجة واحدة هي المصير المشترك، فإن (بمقدار هذه المشاركة تقاس درجة الوجد التي يحسبها الشاعر تجاه المرثى)<sup>(1)</sup>، وقد ترك موت تورانشاه سنة (576هـ) جرحاً لا يندمل وألماً لا يبرأ لدى تاج الملوك الأيوبي (ت 579 هـ)، فقد هدت المصيبة قواه وضافت عليه الدنيا بما رحبت، انه يبكي الفارس الذي لاتلين قناته، فنراه يستخدم رموز الطبيعة حوله من الكون والحياة والدهر 000 استقطبها حزناً على فقده حيث يقول:<sup>(2)</sup>

لولا الفقيد الذي أوهت رزيتيه  
قواي، ما ضاق بي في الارض ما اتسعا  
ولا بكيت دما حزنا ولا أسفا  
ولا تقطع قلبي والفؤاد معا  
قد أظلمت بهجة الدنيا لغيبته  
والدهر قد عاد ندمانا لما صنعا  
أقول لما نعى الناعي إلي به  
وليته بمماتي قبل ذاك نعى:  
كيف انبعاث صروف الدهر في ملك  
لو مارس الدهر أدنى بأسه جزعا؟

ونشاطر الدكتور مزهر السوداني استغرابه من أن الشاعر الأبله البغدادي مدح الوزير ابن هبيرة بأكثر من خمس عشرة قصيدة ثم التزم الصمت حين مات<sup>(3)</sup> 0 ومثل هذه المواقف واضحة ومعروفة اسبابها وهو شأن كثير من المداحين المتكسبين الذين تنتهي علاقتهم بالمدوح بانتهاء مصالحهم معه، ولكن الأبله ترك قصيدة رثاء مستقلة، يرثي فتاة لم يرها من قبل، فلا ذكريات تربطهما، لذا جاءت مرثيته تأملات حزينة في الحياة مشوبة باليأس مبعثه عدم الإحساس بأمان الدنيا وهذا ما يمكن أن نسميه بالعزاء وهو نفاذ الشاعر من حادثة الموت الفردية إلى

(1) الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 292.

(2) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 181.

(3) ينظر: الشعر العراقي في القرن السادس الهجري: 146.

التفكير في حقيقة الموت والحياة وقد ينتهي به هذا التفكير الى معان فلسفية عميقة<sup>(1)</sup>، وقد تفجر إحساسه بكلمة "تبا" يقول<sup>(2)</sup>:

ألا تبا لدنيا ترتجئها  
وما هالنا شمس أهالت  
لقد خابت وخاب المجتديها  
عليها الترب أيدي دافنيها

انه يتوجع، لان الموت حقيقة رهيبية يخشى التفكير بها، ومن ألمه وخوفه يفر إلى التأمل بحتمية الموت ويضرب المثل بالأمم السابقة والأقوام البائدة، ويستصغر الدنيا ويعزف عنها إرضاء لنفسه القلقة ويكيل الرثاء بالدعاء التقليدي<sup>0</sup> ومن طريف ما نذكره هنا، ما قاله صاحب العمدة عن رثاء المرأة في كونه من اشد الرثاء صعوبة على الشاعر، وبذا ضيقوا الكلام في رثائها لقلّة الصفات<sup>(3)</sup>، وحرمت حق التأبين والتعزية الحقيقية في حين يشيد ابن رشيق في موضع آخر بالرثاء الصادر عن المرأة لأنّ (النساء أشجى الناس قلوبا عند المصيبة وأشدّهن جزعا على هالك)<sup>(4)</sup> وإذا كان الأبله البغدادي قد نعت مرثيته بـ(الشمس) فإنّ الشعراء اعتادوا الربط بين الممدوح وبين القمر وغيره<sup>0</sup> من عدة نواح نفسيه لامادية<sup>(5)</sup>، ويبدو أنهم استخدموه لوصف الميت: بالبدر، أو الهلال أو القمر<sup>(6)</sup>

ولقد ندب شعراء عهد بني أيوب أهليهم وأقاربهم، وتحرقوا عليهم ومن هؤلاء الشعراء سبط ابن التعاويذي الذي يصور لنا رسل الموت (بالجمع وليس بالمفرد) تودع أحبابه وهم يتزاحمون للوصول إلى الردى وكأنني بهم قد رصوا صفوفهم أمامه بنظام وروية حتى يخيل لمن يراهم أنهم ذاهبون لملمة، فمشوا على عجل يتسابقون مع الحمام، يقول: <sup>(7)</sup>

(1) ينظر: الرثاء: 6.

(2) ديوان الأبله البغدادي: 371 ، 372 ، (رسالة ماجستير).

(3) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 154/2.

(4) نفسه: 153/2.

(5) الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري: 184.

(6) ينظر: ديوان ابن سناء الملك: 496/2.

(7) ديوان سبط ابن التعاويذي: 351.

ودعتهم رسل المنون فأوجفوا  
فكانهم ظنوا الحمام دعاهم  
هم خلفوني بعدهم ذا حيرة  
يبتاعون إلى الردى إرسالاً  
لملمة فمشوا إليه عجالاً  
أبكي الرسوم وانذب الاطلالاً

ولأسامة بن منقذ النماذج المختارة في رثاء الأهل والأحباب،  
بدءاً برثاء ابنه حتى ختم مرثيته يرجو الأجر والثواب من الله سبحانه فهو مسلم  
بقضاء الله وقدره يقول: (1)

ولم تسلني الأيام عنه، وإنما سلوى بما أرجو من الأجر في الصبر

ندب ابنه بعبارة صادقة ولفظ سهل وفكر واضح وكأنه أراد بهذا الندب أن يصل إلى  
كل أب مفجوع وأم تكلى بولدها (2) وأكثر أسامة من رثاء أهله المفجوعين بالزلازل،  
مصورا نار الحزن التي تتلظى في قلبه لفقدهم، والضياع الذي أحسه بعد موتهم،  
فكانت قصائده صورا صادقة لنفسه المحزونة، فأكثر من ذكر المعاني المؤلمة  
كالفجيعة والكارثة والبكاء والخراب، وينعطف لتأبين قومه، ذاكرا أمجادهم ومكارمهم  
وبطولاتهم حتى يصل ذروة الفخر بهم (3) وعلى الرغم من كل تلك الخلجات  
والمشاعر والتكرار والكثرة إلا أنه لم يوسع أفق تفكيره لفلسفة الحياة والموت ونعزو  
ذلك إلى حالته النفسية القلقة التي منعتة من التأمل مليا بالحياة والموت ومن أبياته  
الآتية يمكن الحكم على مدى تردي حالته النفسية حيث يقول: (4)

وأصبحت لا آل يلبون دعوتي  
كأني من غير التراب فليس لي  
ولا وطن آوي إليه ولا وفر  
من الأرض ذات العرض دون الورى شبر

والمتمعن للبيتين السابقين يدرك أن أسامة يرثي نفسه ويبكيها، وقد جردته  
الدنيا من كل شيء ويخيل إلينا عمق فكرته في البيت الأخير إشارة إلى انفعاله

(1) ديوان أسامة بن منقذ: 297.

(2) نفسه: 303.

(3) نفسه: 298.

(4) نفسه.

الداخلي لانعدام إحساسه بأنه من بني آدم (الكَلْبَلَاء) وعلل فقدان الانتماء هذا بعدم تملكه لشبر من الأرض<sup>0</sup>

وما أن حلت سنة 589 للهجرة ليلة الأربعاء 27 من صفر في ربوع دمشق، كان موت صلاح الدين الأيوبي حدثا فاجعا، ولم يكن لدويه نظير منذ وفاة الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم)، وقد ارتاع له الشعراء ورثوه أحر رثاء وندبوا فيه تلك خلال السمحة التي جعلته حبيبا إلى القلوب أثيرا لدى النفوس...<sup>(1)</sup> ويقف الأدب حزينا بالحياة، أمام موت بطل الجهاد وجاء رثاؤه ناصعا كجهاده وما جهاده إلا (غضب لله ولدينه)<sup>(2)</sup>، ويكفيه فخرا أن كل حرب يخوضها فيها معنى هزيمة الموت مادام يخرج منتصرا<sup>0</sup> ولا يلام الأدب حينها عندما عبر عن موته بذهول، فالأدباء والشعراء (يستعظمون هذا الموت، ولا يجدونه فناء فرد، ولكنه فناء أمة)<sup>(3)</sup> والتعزية عادة نوع من المشاركة الاجتماعية ترتفع حرارة الحزن أو تنخفض فيها تبعا لعوامل نفسية وفنية مختلفة<sup>(4)</sup>، ولكن في رثاء صلاح الدين يختلف الأمر فقد تركت النفوس على هواها، ألما وحسرة ففاضت غزارة وتنوعا، ولعل قصيدة واحدة لعماد الدين الاصبهاني تكفي لتجسيد صورة للمشاعر المريرة في ذلك اليوم المشهود، القصيدة في مئتين واثنين وثلاثين بيتا وفي هذا الدليل الشافي على عمق جرح فقدانه، يقول:<sup>(5)</sup>

والدهر ساء وأقلعت حسناته	شمل الهدى والملك عم شتاته
ذلا ومنها ادركت ثاراته؟	أين الذي عننت الفرنج لبأسه
مذ عاش قط لذاته لذاته	لذ المتاعب في الجهاد ولم تكن
روحاته، ميمونة ضحواته	مسعودة غدواته ، محمودة
فمات كل العالمين مماته	لا تحسبوه مات شخص واحد
فكأنما سنواته ساعاته	ما كان أسرع عصره لما انقضى

(1) أصداء حطين وصلاح الدين في الشعر العربي: 88.

(2) مقدمة ابن خلدون: 271.

(3) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 515.

(4) ينظر: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 293.

(5) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 86-92.

وتعد من المطولات في غرض الرثاء في الشعر العربي كله<sup>(1)</sup> ومن الملاحظات المهمة أن القاضي الفاضل - مع عمق صلته بصلاح الدين - اثر ألا يفث في عضد تابعيه بكثرة الألم والحسرة، ونعزو سبب ذلك إلى ما تتمتع به شخصية القاضي الفاضل من وجاهة ورزانة وحكمة - قد تبدو غريبة في بعض أشعاره - وأيضاً الشاعر متقائل خيراً بالتابعين طالما أن عهد البطولة قد بدأ<sup>(2)</sup>، ويبدو تقاؤه قد خبت جذوته بعد حين من الزمن<sup>0</sup>

وهكذا أصبح الإسلام وقد فقد ناصره ثاكلاً لوحيد، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد، واغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد<sup>(3)</sup> وما أجمل رثاء جعفر بن شمس الخلافة لصالح الدين، وهو يصفه بالكرم، ولكنه كرم من نوع فريد يقول:<sup>(4)</sup>

كريم أتاه الموت ضيفاً فلم يكن  
قضى فوضى المعروف وانقرض الندى  
لينزله إلا على السهل والرحب  
وحطت رحال الوفد في الشرق والغرب

لقد رثى الشعراء صلاح الدين وبكوه بقصائدهم ودموعهم، ولم يرثه الشاعر ابن سناء الملك، وعزا محقق ديوانه ذلك إلى ضياع قصائد رثائه، ولم يرث أيضاً أستاذه القاضي الفاضل، وهنا فضل ابن سناء الملك الحياة على الموت، فالحياة في نظره تمثل رضا الوزير ابن شكر بعد وفاة القاضي الفاضل، وتستوقفنا قصيدته في مدح الوزير ابن شكر سنة 601 للهجرة التي تثير العجب وهو يقول<sup>(5)</sup>:

من يعادي أيامه ليس يعدو  
عرقتني الأيام بعدك واجتا  
هـ سريعاً نفي وقتل وصلب  
حت وللدهر في أكل وشرب  
أنا أرجو نصري على الدهر إذ جئت  
وبيني وبين دهرى حرب

(1) الروضتين في أخبار الدولتين: 215/2.

(2) ينظر: البطل في شعر الحروب الصليبية: 208، (رسالة ماجستير).

(3) ينظر: الروضتين في أخبار الدولتين: 215/2.

(4) نفسه: 224/2.

(5) ديوان ابن سناء الملك: 42/2.

فأي نفس ممدوحة ترضى بتلك المعاني المرعبة في المديح (نفي وقتل و صلب) وأي مادح هذا يتناسى معاني الحرية والفهم والمحبة ؟

كل ذلك لم يمنع الشاعر ابن سناء الملك من التعبير عن واقعه النفسي والفكري تجاه الموت، فكان شاعرا كثير الرثاء وقصائده جاءت موزعة لتشمل سعة علاقاته العائلية والاجتماعية، ولعل حزنه - كما تؤكد بعض نظريات الصحة النفسية- هو مدخل واسع لإقامة التوازن في الحياة النفسية الداخلية، وإعادة تنظيم الصلات التي تربط الفرد بغيره وبالمجتمع وبالحضارة التي ينتمي إليها، وهذا ما يضمن للفرد الحي فرصة التغيير والخسارة والتغلب عليها بالتكيف والتحرر<sup>(1)</sup> ويبدو لنا أن رثاء الموتى تعويض يهون على الشاعر ابن سناء ما فقده، ولهذا نجده يرثي أباه في لهفة عارمة يقول<sup>(2)</sup>:

ويا جار إن الله فيها له جار	أيا دار في جنات عدن له دار
واني لذيل الدمع فيه لجرار	سأبكي أبي بل البس الدمع بعده
لما فنيت من مقولي فيه أشعار	وان فنيت من ناظري فيه ادمع
إذا أثقلتني في القيامة أوزار	لعلي بعد الموت ألقاه شافعا

والقبر رمز عام لمصير الإنسانية المقدر عليها، يبعث في نفسه التحرق والأسى فيخاطبه ويناجيه ويوصيه خيرا بما حواه من بدر غدا لأجله سماء، يقول في رثاء أمه:<sup>(3)</sup>

صرت من اجله كمثل السماء	فاحتفظ أيها الضريح ببدر
ر يحاكيك مسجد بقباء	أنت عندي لما حويت من الطه
لئلا اعد في الأشقياء	اذكريني يوم القيامة يا ام
مك من غير شبهة وامتراء	واشفعي لي فجنتي تحت أقدا

(1) ينظر: الصحة النفسية: 257.

(2) ديوان ابن سناء الملك: 511/2، 514.

(3) نفسه: 494/2، 495.

وشعراء بني أيوب كغيرهم من شعراء العربية مؤمنون أن لا دار خلود وبقاء والموت كأس يتجرعه الجميع، وليس أمام الخلق إلا الاستسلام للقدر، وما يأتي به القضاء، وقد علق مؤلف (قصة الإنسان) على هذه الحقائق الثابتة بقوله (وقد بالغ المسلمون الأولون في التمسك بهذا الاتجاه الفلسفي في الحياة إلى أقصى الحدود، فقد اعتقدوا بان كل شيء سواء أكان عظيماً أم تافهاً إنما يحدث بقضاء من الله)<sup>(1)</sup> ولن نناقش رأيه بقدر ما يسترعي الانتباه عدم خوض الشعراء - حينئذ - يمثل هذه الاتجاهات الفلسفية، حتى أن لفظتي (القدر والقضاء) لم يكن لهما ذلك الظهور في حين برزت ألفاظ لها علاقة بالحروب والبطولة والفضائل النفسية الأخرى، وهذا ابن دنينير اللخمي يرثي الملك الظاهر غياث الدين غازي بن يوسف ويستفتحها بقوله:<sup>(2)</sup>

وقلبي إلا أن تهيج بلابله

أبي الدهر إلا أن تلم نوازله

إلى أن يقول:<sup>(3)</sup>

وتدبده أخلاقه وشمائله

يبكي عليه مجده وعلاءه

من الأرض إذ قد شاع في الخلق نائله

هو الحزن موقوف على كل بلدة

سقى الروم كأساً للمنية عاجله

فجر ع كأساً للحمام وطالما

ولم نجد وجهاً للتقارب بينها وبين قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم كما ذكر محقق ديوانه التي مطلعها:<sup>(4)</sup>

لقد أدركت فيك النوى ما تحاوله

أجل أيها الربيع الذي خف اهله

عدا القافية والروي<sup>0</sup> وصب الملك إلا مجد عواطفه في قصيدة رثى بها والدته ومطلعها:<sup>(5)</sup>

وكننت جلداً على أحداثه مصعاً

ليبيح الدهر لما ردي جزعاً

(1) قصة الإنسان: 339.

(2) ديوان ابن دنينير اللخمي: 375، (رسالة دكتوراه).

(3) نفسه: 377.

(4) ديوان أبي تمام: 203.

(5) ديوان الملك الأمجد: 148.

ومن خلال مطالعتنا لمراثيته نرى أبياته الأولى ولغاية البيت السادس والعشرين، يصف حالته البائسة بفقد أحبابه (بصيغة الجمع) ويقارن بين ما كان عليه ومآل إليه حاله، انه يحمل (غراب البين) جزءا من مصيبتة، أو ربما كلها، الشاعر يعزي نفسه في البيت السابع والعشرين بنداء (يا امتاه) وهو يخبرنا بكثرة الرجال المكابدين المنذهلين مثل حاله 000!! ولولاهم لقتل نفسه 0 ونراه في أبياته شارحا تلك الفكرة في قوله:

يا أمتاه ، كم في الناس من رجل	مثلي يكابر من احزانه وجعا
مرزء ذاق طعم الثكل منذهل	مثلي تجرّع منه الصاب والسلعا
لولاهم لقتلت النفس من شجن	عليك ، أو لذمت الازلم الجذعا

وعندما سئل إعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم ؟ قال: لأننا نقول وأكبادنا تحترق<sup>(1)</sup>، وقد صدق هذا الإعرابي عندما اختار الكبد- بالذات- للاحتراق، لقد صور الملك الأمجد حزنه لموت أمه ولكنه لم يستثر نفس الحزن فينا، انه لم يفرط بالنواح والعيويل، ولم يضمن بتصوير أحواله ولا بتكديس مشاعره، وحاول تسخير عاطفته لخدمة غرضه، إلا انه لم يبتعد عن واقعه بما فيه من تقاليد وتعبيرات مأثورة وصور مألوفة، لم يكن مثاليا ولم يصور تصويرا إنسانيا، (فالرثاء اشد فنون الشعر استلزاما للصدق)<sup>(2)</sup>

والصدق وحده هو الذي يستثيرنا حقا وبلا مبالغة توصل الرثاء إلى حد الاسفاف 0 ويعد الوفاء أصلا من الالتزام الأخلاقي لكل الصادقين بمعاني الرثاء وبذلك يدل الشاعر على التزامه الاجتماعي والأخلاقي الذي أعطى أغراض شعره قدرة الحياة وملاً قوافيه روعة الخلود، وسجل لوفائه صوته الحقيقي<sup>(3)</sup>.  
ومن مؤشرات اتساع الهوية بين أحداث العصر الكبيرة- كما سجلها التاريخ- وبين قصائد الرثاء، أسلوب الجمع بين التعزية والتهنئة<sup>(4)</sup>، وهو أسلوب شائع بين

(1) البيان والتبيين: 320/2.

(2) ثقافة الناقد الأدبي: 238.

(3) شعراء أمويون: 160/3.

(4) ينظر: زهر الآداب وثمر الألباب: 92/1.

الشعراء ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الشاعر الأبله البغدادي و راجح الحلي، وابن عنين وداود بن عيسى الأيوبي، والنقاد متفقون أن قلة من الشعراء من أحسن الجمع بين التعزية والتهنئة، بين الموت والحياة الجديدة يقول ابن عنين في رثاء الملك المعظم عيسى بن أبي بكر العادل (ت624هـ) مفتتحاً قصيدته بالرثاء مباشرة<sup>(1)</sup>:

يا دهر ويحك ما عدا مما بدا      أرسلت سهم الحادثات فأقصدا  
أعمدت سيفاً مرهفاً شفراته      قد كان في ذات الإله مجرداً

وبعد ذكر صولاته وجولاته في الجهاد، يرحب بإبنه الناصر داود بالأسلوب العربي القديم نفسه قائلاً:<sup>(2)</sup>

قل للأعادي إن فقدنا سيديا      يحمي الذمار فقد رزقنا سيديا  
الناصر الملك الذي أضحى بروح      القدس في كل الأمور مؤيداً  
يقظ يكاد يريه ثاقب فكره      في يومه ما سوف يأتيه غداً

من الواضح أن الرثاء والمديح لا يجتمعان، وهما متنافران، فأحدها يتعلق بجلال الموت وما يوحي به من الحياة الآخرة والخشوع وذكر الله والتأمل في الحياة الفانية، والثاني يتعلق بالدنيا ومآربها ومكاسبها، وبذا تضيع هيبة الميت ورثائه وتتشتت القصيدة لا هي رثاء خالص ولا هي مدح أو فخر خالص وليس من المنطق الجمع بينهما في نص واحد<sup>0</sup> ولخص ابن رشيق القول في ذلك (ومن صعب الرثاء أيضاً جمع تعزية وتهنئة في موضوع)<sup>(3)</sup>

ومن جملة الأمور التي تضعف صورة الرثاء (التفلسف حول حياة الإنسان ومصيره) وأيضاً إضفاء روح الهزل والسخرية على صورة الرثاء حينها وكأن الشاعر يضحك من المصير الإنساني<sup>0</sup>

(1) ديوان ابن عنين: 59.

(2) نفسه: 62.

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 155/2.

أما رثاء المدن فإننا ندحض هذه التسمية أصلاً فإن المدن لم تمت حتى تستدعي الرثاء، وما زال الأمل يداعب القلوب والعيون الحرى باسترجاعها وما تلك الأبيات إلا توجع وحسرة على ذكريات مازالت تملأ كيان الإنسان<sup>0</sup> وتترأى لنا صور الرثاء الأخرى كرثاء الأصدقاء بصدق العاطفة وحرارة الانفعال ورقة المشاعر ورهافة الأحاسيس<sup>(1)</sup>، في حين بدا رثاء العلماء كواجب إنساني رسمت من خلاله صورة مشرقة لشخصية العالم<sup>(2)</sup>.

ولم يكن الموت واجبا بعيد الأداء، ولا خلاص من تعقيدات الحياة التي لا تحتمل، إنما هو شيء مرعب دائم المثول أمام عيون البشر، فكيف بالشاعر سبط ابن التعاويذي وهو يفتقد نعمة البصر ويدلو دلوه برثاء نفسه- أو رثاء عينيه- بقصيدة يقول فيها:<sup>(3)</sup>

وأصبت في عيني التي	كانت هي الدنيا بعين
حالان مستتي الحدوا	دث منهما بفجيعتين
إظلام عين في ضيا	ء مشيب رأسي سرمدين
صبح وإمساء معا	لا خلفه فاعجب لذين
أسوان لا حي ولا	ميت كهمة بين بين

وأطال في مرثيته، حتى نكاد نلمح عمق الجروح النفسية البليغة التي يعاني منها حتى انه يواسي نفسه بمن سبقه من الأمم والأقوام الماضين الذين بسط الدهر يديه عليهم وينيح لرثاء آل النبي محمد (ﷺ) ويعود ليصبر نفسه قائلاً:

وأعلم بأنك تستجد غدا خلاف الحاليتين

حملت قصيدته الرثائية، الدلالات النفسية التي أولها، فكرة الحياة وما كان بها من سعادة أو شقاء وأمنيات الخلود فيها وفكرة الموت ذلك المصير المجهول وما سيحل بعده من حساب وما يؤول إليه الإنسان من مصير، وتتخللها مشاعر القلق المريع الصادر عن فكرة الموت وهو قلق شائع في كل إنسان حتى في اشد الناس

(1) ينظر: ديوان عماد الدين الاصبهاني: 97.

(2) ينظر: ديوان فتیان الشاغوري: 612.

(3) ديوان سبط ابن التعاويذي: 435-437.

طمأنينة<sup>(1)</sup>، والحق يقال أن سبط ابن التعاويذي حمل رثاءه أنبل المشاعر وأصدقها، فضلا عن عمق أفكاره وتأمله الهادئ في الحياة والموت، إنها لحظات الانصراف إلى الذات والخلو بها، شجونه الخاصة، التي سمت به عن الكلفة والغلو والاسفاف<sup>0</sup>

وتتسع دائرة رثاء النفس كما يبدو لنا، لدى أسامة بن منقذ، فأطال في محاوراته مع الكبر والهرم وكثرة عتابه للموت الذي غفل عنه كثيرا يقول:<sup>(2)</sup>

والموت فيه راحة من أذى الدنيا ، فما اغفله عني!!

وأخيرا، وبعد ذلك الصراع المرير في الحروب الصليبية لم تجن الدولة الأيوبية أبياتا في رثائها، وكأنني بها، قد جنت سلفا من المآثر والانتصارات والمدائح ما أغناها عن أبيات رثاء تقال في ميت أو دولة زالت!! ولم يبخل الدكتور احمد احمد بدوي بتبرير ذلك في كتابه الحياة الأدبية<sup>(3)</sup>

لم يخلق الشعر العربي للمتعة النفسية فقط وإنما تتركز مهمته في عرضه المشرق لصور الحياة عن الأقدمين معاشهم وتفكيرهم وتناولهم لجزئيات الحياة، وموقفهم من أحداثها الجسم<sup>0</sup> وسلك الشعراء طرقهم وأغراضهم لتحقيق ضمان الاتصال بالناس، بالمتلقين، بالمتذوقين، لذا حددت الباحثة حياة جاسم الرابطة التي تصل أغراض القصيدة المختلفة بقولها (إن تلك الرابطة عاطفة واحدة، تظهر في شكلها الايجابي متمثلة في عاطفة الحب، وتظهر في شكلها السلبي متمثلة في عاطفة البغض)<sup>(4)</sup>، وعلقت على ذلك بأنه يتفق مع طبيعة الشخص العربي، الذي يتميز بالانفعال وحدة الطبع<sup>0</sup>

(1) ينظر: رثاء النفس في الشعر الاندلسي من عصر الإمارة حتى عصر بني الأحمر: 9، (رسالة ماجستير).

(2) ديوان أسامة بن منقذ: 269 ، 274 ، 278.

(3) ينظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 78.

(4) وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي: 258.

## الهجاء

لماذا يهجو الشاعر؟ ولماذا يمدح؟ ولماذا يفخر ويتغزل؟ إنها انفعالات، أو حاجات نفسية إنها عواطف إنسانية تكمن في خفايا النفس تهيجها مواقف واستجابات الآخرين، والكره موجه للخصم والمعاند، وهذا الخصم يهدد النفس، لذلك كان الكره والبغض هما المثبران اللذان تمسك بهما الشاعر للدفاع عن نفسه ورد أعدائه ومناوئيه، ومن هنا نجد مضطرا- في حومة رد الخصوم- للفخر بنفسه<sup>0</sup>

وعندما يوصف شاعر بأنه (مستطرف الهجاء)<sup>(1)</sup> كالعرقلة الكلبى، فإن ذلك يعني تجاوز الشاعر فن الهجاء وسلوكه مسلك النقد تلميحا أو تصريحا، وقد المح بعض النقاد إلى أن الأصل من الهجاء (الوقوف على ملحه وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعانٍ بديعة لا التشفي بالأعراض و الوقوع فيها)<sup>(2)</sup>. ونحن مع العرقلة الكلبى الذي آمن بواقعه المؤلم، وتمازح مع حياته النفسية والمعاشية وامن بهما أيضا، فكانت حياته سلسلة من الإضحاك واستدرار العطف والرزق فكما لا فرار من الموت فلا فرار من عوزه وشعوره بالنقص، ولا بأس من الشكوى ما دام هناك أذن تسمعه<sup>0</sup> وسبق أن نوهنا عن مدى اعتزازه بنفسه، إلا أن متطلباته المادية فاقت حدود الاعتزاز بالفن وبالحيوة<sup>(3)</sup> لننظر إليه وهو يتسول ويسخر من نفسه قائلا:<sup>(4)</sup>

حاجتي شقة تشق على كل	بغيض من الورى وحسود
فابعتها صفيقة مثل وجهي	جل من صاغ جلده من حديد
واجعلنها طويلة مثل قرني	ولساني لامثل قدي وجيدي

وكما هو معروف أن الحسد من الظواهر التي كانت وما تزال موجودة في الحياة وتتخلل العلاقات العائلية والاجتماعية ولكنها لن تصل إلى ذروة ما وصلت

(1) خريدة القصر وجريدة العصر (شعراء الشام): 178/1.

(2) المستطرف في كل فن مستطرف: 2/2.

(3) ينظر: ديوان عرقلة الكلبى: 49، 50.

(4) نفسه: 35.

إليه مع الشاعر ابن سناء الملك، فقد دفع الحسد أهله إلى تمني موته أو مقتله لكي يشعروا بالسرور يقول ذاماً أهله: (1)

إن لي أهلاً يسرهم  
ويودون المنية لو  
حسدا من عند أنفسهم  
مقتلي في اليوم قبل غد  
نزعت روحي من الجسد  
لاشفوا من ذلك الحسد

وقد تمتع الشاعر ابن عنين بالثقافة الواسعة مع استعداده الفطري القوي، أوصله ذلك إلى إتقان الشعر وجودة الأسلوب، وقوة التعبير، وجزالة النص، وسلامة الجملة مما يضعه في مصاف كبار الشعراء في القرن الثالث الهجري<sup>(2)</sup>، ومن خلال مطالعة قصائده، لفت انتباهنا بيت من الشعر، يدعو فيه بالسقيا للغوطتين في دمشق ويستدرك ذلك بالدعاء بعدمه للموصل الحدباء ما عدا قبورها يقول: (3)

سقى الله دوح الغوطتين ولا ارتوى  
من الموصل الحدباء إلا قبورها

وقد أورد ابن خلكان هذا البيت وقال: (حكى لي الشيخ عفيف الدين أبو الحسن علي بن عدلان الموصلية النحوي، قال: سألت شرف الدين أبا المحاسن محمد بن عنين الشاعر عن معنى قوله:

سقى الله دوح الغوطتين ولا ارتوت  
من الموصل الحدباء إلا قبورها

لم حرسها وخص قبورها، فقال: لأجل أبي تمام<sup>(4)</sup> وذلك لأن أبا تمام الطائي مدفون في الموصل 0

وقد يكون الشاعر هجاء ناجحاً، استطاع أن يجمع من كل أطراف الهجاء، ما يجعل الناس يشيرون إليه بالبنان، ولكن قلة من شعراء العربية ممن وصلوا ذروة

(1) ينظر: ديوان ابن سناء الملك: 2/ 477.

(2) ينظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 222.

(3) ديوان ابن عنين: 16.

(4) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: 17/2.

الهجاء كمصورين فنانيين هزليين يحققون بأسلوبهم هذا أقصى ما يمكن تحقيقه من تجريح وذم للمهجو، وهذا اللون الهجائي أطلق عليه العقاد (فن التصوير الهزلي والعبث بالأشكال المضحكة والمناظر الفكاهية والمشابهات الدقيقة) (1) نلاحظ ابن عنين كيف يعيب من استرضع في غير العرب ولو كان عربي الأبوين قائلاً: (2)

فألفيته يهوى الندى فترده  
عروق إلى أخواله الزرق تنتمي  
إذا أيقظته نخوة عربية  
إلى المجد قالت أرمنيته نم

ما أعجب قدرته على إتيان هذه المعاني المتضادة وبألفاظ مختارة (يهوى الندى، أخواله، نخوة، المجد، ونم) لا تعدم أبياته الجزالة والمتانة وخفة الروح والدعابة والتهكم والسخرية 0000 ولكنها من الواقع والواقع يشير إلى أن الهجاء نقد للحياة، ولا حاجة له للتخيل أو التفكير... (3) وبهذا الرأي في الاستغناء عن الخيال، ينقل الشاعر صورة الحياة خالية من الإثارة وشد الانتباه إليها، مما يفقد صورته القيمة الفنية وعمق التأثير النفسي بالمتلقي 0

ترك ابن عنين بصماته الهجائية على كل شيء بدءاً بنفسه وانتهاءً بهجاء أهل دمشق (مقراض الأعراض) وقيل في تعليل ذلك انه كان يرى المعنى ويشتهي نظمه فلا يتأتى له إلا في الهجو فينظمه يقول (4):

ما إن مدحتك ارتجي لك نائلاً  
فحرممتي فذممت باستحقاق

ولعل شاعراً لم يعرض للعيوب الاجتماعية في بلاد الشام - خاصة - كما عرض لها ابن عنين (5) وبأسلوب أشبه بالطرافة التي تثير الرضا والفضول في نفس القارئ. وطالعنا بعض شعراء عهد بني أيوب بما يشبه النقائض - وشتان ما بينهما - فقد تهاجى الشاعر فتیان الشاغوري (1)، مع ابن عنين وكذلك الشاعر الأبله البغدادي

(1) ابن الرومي حياته من شعره: 237.

(2) ديوان ابن عنين: 216.

(3) ينظر: الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام: 32.

(4) تنمة ديوان ابن عنين: 56.

(5) للمزيد من هجائه ينظر: ديوان ابن عنين: 138، 193، 208، 210، 237.

وسبط ابن التعاويذي<sup>(2)</sup> ويبدو واضحاً أن مسببات ذلك الحسد والتحاسد و  
التقرب من الممدوح<sup>0</sup>

وكانت خيبة الأمل بالممدوحين دافعا هاما لهجائهم ويبدو تأثر بعض شعراء  
العصر - كالأبله البغدادي - بالشاعر ابن الرومي، فالمعاناة واحدة والممدوح لا يعي ولا  
يهتم، يقول الأبله البغدادي لممدوحه<sup>(3)</sup>:

يا جوادا لم يزل ملتزما                      بفروض الجود جمعا والسنن  
في حياتي اشتهي الحنطة لا                      في مماتي لحنوطي والكفن

ولا يخلو شعر الأبله من اتجاه الافحاش والبذاءة باستخدام اللفظ القبيح، ولم  
يأت بشيء غريب، وشعر الهجاء الأموي حافل بمثل ذلك الاتجاه الذي بلغ قمته عند  
الشاعر جرير<sup>(4)</sup>.

وكما تنوعت الصور الهجائية، فان النقد الاجتماعي، ملاً حيزاً كبيراً وخطيراً  
في وقتها، وقد رسم الشاعر الحكيم عبدالمنعم الجلياني السبيل إلى الخطوة عند الحكام  
في عصره، ويبدو الدافع الذاتي إلى ذلك هو النقد مثل قوله: <sup>(5)</sup>

قالوا : ترى نفرا عند الملوك سعوا                      وما لهم همة تسمو ولا ورع  
وأنت ذو همة في الفضل عالية                      فلم ظمئت وهم في الجاه قد كرعوا ؟  
فقلت : باعوا نفوسا واشتروا ثمنا                      وصنت نفسي فلم اخضع كما خضعوا  
قد يكرم القرد إعجابا بخسته                      وقد يهان لفرط النخوة السبع

## الخمرة

(1) ينظر: ديوان فتيان الشاغوري: 517-518.

(2) ينظر: ديوان سبط ابن التعاويذي: 15.

(3) ديوان الأبله البغدادي: 438، (رسالة ماجستير).

(4) ينظر: فن الهجاء وتطوره عند العرب: 427.

(5) فوات الوفيات: 409/2.

والخمرة عند شعراء عهد بني أيوب من مظاهر الحياة الاجتماعية، وكما يقول الدكتور عمر موسى (كانت الحياة الاجتماعية سبب شرب الخمر، إذ كان منتشرًا على نطاق واسع في هذا العصر بين سائر الطبقات وكان الناس يشربونها جهرا دون خوف<sup>(1)</sup>).

فهي جزء متمم من شخصية الإنسان حينئذٍ ومجال من مجالات حياته الذاتية، فلا غرابة أن تحتل مساحة واضحة في شعر شعرائها، وإن تكون عالمهم الخالص، وتمثل قصائد الخمرة الواقع النفسي للشاعر، مع ضعف الوازع الديني والرداع الأخلاقي لديه، وبدا تأثير الطبيعة بشكل عام وكثرة الأديار والحانات والمنتزهات واضحا في انتشارها. وبشكل عام رافقت الخمرة وصفها والتغزل بساقيها أو ساقيتها، يقول عرقلة الكلبي بعد أن حيا دمشق:<sup>(2)</sup>

من ماء دالية تنبيك عن عاد	كم قد شربت به في ظل دالية
قامت تثنى بقدر غير مناد	في جنب ساقية في كف ساقية
يشفى لى شفتيها غلة الصادي	سمراء كالصعدة السمراء واضحة

ويرى تاج الملوك الأيوبي أن (العيش بين الشرب والشرب) ويقرن الطرب والغناء في مجلسه ويؤكد أن الغناء من مسوغات الشرب يقول:<sup>(3)</sup>

والعيش بين الشرب والشرب	زمن التصابي راحة القلب
إن الغناء مسوغ الشرب	فاشرب وهات، وغني طربا

وهذا رأي الشاعر، وقد يكون للغناء - بلا شرب - تأثير في النفس، وما أطف قول ابن خلدون واصفا تلك الحالة النفسية بين النغم ونفس الإنسان الشجاع المقاتل يقول (أما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستमित في ذلك الوجه

(1) الأدب في بلاد الشام (عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 518.

(2) ديوان عرقلة الكلبي: 27، 46.

(3) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 107، 108.

الذي هو فيه 0000<sup>(1)</sup> فالفرق عظيم بين ما يبعثه الغناء في مجلس شرب

وما يحييه في مواطن الحرب من تزامم وجداني يجده كل مقاتل 0

وشاعر الخمرة الأيوبي سار في زحمة التكرار للاوصاف والمعاني وأبدى  
بعض الباحثين رأيه قائلاً (الخمرة بين الجاهلية وأبي نؤاس استهلكت معانيها إعادة  
وتكراراً)<sup>(2)</sup> إلا أن الشاعر الخطير ابن مماتي، قد أسعفه الخيال فظهر في شعره معنى  
جديداً (لم يخطر على بال الشعراء السابقين)<sup>(3)</sup> يقول في وصف الخمرة إذا صبت من  
الإبريق:<sup>(4)</sup>

إذا انبرت من فم الإبريق تحسبها      شهاب ليل رمى في الكأس شيطاناً

ومع أن العصر كاد يخلو من علوم الفلسفة والمنطق، إلا أن الشعراء احيوا  
المذهب القديم وألبسوه فلسفتهم الجديدة، وهي أن الحياة قصيرة المدى، وعلى الإنسان  
ألا يضيعها سدى، عليه أن يعب من كؤوس اللذات ومتع الحياة الرخيصة قبل فنائها،  
فلا طريق للأحزان والهموم إلا بشرب الخمر<sup>(5)</sup>، وإذا كان كل شيء في هذه الحياة إلى  
انقضاء فمن الواجب ألا يدع المرء فرصة سعادة تمر من غير أن يأخذ منها  
بالنصيب الأوفى، يقول أسامة بن منقذ معبراً عن ذلك:

(وتغنم اللذات أن ممرها مرّ السحاب)<sup>(6)</sup>

(1) مقدمة ابن خلدون: 258.

(2) ديوان الأبله البغدادي: 99، (رسالة ماجستير).

(3) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 147.

(4) خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر): 113/1.

(5) ينظر: ديوان سبط ابن التعاويذي: 282.

وديوان أسامة بن منقذ: 154-155.

وديوان راجح الحلي: 117، (رسالة ماجستير).

وديوان الملك الأمجد: 263.

(6) ديوان أسامة بن منقذ: 5.

ومن خلال وصف مجالس الخمرة تحدث الشعراء عن الطبيعة كما قلنا سابقا ولابن الساعاتي مجالس كثيرة وصف للطبيعة والساقى والخمر<sup>(1)</sup> ومن أوصافه التي تظهر شغفه بالخمرة قوله:<sup>(2)</sup>

ومن خمرة يزداد بالنار بردها  
وجمر بماء الوجنتين توقدا

فناه يجعل الجمر يزداد توقدا بالماء وله صور كثيرة على غرار ذلك وارتضى الشاعر ابن سناء الملك لحياته هذا الطريق، لهوا وغزلا وعبثا، وجعل حبه إلى حانوت راح، وكعبته لهوه مع النساء الحسان وإفراطه في حب العجوز يقول في هذا:<sup>(3)</sup>

وحجي إلى حانوت راح وراحة  
وإفراط حبي للعجوز التي غدت  
وكعبة لهوي اغيد وكعاب  
عروسا تهادى والعقود حباب  
تعيد شباب العقل شوبا وشيبة  
ويرجع منها للكبير شباب  
إذا قتلوها بالمزاج تبسمت  
كشاربها يرتاح وهو مصاب

ابن سناء الملك يبعث في الخمرة القدرة على إعادة الأمور المستحيلة كالشباب والعقل حتى إذا قتلوها فمن مزاجها وسرورها تتبسم<sup>0</sup>

أما خمرة الشاعر فتیان الشاغوري، فهي تشرق وتفيض أشعة زاهية، ومن شدة تعلقه بها يظن أن شهوتها قد خلقت من الأهواء، ويبدو هنا قصده بـ(الأهواء)، هوى النفس فهي ممزوجة به<sup>0</sup> نراه يفصل ذلك قائلا:<sup>(4)</sup>

راح متى ما أشرققت في كأسها  
فأضت أشعتها على الجلساء  
في شربها من كل قلب شهوة  
فكأنها خلقت من الأهواء  
يالائمي في شربها أغريتني  
باللوم فيها غاية الإغراء  
والعيش إلا في المدام وشربها  
لكن مع الظرفاء والعقلاء

(1) ديوان ابن الساعاتي: 168/2 ، 265.

أيضا ينظر: جمال الدين يحيى بن مطروح (حياته وشعره): 365.

(2) ديوان ابن الساعاتي: 168/2 ، 265.

(3) ينظر: ديوان ابن سناء الملك: 20/2 ، 21.

(4) ديوان فتیان الشاغوري: 4 ، 5.

وتبدو الخمرة النواسية في بيته الثالث على غرار قول ابي نواس<sup>(1)</sup>:  
دع عنك لومي فأن اللوم إغراء      وداوني بالتي كانت هي الداء

وحصر العيش في شرب المدام، واستدرك ذلك بتحديدده شريحة الندماء  
(الفضلاء والعقلاء) عسى أن يشفع ذلك له.

وتمثل قصيدة المدح عند ابن النبيه المصري أكثر من وجه وغرض،  
فهو يمدح ويصف الخمرة وساقها ويرد على العذول ليخرسه، ويمتد تطاوله لاحتقار  
الذنوب العظيمة، لان هناك ربا يغفر الذنوب 000!!!  
يقول مشبها العمر بالكأس:<sup>(2)</sup>

فالعمر كالكأس تستحلى أوائله      لكنه ربما مجت أواخره  
وأجسر على فرص اللذات محقرا      عظيم ذنبك ، إن الله غافره

وللخمرة شروطها التي يرتئها الشاعر راجح الحلبي من ساق اغن وروضة  
غناء ونفوس صادئة تملؤها الخساسة وكؤوس الشراب هي (الجلالية) التي تزيل الصداً  
عن تلك النفوس<sup>(3)</sup> وكان الخمرة توأم للغزل عند الشاعر الملك الأمجد، فذكرها  
يجيء في سياق القصيدة الغزلية وكأنما هي جزء مكمل لبناء قصيدته<sup>(4)</sup>، وسنكتفي  
بذكر أبيات للشاعر فتيان الشاغوري واصفا الملك الأمجد (صديقه) مع خمرة وفكرة  
قد تثير الاستغراب، يقول<sup>(5)</sup>:

تطرب الخمرة إذ يشربها      عجا من عقله الوافي الرصين  
لو يكون الناس فيها مثله      لم يحرم شربها في المتقين  
وشربناها جهارا لم نخف      من ثمانين ولا من أربعين<sup>(6)</sup>

(1) ديوان أبي نواس: 6.

(2) ديوان ابن النبيه المصري: 92-96.

(3) ينظر: ديوان راجح الحلبي: 109، (رسالة ماجستير).

(4) ينظر: ديوان الملك الأمجد: 129، 142.

(5) ديوان فتیان الشاغوري: 486.

(6) يقصد عدد الجلادات التي هي حد شارب الخمرة أو نصفه.

وأيضاً من خلال مديح ابن عنين للملك العزيز سيف الإسلام،  
صاحب اليمن يحثه على الشراب قائلاً: (1)

فأنهض الى شرب المدام ولا تطع في الزاح لائم  
فند يمنا ثمل القوام اغن ساجي الطرف ناعم

ولا تعليق لدينا إلا أنها الحياة وملابساتها، والحروب وويلاتها،  
والشعراء وأهواؤهم ولكم أطال الشعراء في وصفهم للخمرة وأسرفوا، ولكن  
الشاعر ابن مطروح أوجز وصفه لها في معرض خطابه مادحا الملك الأشرف مظفر  
الدين موسى بن أبي بكر العادل قائلاً: (2)

فالخمر - وهي كما علمت - لطيفة      ولها من الألباب أي تمكن

واقترن ذكر الخمرة بالأديرة والصوامع كثيراً في الشعر العربي وفي شعر عصور  
الدول المتتابعة بشكل خاص، يقول صاحب شرف الدين الأنصاري: (3)

واصطحبها سلافة      بين دن ودسكرة (4)  
وتأنس بناها      في الاقاحي المنورة  
واعبر العمر بالسرو      ر، فدنياك قنطرة

(1) ديوان ابن عنين: 101.

(2) جمال الدين يحيى بن مطروح حياته وشعره: 285.

(3) ينظر: ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: 192 ، 499-500.

(4) ودسكرة هنا (الصومعة) 0

**4. البعد النفسي (الوجداني):**

لا تخرج فلسفة الحياة عن كونها مجموعة من المبادئ أو القيم التي يحاول الإنسان أن يحيا بمقتضاها ومن الطبيعي أن النجاح في بناء فلسفة واضحة للحياة يعطينا مقياسا حقيقيا للنضج الاجتماعي والنفسي وجوهر هذا النضج هو أن يدرك الإنسان أن سعادته وثيقة الارتباط بسعادة غيره من الناس وان لا يتركز اهتمامه حول ذاته فقط<sup>0</sup> وإشارة إلى قول احد علماء النفس (إن فهم نفس الإنسان لا بد أن يبنى على تحليل حاجات الإنسان النابعة من ظروف وجوده)<sup>(1)</sup>، فعلى الإنسان أن يرتفع بمحور حياته البشرية وهو الوجدان، الذي تتحدد وظيفته بمخ الإنسان خبراته الذاتية باللذة والألم، وبالغضب والخوف، والأسف والبهجة والحب<sup>0</sup>

**الحب (الغزل والتشبيب)**

والحب من أهم مظاهر الحياة، بل أهم أنواع الوجدانيات الإنسانية وهو المحور الذي تدور حوله مظاهر النشاط البشري جميعها. أصبح على الإنسان أن يخلق علاقاته الخاصة به وأكثرها تحقيقا للإشباع هي تلك القائمة على الحب الخلاق<sup>0</sup> إن الحب الخلاق يتضمن دائما الرعاية المتبادلة والمسؤولية والاحترام والفهم<sup>0</sup> لقد أيقن العلماء أن حاجات الإنسان إنسانية وموضوعية خالصة وهي جزء من طبيعة الإنسان خلال تطوره وارتقائه، والإنسان حين يحب تضيق عليه الدنيا إذا لم ير محبوبته، فإذا رآها تهلل وجهه سرورا وينقلب إلى أهله محبوراً<sup>(2)</sup>.

وعندما ندقق في هذا الوصف تتراءى لنا العاطفة (مجموعة من الانفعالات) كما يعدها علم النفس الحديث<sup>(3)</sup>، وأشار ابن حزم إلى أن عاطفة الحب موضعها القلب وأنها ليست محرمة دينيا أو تشريعا حيث يقول واصفا الحب: (الحب- أعزك الله- أوله هزل

(1) نظريات الشخصية: 174.

(2) ينظر: الفاضل في صفة الأدب الكامل: 60/2.

(3) ينظر: دراسات في علم النفس الأدبي: 54.

واخره جد<sup>0</sup> دقت معانيه لجلالته عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحذور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل<sup>(1)</sup> وجاءت إشارته إلى أن الحب (صفة) لا تتلاءم ومعطيات النفس البشرية التي عدته كما قلنا (عاطفة)، وكذلك قوله (أوله هزل واخره جد) فأمر (لا يقره العلم في جميع حالات عاطفة الحب إذ قد يبدأ بصورة جادة منذ بدايته)<sup>(2)</sup>.

نقول هذا ليقيننا أن الحب ذو صلة شديدة بالحياة حتى أن الشعراء ربطوا بينه وبين الحياة منطلقين من مبدأ المساواة بينهما، ومن خلال ثناء الدكتور زكي مبارك لاراء ابن حزم في كتابه يقول (ودراسة الحب باب من علم النفس لا يتقنه إلا الاقلون و الناس يحسبون الكلام في الحب لونا من العبث لأنهم يغفلون عن طبائع النفس الإنسانية التي لا تخلو من صبوات في كهولة أو شباب)<sup>(3)</sup>، من خلال ذلك نقول أن حديثنا لم يكن جزافا ونحن نتطرق إلى أسمى العواطف الإنسانية إلا لنؤكد أن شعراء بني أيوب لم يسموا في هذا الحب وحتى لم يعرفوه أو يعانوه، مع اليقين أن الشاعر العربي مرهف الإحساس، ترتفع عنده درجات العاطفة ارتقاعا روحيا ساميا، تستجيب روحه (لممازحة الحبيب ومغالطة الرقيب وأماني يقطع بها أيام عمره)<sup>(4)</sup>

ولا يلام الدكتور احمد عبد الستار الجواري عندما حدد نقطة البدء في تاريخ العواطف في المجتمع الإسلامي معلنا أن الحب ظاهرة اجتماعية جديدة نتجت عن التطور الذي أحدثه الإسلام في نفوس العرب<sup>(5)</sup>، وهو بذلك عزا سبب انتشار الحب العذري لأسباب اجتماعية وسياسية ودينية... ومع ذلك لا يعدم تراثنا الأدبي محبين حملوا راية الحب الخالص عند كثير من شعراء العباسيين، منهم الشاعر العباس بن الاحنف ودعبل الخزاعي وغيرهما<sup>0</sup>

(1) طوق الحمامة:6.

(2) الإسلام و الصحة النفسية (دراسة نفسية): 142.

(3) النثر الفني في القرن الرابع: 206/2.

(4) جمع الجواهر في الملح والنوادر: 184.

(5) ينظر: الحب العذري نشأته وتطوره: 55.

أطلق الأدباء على الفن الذي تناول الحب الإنساني وما يتصل به (الغزل والشبيب)<sup>(1)</sup>، وهي موضوعات احتكرها الشعر عند العرب وتلك نزعة طبيعية، لان الغزل من ارق ألحان الغناء وان العرب قديما كانوا يفهمون أن الغزل لا يخرج عن الأنفاس الشعرية<sup>(2)</sup>

وأضاف النقاد القدماء صفات معينة ليصبح الغزل نسيباً، بعد الفة النساء، والتخلق بما يوافقهن من شمائل حلوة وكلام مستعذب ومزاج مستغرب<sup>(3)</sup>. ومهما اختلفت المسميات فان قدم هذا الفن وبراعة شعراء العربية فيه هياً له مركزاً مرموقاً في أدبنا العربي ومن خلال عصوره المتعاقبة، إلا أن بعض الباحثين في أدب العصر يقول واصفا الشعر في تلك الحقبة التي نحن بصدد دراستها (ضخامة في الكم، ضآلة في الكيفية، ونقص في الاصاله والصدق، تقليد للسابقين)<sup>(4)</sup>

ولسنا بصدد مناقشة ذلك الرأي أو غيره، ولكننا نجد الغزل لا يخرج عن كونه عاطفة طبيعية اتجاه المرأة وما يتعلق بها معجبا متشبيبا، اما أن يصف نفسه شاكيا حرقه الجوى وتباريح الهجر، والدلال والحرمان والعاذلة، واما أن يصف نفسه والمرأة معا، وبذلك يدور الغزل في إطار الوصف والشكوى والقصص<sup>0</sup>

ومما يلاحظ أننا لا نجد شاعرا يقصر شعره على الغزل فقط، إلا ما ندر كما سنرى ذلك، ولسنا متأكدين من تجارب الشعراء الذاتية، التي تمثل الغزل الحقيقي، لأنه قليل كما ذكر الدكتور عاصم عبد دواح وقال مرجحا (أن يكون سبب تلك القلة استمرار الحرب التي جعلت أبناء الأمة الإسلامية في تأهب مستمر واستعداد تام لدرئها، مما لم يفسح المجال كافيا أمام المرء لان يفكر بذاته تفكيرا عميقا يجود بشعر يعبر عن حبه

(1) لمعرفة الفرق بينهما ينظر: لسان العرب مادة شبيب، غزل، نسب.

نقد الشعر: 123، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 117/2.

(2) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع: 180/1.

(3) ينظر: نقد الشعر: 42.

(4) الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي: 97/2.

الصادق)<sup>(1)</sup> لذا نجد اغلب قصائد المدح لا تخلو منه علما أن شعر الغزل يساوي المديح من حيث الكثرة.

المرأة رمز للحياة، وامتلاكها امتلاك للحياة وانتصار على الموت والفناء، وكما هي النفس البشرية مجبولة على حب الحياة وجمالها وطبيعتها وكره الموت وبشائره واستحسان المدح والثناء وفضائله والامتناع من الحقد والبغضاء، فان للغزل سطوة وجبروت على كل قلب حتى أن شعراء العصر جاءوا به في مقدمات القصائد، وقد يستغرق الغزل في القصيدة نصفها أو أكثر أحيانا، ومن البديهي أن يضع شاعر الغزل في حسابات قلبه ما يعترض حياته من منغصات لخصها ابن حزم قائلا: (وللحب آفات، فأولها العاذل الذي لا يفيق أبدا من الملامة وذلك خطب شديد)<sup>(2)</sup>

وشعر الغزل له صلة بكل قلب كما يقولون وكما يقول عرقلة الكلبي (ت 567هـ):<sup>(3)</sup>

يا لائمي فيمن تمنع وصله	عن بغيتي، أحلى الهوى، ممنوعه
كيف التخلص إن تجنى أو جنى	والحسن شي ما يرد شفيعه
شمس ولكن في فؤادي حرها	بدر ولكن في القباء طلوعه
قال العواذل ما الذي استحسنته	منه، وما يسبيك، قلت جميعه

وما أجمل هذا الاعتذار عن الحبيب! هو يقرر حقيقة مفادها (كل ممنوع مرغوب)، وما

لهذا الحسن الذي هو ثابت ويزيد في قلبه سواء جنى أو تجنى<sup>0</sup>

وعمارة اليماني (ت 569هـ) لا يلام على شيء سوى حبه لمحبيبته التي ليس لها

بديل في هذه الدنيا، يقول:<sup>(4)</sup>

فما ألام على شيء سوى كلفي	بحب من ليس في الدنيا له بدل
---------------------------	-----------------------------

(1) البطل في شعر الحروب الصليبية من 489-589هـ: 161، (رسالة ماجستير).

(2) طوق الحمامة: 56.

(3) ديوان عرقلة الكلبي: 59.

(4) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 326.

ويلاحظ قوله (له) وهذا شائع في أشعار غزل هذا العصر، خطاب المؤنث أو المذكر أو الانتقال من هذا لذاك<sup>0</sup>

ولعمارة اليميني أكثر من سبب للنهي عن الوقوف على الأطلال، والظعن، وجاء ذلك في معرض رثائه قائلاً:<sup>(1)</sup>

لا تتدبن ليلى ولا أطلالها      يوما وان ظعننت بها أحمالها

إن الرقة و اللين والسهولة في غير ابتذال في شعر الغزل لا تكفي لجعل الحب يبدو حقيقياً، وقد جمع القاضي الجرجاني (ت 392هـ) في قوله الشمائل التي يراها ضرورية لشعر الغزل حيث يقول: (وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم<sup>0</sup> والنزل المتهاك... اتفقت لك الدماثة والصبابة وانضاف الطبع إلى الغزل فقد جمعت لك الرقة من أطرافها)<sup>(2)</sup> إذن فالعشق المتيم والدماثة والصبابة والطبع كلها توحى لنا بأهمية التجربة الذاتية في الحب<sup>0</sup>

ويخيل إلينا أن الطبيعة الساحرة وتعلق الشاعر بمكان بذاته لدى تاج الملوك الأيوبي (ت 579هـ)، يسهم إلى حد كبير في تكوين ذوق الشاعر وترقيق مشاعره حتى غدا عشق الجمال ديدنه ففاضت الطبيعة الغناء في شعره وأصبحت عنصراً هاماً من عناصر أسلوبه وفكره كما نضحت الحروب على شعره وأصبحت عنصراً هاماً من عناصر خياله في كل أغراضه الشعرية ومنها الغزل ولا ندري سبباً غير الشاعرية لكي يتأتى له كل ذلك وحتى أنها شملت حسن الهندام ولطف الطباع مما حدا بابي شامة المقدسي أن يصفه بقوله (كان تاج الملوك حسن الثياب، مليح الأعطاف)<sup>(3)</sup>

الحب والغزل عند تاج الملوك الأيوبي منوع الاتجاهات كثير الأهداف - إذا صح

(1) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 333.

(2) الوساطة بين المتنبى وخصومه: 18.

(3) الروضتين في أخبار الدولتين: 44/2.

التعبير - فمن ولعه في الطبيعة (الشام ومصر) إلى شغفه بالخمرة ومجالسها وندمائها والى بكائه أحبابه وغلمانه، انه يعيش حياة لاتشوبها شائبة مع الحبيب، ولم يخن عهده ولم ينس دهره قد انقضى بالمسرات والملذات، يقول: (1)

إذ نحن في عيش أمانا صفوه  
روحان مجتمعان، لن يتفرقا  
من أن يشاب فكان ماء سلسلا  
يوما على ملك ولن يتبدلا

وهو باك أيامه التي عاشها في دمشق قائلا: (2)

هذه جنة النعيم ، وأما  
لا تلمني إن ابك عيشي فيها  
غيرها فالجحيم ذات الضرام  
فهو عندي المحسوب من ايام

ويعدل عن دمشق بعد أن تعلق قلبه بمصر ونيلها وصبا فؤاده لحسناواتها وغلمانها مما حدا به إلى تفضيل النيل على الفرات...؟! !! قائلا: (3)

شربت من الفرات ونيل مصر  
ولي في مصر من أصبو إليه  
أحب إلي من شط الفرات  
ومن في قربه أبداً حياتي

والمعروف أن الدعاء مناجاة النفس المؤمنة لله ﷻ ولكن تاج الملوك يدعو متمنيا الموت ان لم يكتب الله له قضاء مناه من الحبيب: (4)

فيا رب إن لم تقض لي منه بالمنى  
واني لاستشفي من الموت بالردى  
فكن يا الهي بالمنية قاضيا  
(وحسبك داء أن ترى الموت شافيا) (5)

(1) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 211.

(2) نفسه: 237.

(3) نفسه: 130.

(4) نفسه: 250.

(5) ينظر: كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 471/2.

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وشتان بين موقفه هذا وفكرته الحماسية البطولية في تفضيله الموت يوم الوغى على طيب الحياة مسالما 0

ولرقة الأسلوب في المقدمات الغزلية اثر يبدو واضحا في قول الأبله البغدادي (ت 579هـ):<sup>(1)</sup>

أقول للغيث لما سال واديه	تحدثني عن جفوني يا غواديه
بيني وبينك سر توصفين به	لولا الحبيب لما تمت دواعيه؟
أعرت مزدك أجبانا بكيت بها	فمن أعارك ضوء البرق من فيه

ويلاحظ هذه البساطة والعذوبة والانسجام ما بين فكرته الرائعة وألفاظه السلسة وهذا التناغم بين محب أنهكه البكاء وألم الفراق وغدت سحابة الصباح كاتمة لأسراره وقد أعارها جفونه الباكية وجاء سؤاله متعجبا متحيرا: من أعارك ضوء البرق الذي هو شدة بياض ثغر الحبيبة عند الابتسام؟ ويؤكد الأبله على أن التجربة الذاتية في الهوى هي حقيقة الحب والمشاعر الإنسانية حيث سار ببيته مسار المثل في قوله:<sup>(2)</sup>

لا يعرف الشوق إلا من يكابده      ولا الصباية إلا من يعانيتها

ويستعين الشاعر ابن الدهان (ت 581هـ) بتكرار الاستفهام ليضعف من شدة التساؤل الذي استهل به غزله والذي يدل على ما في نفس الشاعر من لبس وتعقد وحيرة، والمحب لا طاقة له بالهجر فكيف به يقابل بالفراق والكره والتجافي، ويبلغ به ولعه إلى اختلاق الأعذار لميله ونفوره فهو كالغصن والغصن حر في ميلانه وتكثر الأمور العجيبة في غزله حتى انه يعجب من أمر حبه وقد بات مقتولا بسبب هذا المحب المتعمد بقتله وفي هذا يقول ابن الدهان:<sup>(3)</sup>

(1) ديوان الأبله البغدادي: 305-306، (رسالة ماجستير).

(2) نفسه: 221.

(3) ديوان ابن الدهان: 35.

أبي جلد أن احمل البين والقلبي ؟  
وميلك الواشي إلى الصد والندى  
ويقتلني عمدا لأنني أحبه  
فكيف جمعت الصد لي والترحلا ؟  
ولا عجب للغصن أن يتميلا  
أليس عجيبا أن أحب فاقتلا ؟

القتل في لغة الحب (التذلل)<sup>(1)</sup>، يقول امرؤ القيس:<sup>(2)</sup>

أعرك مني أن حبك قاتلي  
وانك مهما تأمري القلب يفعل ؟

ويمكن القول أن بيتي الشاعر سبط ابن التعاويذي (ت 583هـ) من سحر العيون يمكن عدها- حسب ما نرى- من السحر الحلال، تكتنفهما روح المفاجأة واللطافة معا، وأجاد في فكرة نكية منحت العيون الإنسانية الحدس والفراسة التي أطلق عليها بعضهم (لغة العيون) نراه يركز في غزله على العيون تاركا المرأة التي توحى إليه وتوجه عاطفته وقد نجازف إذا افترضنا تأثره بقول احد الفلاسفة القدماء (أول العشق النظر وأول الحريق الشرر)<sup>(3)</sup> لتأمل قوله:<sup>(4)</sup>

عيناك قد دلنا عيني على  
والعين تعلم من عيني محدثها  
أشياء لولاهما ما كنت ارويهما  
إن كان من حزبها أو من أعاديها

وما أحسن قوله وهو صاحب اكبر مصيبة أصابته في عينيه!! ومن المرجح أن نكته في عينيه خلقت هذه الالفة الحزينة في قلبه وأحالت دنياه إلى حنين وشكوى حيث يقول:<sup>(5)</sup>

إن تتكروا نفس الصبا فلأنها  
وإذا الركائب في الجبال تلفتت  
مرت بزفرة قلبي المحزون  
فحنينها لتلفتني وحنيني

(1) شرح المعلمات السبع: 91.

(2) ديوان امرؤ القيس: 13.

(3) البصائر والذخائر: 244.

(4) ديوان سبط ابن التعاويذي: 490.

(5) نفسه: 420 .

إن الحياة القلقة المشردة التي تقتقد الوطن والاستقرار تركت بصماتها على حياة أسامة بن منقذ (ت 584هـ) بشكل جامع ولكن ذهاب الشباب والآمال الضائعة والحنين إلى الذكريات رسمت غزله العفيف بالحديث المبهم عن حبيبة حرم منها فألهب ذلك قلبه حنينا ولوعة، ولذا فإنه يتحدث عن أشواقه ويسترجع ذكرياته فتمتلئ نفسه بالحنين، من ذلك قوله: (1)

ما يريد الشوق من قلب معنى	ذكر الالاف والوصل فحنا
حسبه ما عنده: من شوقه	وكفاه من جواه ما اجنا
كلما شاهد شمالا جامعا	طار شوقا، وهفا وجدا، وانى

يبدو الحزن والشكوى غالبا على أبياته، وإن كان هذا حال المحبين، فإن أسامة بن منقذ لم تعد شاعريته قادرة على أن تفرق بين ما يعده في ديوانه غزلا وما يعده شكوى من الفراق و وصف الحنين والاشتياق، لأن منبعهما واحد (2) فكان إذا ذكر التربة و الوطن حن إليهما حنين الإبل إلى أعطانها على حد وصف الجاحظ. (3)

والنسيب ووصف الحنين يلتقيان في أكثر المعاني، ومن الملازمات لذلك، الهجر والزفرات والطيف والسهر، وترقبه للنسيم الهاب من جهة أحبابه ويصل خيال المحب إلى أن البرق لهب زفراته، وإن مياه المطر بحر دموعه، وهذه المعاني جسدها أسامة بقوله: (4)

ألقى نسيم الريح من تلقائكم	بخفوت مكروب، وأنة موجع
وإذا السحاب سرى فنار بروقه	من زفرتي، ومياهه من ادمعي

(1) ديوان أسامة بن منقذ: 100.

(2) ينظر: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 226.

(3) ينظر الحنين إلى الأوطان: 4.

(4) ديوان أسامة بن منقذ: 66، 81.

ويشابه أسامة بن منقذ في هذا اللون الغزلي كثيراً من الشعراء، منهم الملك المظفر تقي الدين عمر (ت 587هـ) نراه ينادي أحبابه قائلاً: (1)

أحبابنا والهوى لا حلت بعدكم  
فان احل بخلت كفي بما ملكت  
عن العهود ولا استهواني الغير  
ولا أجبت الندى إن قيل يا عمر

وعلق عماد الدين الاصبهاني على أبياته قائلاً (ما أحسن إيقاعه الندى ها هنا من العطاء موضع النداء من المناداة لأنه لا ينادى الا للعطاء) (2) ومن الجدير بالذكر أن أسامة بن منقذ والملك المظفر والملك الأمجد يتمتعون بالمكانة الاجتماعية والسياسية، ومن أرباب الفروسية لذا بدت مسحة الوقار والنزاهة، واستخدام الإشارة والإيماء في حديث الهوى ولغة الغزل، وبذلك غابت الخصوصية الفردية وحل مكانها التعميم (3)

ولا يغيب عن بالنا أن الحالة النفسية هي موطن الحب ورسول الهوى وبالنسبة للشاعر منهل الغزل، فيا للسطوة العجيبة لهذا الحب الذي أصم أذنيه عن لوم العذال، وبسبب شقائه فهو بين الحياة و الموت، ويقضي ليله مهموماً، يصارع العذاب والقلق... ورغم ذلك فعقل الشاعر مدرك لصواب الأمور إلا انه ابتلي بالحب، ويدعو للحبيب بالسلامة من الشقاء الذي أضناه.. هذا الغزل فيه رقة وسهولة وعدم تكلف وفي ذلك يقول القاضي الفاضل (ت 596هـ): (3)

انا في العذاب، فلا اعي  
واذا تلاقت رفقة  
مولاي قد نلت المنى  
أ أخاف ان تبقى همو  
وعلى الحقيقة لو اذن  
ش كما أريد ولا أموت  
فحديثها ما قد لقيت  
فاسلم فاني قد فنيت  
مي في هواك وما بقيت  
ت بأن اموت إذن حييت

(1) خريدة القصر وجريدة العصر/ بداية شعراء الشام: 97.

(2) نفسه.

(3) ديوان القاضي الفاضل: 20/1.

انه يذكرنا بأرق شعراء الغزل، وبما سنه قدامة بن جعفر في أن الغزل يحتاج (أن تكون الألفاظ لطيفة مستعذبة مقبولة)<sup>(1)</sup>

ومن الحب ينطلق الوفاء والإخلاص والحنين إلى الأوطان والخلان، وتتألف خطرات شجي حزين بعد أن تفرقت الأحباب وبعدت ارض الخلان والأصحاب، ومن شدة التواصل والتمازج الروحي بين كل تلك المؤثرات تنبئ أنه الحب وغزل التصابي وتخضعان لحكم جمال الطبيعة<sup>(2)</sup>

ومن هذا المنطلق يتراءى لنا عماد الدين الاصبهاني في مقدمات قصائده الطوال محبا تارة وأخرى شاكيا، وغالبا ما يكون واصفا- وبأصدق تعبير- دمشق، التي تعلق قلبه بحبها قائلا:<sup>(2)</sup>

لو قيل لي : ما تشتهي من هذه الد  
نيا ؟ لقلت : سواكم لا اشتهي  
ما كان ارفه عيشتي والذها  
من ذا الذي يبقى بعيش ارفه؟

ومن غزله المستطرف الذي يبهج القلوب حيث تتداعى المعاني في وصف جمال الحبيب في ألفاظ متناسقة خفيفة الظل قائلا:<sup>(3)</sup>

بأبي معتدل القا  
حاكم في مهج العشد  
ممتعد، او ما يخ  
شبه ريم، غصن بان  
مة في عطفيه نشوه  
لاق لا يقبل رشوه  
شى من المظلوم دعوه؟  
بدر دجن، شمس ضحوه

ويلفت انتباهنا في غزله مصطلحات قضائية، ولكنها ملائمة لما أراد التعبير عنه في مجال المخاطبات الاخوانية. في حين يبدو من شعر ابن الساعاتي (ت 604هـ) انه من الشعراء الذين همهم الأكبر الاستمتاع بما في الحياة من جمال طبيعي،

(1) نقد الشعر: 198.

(2) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 448.

(3) نفسه: 438.

ولاسيما جمال الطبيعة الساحرة، في حين غزله لا يستثير في النفس شعور المحب العاشق انه غزل تقليدي من الدموع والجوى والسهاد مع نفس شعري طويل قلما يجاريه فيه احد، يقول متغزلا مستهلا به في مدحه القاضي الفاضل: (1)

لهفي على غصن النقا المتمايل	يهتر معتدلا وليس بعادل
لا يستفيق منازل عاشقه	بفتور لحظ كالقضاء النازل
فشعاره من فارس ونجاره	من عامر، ولحاظه من بابل
يا قلب عاشقه وسهم جفونه	من الزم المقتول حب القاتل؟

أوصافه حسية متداولة ويمكن عده متميزا لما اثر عنه من محاولته التجديد والابتكار في معانيه، لذا أحب الناس غزله، فانشدوه وغنوه في مجالسهم (2). ويمكن أن نوجز غزل ابن الساعاتي بقولنا : حب عام سداه ولحمته الوصف ومقدرة تخيلية يمازجها هاجس الحرب وأدواته وبطله (الممدوح)، فأنى له كل ذلك وهو يقول: (3)

فؤادي وفودي بعد لمياء اشيب	وقلبي على جمر الغضا يتقلب
له قامة كالسمهري مثقفا	ولحظ كسيف الدين في الحرب مقضب

مازلنا ونحن نتفحص مقطوعات الغزل، نفنقد الغزل الحقيقي الذي يعكس المعاناة الصادقة للمحب النابضة بالوفاء والإخلاص. ويبدو أن للشعراء منافذ كثيرة للتفيس عن عواطفهم، ولذا لم يعودوا بحاجة للحب والغزل العفيف، يقول في ذلك الدكتور يوسف خليف (الإسلام هو الذي حال بين عرب البادية وبين ألوان الحب الأخرى الحسية، فلم يجدوا لعواطفهم متنفسا إلا في هذا الحب العفيف الذي لا يجرمه الدين الجديد ولا ينكره) (4)

(1) ديوان ابن الساعاتي: 215/2.

(2) ينظر: الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 282.

(3) ديوان ابن الساعاتي: 1 / 117.

(4) الحب المثالي عند العرب: 65.

ويخضع بعض شعراء بني أيوب غزلهم لفن الغناء، بألفاظ سهلة مناسبة عذبة تصلح للتداول على شفاه الناس أو مما كان يشدو بها أهل الشارع على رأي ابن سعيد الأندلسي، ومن ذلك قول اسعد بن منجا الدمشقي (ت 605هـ):<sup>(1)</sup>

يا من به أنا معرم  
لحم فمثلي يرحم  
لم يبق في بقية  
أجفى بها أو أظلم  
بالله خبرني أو صلي في الكتاب محرم؟  
ودمي حلال؟ ما أرى  
يفتي بهذا مسلم

ولحياة القصور والجاه والمتع الدنيوية، مكان شاسع آنذاك، والغناء من لوازم تلك الحياة ومن نوادر تلك المجالس التي تروي حكاياها كتب الأدب والتاريخ وللاستزادة ينظر (الغصون اليانعة) في قصة الجارية التي صورت في خدها بالمسك حية وعقربا<sup>(2)</sup>

ونحا ابن سناء الملك (ت 608هـ) منحى حسيا في انفعالاته الواهنة اتجاه المرأة ونظر لها متعة لإثارة الرغبة وجعل بعادها موتا له وقربها حياة يستمتع بها ومع ذلك فهو عفيف معذور حين يقول:<sup>(3)</sup>

وما كنت لولا أنت القي إلى الهوى  
وسكرانة الأعطاف صاحبة الصبا  
خلوت بها ثم افترقنا ولم يكن  
وان كان ذنبي للمليحة عفتي  
زمامي ولا أعطي القياد إلى الحب  
تميت وتحيي بالبعاد وبالقرب  
سوى نهلة من مبسم بارد عذب  
فلا قبلت عذري ولا غفرت ذنبي

وتناهى غزله الحسي حتى فضل ليالي الوصل واللقاء على ليلة القدر وكرر ذلك في أبياته المتفرقة<sup>(4)</sup>

(1) ينظر: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة: 147، 148.

(2) نفسه.

(3) ديوان ابن سناء الملك: 2 / 363، 364.

(4) ينظر: نفسه: 388، 390، 405، 406.

والموت عنده يعني الحرمان من الوصل وحياته فرحة بالوصل،  
وينزع إلى العقل والفكر ليأتي بهذا المعنى الطريف الذي ينوه به الشاعر  
ابن سناء الملك، وهو أن حياة الفتى أمام خيارات متعددة وهذه الخيارات قد تكتب له  
الحياة أو الموت يقول: (1)

أموت غراما حين احرم وصل من      هويت وأحيا فرحة حين ارزق  
وان الفتى يحيا بما قد يميته      فبالماء يحيا وهو بالماء يغرق

الثراء والشباب مطلبان عسيران - أحيانا - في حياة الشعراء، وفي تناقض  
مستمر، ولكن ادعاء الشاعر فتیان الشاغوري (ت 615هـ) بان النساء يردن (الثراء  
والشباب)، يبدو مفتعلا وربما بسبب فقره وسوء معاملة أهل بلده (دمشق) له خلق له هذا  
الشعور النفسي المضطرب، وبدأت أبياته نائية عن الغزل ورقته      ولينه حين  
يقول: (2)

إذا ما امرؤ ود الغواني صرمنه      وأضرمن في مكنونهن له العذرا  
يردن ثراء دائما وشبيبة      فاحسن بقدري عندهن اذن قدرا  
هريق شبابي واستشن لشقوتي      اديمي فلم املك شبابا ولا وفرا

وفي أحوال أخرى يلغي الشاعر الغزل بامرأة معينة، وإنما تشوق إلى الجمال  
العربي ونفحات وجدانية تقترب مما نجده في أشعار المتصوفة<sup>(3)</sup>، كما سنرى في قوله  
يبث شوقه إلى أهل نجد متغنيا بالجمال العربي: (4)

اقر نجدا ومن بنجد سلامي      ان نجدا مأوى غريم غرامي  
قف وسل عن قلبي إذا جئت سلعا      تلقه عند ساكنات الخيام  
عند غيد يبسمن عن اقحوان      ولأل بيض وحب غمام

(1) ديوان ابن سناء الملك: 419/2.

(2) ديوان فتیان الشاغوري: 150.

(3) الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 228.

(4) ديوان فتیان الشاغوري: 40.

إن موقف فتیان الشاغوري نوع من الاحتذاء لتقليد شعري قد أحبه الناس وألفوه لما فيه من تركيز الحنين لنجد والحجاز 0

وتعلو حدة القلق والاضطراب عند فتیان الشاغوري، فيدعو من خلال تناقضاته إلى العدول عن التغزل بالنساء العربيات والتغني بالحسان التركيات قائلًا: (1)

ولا تقل حبذا نجد وساكنه  
ولا تعرج على سلمى بذى سلم  
قدك انتب ما بنات العرب إذ زهيت  
بالحسن مثل بنات الترك والعجم

للنفس أن تهفو، وإن تتال حظها من لذة الدنيا، والإقبال على الحياة عند ابن النبيه (ت 619هـ) تعني أن يلم بمجاميع المتعة من روضة غناء وأطيّار وأزهار وخمرة وسقاة، كل ذلك يرفل بجمال محسوس، هذا هو مذهبه في الاستمتاع مضافا إليه غزله واستعطافه للحبيب وتذله في ذلك الاستعطاف تزيد رفته عذوبة وأبياته الآتية يتصاعد منها تذوقه لجمال العبارة وموقعها من النفس نجده يقول: (2)

أفديه إن حفظ الهوى أوضيعا  
ملك الفؤاد فما عسى أن افعل  
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه  
حلوا فقد جهل المحبة وادعى  
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصد  
ب النحيل فقد عفا وتضعضا  
هل من سبيل أن أثبت صبابتي  
أو اشكي بلوأي أو أتضرعا  
اني لاستحي كما عودتني  
بسوى رضاك إليك أن أتشفعا

وكالعادة الجارية في هذا العصر، الشعراء يمزجون بين الغزل والخمرة والطبيعة، وتتقاسم آثار الحروب الصليبية البارزة من جهة، والميل للتقليد والمحاكاة من جهة أخرى، ناهيك عن مراعاة الذوق العام السائد، وألح الشعراء في الغزل بالمذكر حتى عده بعض الدارسين فتنة العصر (3). وليست وحدها (الديار الحجازية النجدية) تبرز في

(1) ديوان فتیان الشاغوري: 456.

(2) ديوان ابن النبيه المصري: 149.

(3) ينظر: الشعر العراقي في القرن السادس الهجري: 274.

مقدمات قصائد الغزل وصور الطلل عند الشاعر راجح الحلي (ت 627هـ)، فقد تمثل حنينه ولواعج شوقه للعراق وساكنيه وعلى وجه التحديد- الحلة- أو بابل كما يظهر من قوله:<sup>(1)</sup>

أحن إلى أكناف شرقي بابل	وغير غريب أن يحن غريب
وارتاح فيها للرياح إذا سرت	مراضا كأنني للنسيم نسيب
واني لاستهدي شذا نفحاتها	وان شب نار الشوق منه هبوب

الشاعر الحاذق يتذوق الألفاظ ذات الوقع الشديد على النفس، وما هذا الحنان وتلك الغربة ومسرى الرياح، وتآلف النسيم والنفحات إلا ألفاظ تدغدغ مشاعر الإنسان وتلاعب هوى نفسه والراجح لدينا أنها تفعل ذلك في كل خطاب شعري تتواجد فيه، و هذا ما يتحسسه المتلقي الذي يكمل الصورة الأدبية مع الشاعر والناقد<sup>(2)</sup> وتستمر نداءات راجح بن إسماعيل الحلي لأرض العراق داعيا لها بالسقيا، وانه على عهد الهوى وان تضاربت النفوس في كل اتجاه حيث يقول:<sup>(2)</sup>

أ يا ساكني ارض العراق سقاكم	من الغيث منهل السحاب سكوب
أ نبيكم أني على العهد بعدكم	مقيم وأهواء النفوس ضروب
فلا تحسبوا أني على البعد عنكم	ضرعت ولا استولت علي خطوب
يا رعى الله زماناً وهوى	مر بالحلة لو كان يؤوب

وبرغم مقدماته الغزلية والصور الطللية فقد تابع موجة التجديد السائدة في عصره التي تزعمها عرقله الكلابي وابن عنين اللذان ناديا بترك التغني بمرايع الحب القديمة، يقول راجح بن إسماعيل الحلي:<sup>(3)</sup>

(1) ديوان راجح الحلي: 142، 151، (رسالة ماجستير).

(2) نفسه.

(3) نفسه: 175.

فدعني من قفا نيك  
ومن أقفار ملحوب  
ومن ارض بها الجؤذ  
ر لا يأمن من ذيب  
ومن قولك من ذا السر  
ب في زي الاعارب

وتبدو الاستفادة واضحة من آي القرآن الكريم والتراث العربي في أبياته آلتية يقول راجح الحلي: (1)

وداء الهوى أعيأ فما لمريض  
شفاء ولو أن المسيح طيب  
خليلي هل حد ثتما أو رأيتما  
سوى الحب موتا للرجال يطيب؟

حيث جعل داء الهوى ماله شفاء وذكر معجزة النبي عيسى عليه السلام في شفاء المرضى، واستمد من جميل بثينة معناه في قوله: (2)  
خليلي فيما عشتما هل رأيتما  
قتيلا بكى من حب قاتله قبلي

ولكنه أسرف في جعله موت الرجال (حبا) أفضل ما يطيب لهم في الحياة، وجعل قتله بيد الساقى حرصا منه في روضة غناء قائلًا: (3)  
واحرص على قتلي بها في روضة  
مرسومة بمصارع الشهداء

ويا حبذا لو علمنا كيف تم له ذلك في حرصه على القتل هكذا مقارنة بمصارع الشهداء  
حقا...!!

وعندما ينسج الشاعر ابن دنينير اللخمي (ت 627هـ) قصيدة على منوال قصيدة المتنبي التي مطلعها: (4)

على قدر أهل العزم تأتي العزائم  
وتأتي على قدر الكرام المكارم

(1) ديوان راجح الحلي: 142، 141، (رسالة ماجستير).

(2) ديوان جميل بثينة: 73.

(3) ديوان راجح الحلي: 99، (رسالة ماجستير).

(4) كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 401/2.

نجده يبتعد في مضمونها عن فلسفة المتنبى في مديحه، يقول ابن دنينير: (1)

أشافتك من أطلال ليلي معالم	فأبدت شؤون الدمع ما أنت كاتم
أم القلب اثر الظاعنين صباية	دعا فأجابته الدموع السواجم
وعاذلة باتت تقول ملحمة	أمثلك بيكي الربع والربع طاسم ؟
فقلت لها كفي الملام فإنما	هي الدار أقوت أيها والمعالم
عهدت بها شرح الشباب بوصل من	هويت وغصن العيش اخضر ناعم

يخيل إلينا أن الشوق ولىلى والدموع عناصر أساسية لنجاح لغة الغزل، وقصائد الشعراء تعكس مزاجهم وطبعهم وخلقهم ومذاهبهم في الحياة، إضافة إلى مستواهم الثقافي وظلال روحهم ونظرتهم إلى الحياة وطريقة تصويرهم وتعبيرهم، وإذا أمعنا النظر في مقدمته الطللية، جاء تعبيره عن دموعه تقليدياً باهتا قياساً بما يقوله عرقله الكلبى في قصيدته المشهورة: (2)

كتم الهوى فوشت عليه دموعه	من حر نار تحتويه ضلوعه
صب تشاغل بالربيع وزهره	زمننا وفي وجه الحبيب ربيعته

النعمة مريحة غمرت أفاظه بعد أن خلق تلك العلاقة بين كتم الهوى والوشاية به من قبل دموعه، ونلاحظ هذه المشاغلة بالربيع وإذا به (أي الربيع) قد تجسد في وجه الحبيب ولذا يقول احد النقاد في معرض حديثه عن أوجه التباين في نظرة الشعراء (إذ كل إنسان أمة واحدة فيما يصله بالحياة متأثراً ومؤثراً...) (3) وعلى نقيض الشاعرين ابن دنينير وعرقله الكلبى فان الملك الأمجد بهرام شاه (ت 628هـ) يكفكف دموعه خوف الكاشحين والعدال قائلاً: (4)

(1) ديوان ابن دنينير اللخمي: 318، 319، (رسالة دكتوراه).

(2) ديوان عرقله الكلبى: 58.

(3) الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية): 127.

(4) ديوان الملك الأمجد: 138.

أكفكف الدمع خوف الكاشحين على      مواطن أقفرت منهم وآثار  
الدار دار أحبائي الذين قضوا      والوجد وجدي والأفكار أفكاري

ونلاحظ في أبياته الآتية، شكوى المحب مستخدماً التعميم، لا التخصيص، والرمز لا البوح الممج، انه رزانة المحب الذي تفرض عليه شخصيته بعض القيود، وأطف ما نشعر به اتجاه أبياته العاطفة الصادقة يقول: (1)

كل شكابته فيه وما أحد      في الناس إلاله شأن يعانيه  
ربع به كانت الليلات ، وهي ضحى      بطيب عيش قطعنا في ضواحيه  
بكى العدو عليه من صبابته      وحسب ذي الشوق أن تبكي أعاديه

ويصل ذروة مشاعره وهو يناجي الأحبة سائلاً عن الليالي، مؤكداً أن لا خيار أمامه غير أحبائه إلا انه يعوزه الحظ الذي خانته، فهو يحيا ويموت كالجثث التي تبلى وتخرج يوم النشر من قبورها مذعورة، يقول: (2)

أين الأحبة ؟ لاشيء يعادلهم      عندي ،ولو عدلوا في الحكم ، أو ظلموا  
هم المنى ، لو وردت الموت من ظمأ      وقيل لي: ما الذي تختار ؟ قلت: هم  
وإنما الحظ يحيا أو يموت كما      تبلى وتنتشر من أجدائها الرمم

انه الحب، سواء أعدل المحبوب أم ظلم ؟ وتظهر شخصيته الشعرية هنا قلقة متوترة متسائلة بدون جدوى، وأخيراً يعلق الشاعر هذا القلق والتوتر والتساؤل بالحظ الذي يفي حيناً ويخون أحياناً

وطغى الشوق والحنين إلى الوطن والأحبة على أفكار الشاعر ابن عنين (ت 630هـ) بعد ما تعرض له من النفي والبعد والترحال حتى اتخذت أفكاره طابعاً

(1) ديوان الملك الأمجد: 257.

(2) نفسه: 292.

خاصا مملوءة بالشوق لدمشق وأهله ويخيل إلينا، أنها تحولت لتكون عشقا للوطن، وندما على فراقه، فمن ذلك الحب والندم والحسرة خلق لشاعريته طريق جديد سلكه وهو يتوسل ويستعطف الملوك ليعود إلى الديار، أصبحت دمشق هاجسه الدائم لا يرى الدنيا إلا فيها ويحتقر المال والمتاع والمعرفة ويضحى بذلك كله للعودة إليها، نسمعه قائلا: (1)

ولو أني خيرت في هذه الد  
نيا لما اخترت غير أهلي وداري

ويرق أسلوبه ويحن ويتوجع استعطافا للعودة لمحبيبته الأثيرة يقول: (2)

ماذا على طيف الأحبة لو سرى  
وعليهم لو سامحوني بالكرى  
جنحوا إلى قول الوشاة فاعرضوا  
والله يعلم أن ذلك مفترى  
لا تجمعن علي عتبك والنوى  
حسب المحب عقوبة أن يهجرا  
عبء الصدود اخف من عبء النوى  
لو كان لي في الحب أن أتخيرا

ونؤكد رأي الدكتور عمر موسى في اتخاذه الحنين إلى دمشق طريقا جديدا لبث لواعجه وآلامه النفسية حيث يقول (ونسمع له الآن يستهل مدح سيف الإسلام طغتكين بوصف حنينه لدمشق، مستعيضا به عن النسب التقليدي). (3)

استطاع ابن عنين أن يحظى بفرصة منحه إياه شوق دمشق ليتغزل بالمرأة التركية واصفا مفاتها، ومفضلا إياها على المرأة العربية في مقاييس الجمال يقول: (4)

لاتعرضن لضيق المقل  
فتبيت من امن على وجل  
واترك ظباء الترك سانحة  
لا تعترض لحبائل الاجل  
بيضاء تنظر من مصيقة  
سوداء تهزأ من بني ثعل

(1) ديوان ابن عنين: 76.

(2) نفسه: 3، 4.

(3) الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 313.

(4) ديوان ابن عنين: 40.

ومن المرجح أن تكون الأسباب النفسية في مقدمة الأسباب التي يعزى لها عمق اثر البيئة الحجازية في شعر ابن الفارض (ت 632هـ) وقد تركت البيئة الحجازية أثارا واضحة في شعره تتعكس في رقة اللفظ وسلامته وفي كثرة أسماء الاماكن الحجازية التي كانت تتردد فيه، كما تتعكس في ذلك الطابع البدوي الذي اتسم به بشكل عام<sup>(1)</sup> كان مولعا بالمحسنات البديعية كشأن غيره من شعراء العصر، مع وفرة العاطفة وتأججها وقوة الخيال وجموحه، ومن ذلك قوله يصف شدة نحول جسمه لما فيه من وجد وشوق ومحبة:<sup>(1)</sup>

أخفيت حبكم فأخفاني أسي      حتى لعمرى كدت عني اختفي  
وكتمته عني فلو أبديته      لوجدته أخفى من اللطف الخفي

وما أندى تلك اللمسة العذرية التي تشيع في غراميات ابن الفارض التي تجعلنا نشك في أنها من مقطوعات الحب الإلهي، بل نقول إنها من لون الغزل الإنساني...<sup>(2)</sup> وبالتحديد الغزل العذري الذي عد الحب لونا من ألوان الابتلاء الرباني خصه الله بنفر من بين العالمين، حتى إنهم مؤمنون بأنهم مجموعون مع من يحبون يوم القيامة، وقد عبروا عن هذا اليقين في أشعارهم ومن أوائل العذريين الشاعر عروة بن حزام نجده عبر عن ذلك بقوله:<sup>(3)</sup>

واني لأهوى الحشر إذ قيل أنني      وغفراء يوم الحشر ملتقيان

نسمعه في حديثه عن الحب والهوى والضنى، أمرا المرء بالتخلي عن الحب وعلل ذلك بكون راحته عناء وأوله سقم وآخره قتل وتطرق إلى الموت والصبابة والحياة والفضل وثم الشهادة، وان لم يكن المرء أصلا ليتحمل ذلك فان الحب له أهله وذويه

(1) ديوان ابن الفارض: 152.

(2) ينظر: دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 84.

(3) كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس: 202/2.

يقول ابن الفارض وهو من جيد شعره وأعذبه في الغزل الصوفي: (1)

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل	فما اختاره مضني به وله عقل
وعش خاليا فالحب راحته عنأ	وأوله سقم واخره قتل
ولكن لدي الموت فيه صباية	حياة لمن أهوى علي بها الفضل
فان شئت أن تحيا سعيدا فمت به	شهيدا والا فالغرام له أهل
فمن لم يمت في حبه لم يعيش به	ودون اجتناء النحل ما جنت النحل

في الأبيات السابقة جمعت صوره الفنية الجمال والروعة لما عرف عنه من دقة الحس ورقة الشعور وتمكنه من الشعر إلا انه تعمق في قانونه الغرامي ورسم حياة ثابتة يكون الموت فيها صبايته، وموته محقق لسعادته، فجاء أمره بالموت شهيدا لما للشهادة من سمو وفضل وهذا غيظ من فيض سلطان العاشقين (2) وقد قيل قديما (فلانا قتل الهوى لاعقل ولاقود) تعبيراً عن شدة عاطفة الحب وقوة تأثيرها، وإشارة إلى ما قد يسببه الحب من ضعف وسقم لصاحبه وما يتسم به من شدة (3).

ولن نجانب الصواب - إن شاء الله - إذا قلنا ما للغة الغزل والتشبيب من أفضال على شعراء الصوفية لما لهذه اللغة من تعشق في النفوس وفرت لها داعي الإصغاء والانسجام والإعجاب، وكذا ما للطبيعة ورموزها من تأثير مباشر في النفس البشرية كما أشارت المصادر إلى أن ابن الفارض كان يهوى مشاهدة البحر والمناظر الطبيعية كالحقول والرياض... وهكذا غدا الشعر والتغني به أقوى ما ابتدعه الصوفية لتحريك وجدانهم الديني (4)، وذلك لان لوزن الكلام بذوق الشعر تأثير في النفس، فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون وإنما يوجد الوزن في الشعر ولو

(1) ديوان ابن الفارض: 77.

(2) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 82.

(3) ينظر: الإسلام والصحة النفسية (دراسة نفسية): 143.

(4) ينظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 95، وينظر: الحضارة الإسلامية في القرن

الرابع الهجري: 21/2.

زحف المغني البيت الذي ينشده لاضطرب قلب المستمع وبطل وجده وسماعه ونفر طبعه لعدم المناسبة وإذا نفر الطبع اضطرب القلب وتشوش، فالوزن إذن مؤثر فلذلك طاب الشعر<sup>(1)</sup>

وإشارة ابن عربي (ت 638هـ) في ترجمانه للهوى جاء غاية في الرقة واللطافة ، لننظر إلى أبياته أولاً:<sup>(2)</sup>

ليت شعري هل دروا	أي قلب ملكوا
وفؤادي لو درى	أي شعب سلخوا
أتراهم سلموا	أم تراهم هلخوا
حار أرباب الهوى	في الهوى وارتبكوا

الهوى عنده سقوط الحب في القلب في أول نشأة في قلب المحب لاغير، فإذا لم يشاركه أمر آخر وخلص له وصفا سمي حبا<sup>0</sup> فإذا ثبت سمي ودا، فإذا عانق القلب والأحشاء والخواطر لم يبق فيه شيء إلا تعلق القلب به سمي عشقا، ومثال العشق عنده في أبياته إن المحب مبتلى في أمره بالنقيضين، موافقة المحبوب وهجره أن يكونا محبوبين له عاشقا لكل الأحوال فيه، هذه هي الحيرة لاغير. الشاعر ابن عربي، العارف الكبير والشيخ الأكبر كما يقول المناوي<sup>(3)</sup>، له معاناة في هواه وعذاله ليسوا كالعذال العاديين إنهم ينكرون عليه طريقته وأحواله لأنهم لايعرفون جمال من تعشق به، فانه يتجلى إلى قلب من شاء من عباده بضرب من ضروب المعرفة يقول:<sup>(4)</sup>

مازلت اجرع دمعي من غلتي	اخفي الهوى عن عاذلي وأصون
إن الفراق مع الغرام لقاتلي	صعب الغرام مع اللقاء يهون

(1) ينظر: إحياء علوم الدين: م/369/2.

(2) ترجمان الأشواق: 11.

(3) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: 513/2.

(4) ترجمان الأشواق: 50.

معلومة هي آلام الغرام، فلو أضفت لها آلام الفراق، يصح قوله (لقاتلي)، هذا المعنى البسيط الظاهر ولكن البيت الشعري عند سبر أغواره يشرح على ضوء قوله (ﷺ) ﴿ما ابتلي احد الأنبياء بمثل ما ابتليت به﴾<sup>(1)</sup> يشير إلى حاله في الرؤية الإلهية عند إسرائه ثم رجوعه إلى خطاب كفار قريش<sup>0</sup>

ولابن عربي تجربة ذاتية مفادها أن عشق الجمال في مذهب المتصوفة مباح فهو قبس من نور الله، وما حب (نظام) ابنة أمام مقام إبراهيم إلا تكأة له في عشقه الإلهي، استوحى من جمالها الإنساني معاني الجمال الإلهي<sup>(2)</sup> يقول في ذلك:<sup>(3)</sup>

طال شوقي لطفلة ذات نثر	ونظام ومنبر وبيان
من بنات الملوك من دار فرس	من اجل البلاد من أصبهان
هي بنت العراق بنت إمامي	وأنا ضدها سليل يمانى

وبعيدا عن تفسيره الصوفي العميق الغور فقد جعل البيت الأول كله تورية لبنت شيخه وذكر (بنات الملوك) لزهادتها، فالزهاد ملوك الأرض كما يقول ابن جبير<sup>(4)</sup> ولو حظ في أشعاره دأبه للفت أنظار الشعراء إلى مواطن الجمال في التعبير الصادق عن النفس والوجدان بعيدا عن مغريات الحياة. وشتان بين رؤية الشاعر المعنوية للجمال ورؤيته المادية حيث يسخر حواسه جميعها لكي يستمتع بالرؤية الحية للجمال وهذا شأن الشاعر ابن مطروح (ت 649هـ) فوق في تناقض غريب فهو يدعي الإمامة والقدرة في العشق قائلا:<sup>(5)</sup>

أنا في مذهب الغرام، إمام  
فسلوني من قبل أن تفقدوني

(1) ترجمان الأشواق: 52.

(2) ينظر: الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 543.

(3) ترجمان الأشواق: 83، 84.

(4) رحلة ابن جبير: 256.

(5) جمال الدين يحيى بن مطروح (حياته وشعره): 4، وينظر أيضاً: 173، 124.

ويبدو أن تبرمه وضيق نفسه روضاه على تجربة خوض كل ما في فن الغزل من أبواب مطروقة في عصره، فلم يترك تشبيها إلا وتذوق فيه شعره، فقد شغلته المرأة العربية وحاول محاكاة أبي الطيب المتنبّي، هادفا للتعبير عن انتمائه العربي منفسا عن عاطفته القومية، مؤثرا في نفوس الآخرين للشعور بهذا الانتماء يقول: (1)

بدوية كم دونها من ضارب  
بالسيف مرهوب السطا لم يؤمن  
من كان يملك قلبه من طرفها  
نال الخلود وليس ذاك بممكن

ونراه يتغزل بالعيون التركية الضيقة لأنها سيوف فتاكة يقول: (2)

حذار سيوف الهند من أعين الترك  
فما انتضيت إلا لتؤذن بالفتك

وشعره الغزلي عموما حسن جيد، رقيق اللفظ، يكثر فيه من المحسنات البديعية ومن ذلك قوله: (3)

وبحي من أنا في هواه ميت  
واغن مسكي اللمي معسوله  
كيف السبيل إلى وصال محجب  
عين على العشاق بالمرصاد  
لولا الرقيب بلغت منه مرادي  
ما بين بيض ظبا وسمر صعاد

ولداود بن عيسى الأيوبي في غزله تجربة لا تبتعد كثيرا عن تجارب معظم الشعراء، ولعل رهافة حسه ومتابعة المعاني بألفاظها الرقيقة تبدو في أبياته يعاتب العاذل ويفحمه بصفات الحبيب ليتخلص من لومه له وليعذره على ذلك الجمال: (4)

لو عاينت عيناك حسن معذبي  
عين الرشا، قد القنا، ردف النقا  
ما لمتني، ولكنك أول من عذر  
شعر الدجى، شمس الضحى، وجه القمر

(1) جمال الدين يحيى بن مطروح (حياته وشعره): 320، 126.

(2) نفسه: 369.

(3) نفسه: 302.

(4) الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية: 355.

قلة من الشعراء يتمتعون بحس تقاؤلي، وعلّة ذلك المسحة الحزينة في اشعارهم، وذلك السخط على الحياة والدهر والزمان وهي (نظرة تشاؤمية جاهلية المحتوى تنفي جدوى الحياة إذا كان الموت نهاية مطافها)<sup>(1)</sup>

ويمكن عد بهاء الدين زهير (ت656هـ) من الشعراء الذين يتمتع شعرهم بمسحة من التفاؤل، وإن صروف الدهر لا بد من زوالها، ومهما كثرت النوائب فإن الحياة عظيمة الإنعام ولها الفضل والامتنان. وبهاء الدين زهير يؤمن بالحب ويراه فضيلة في الإنسان، ويطلبنا بدعوته إلى الحب حب الحياة والإقبال عليها والابتسام دائما في وجهها... والحب يكسب الإنسان رقة وأدبا وظرفا وإحساسا بالآخرين، يقول:<sup>(2)</sup>

محي الله قلبا بات خلوا من الهوى      وعينا على ذكر الهوى ليس تذرف  
وما العشق في الإنسان إلا فضيلة      تدمت من أخلاقه وتلطف

ومما يبهج النفس أن الحب عند بهاء الدين زهير يدفعه إلى المجد ويدعو للحب بالجزاء والخير يقول:<sup>(3)</sup>

جزى الله عني الحب خيرا فانه      به ازداد مجدي في الأنام وعليائي

وأبياته الغزلية تراها مشبعة بأريج الأشعار الاندلسية، وأشعار الحنين والاستعطاف الحجازية، ولقد لعبت الكتب والرسل دورا في تخفيف الآم البعاد، يقول معاتبا بعد أن برح به الحب والانتظار:<sup>(4)</sup>

ترى هل علمتم ما لقيت من البعد      لقد جل ما أخفيه منكم وما ابدي

(1) صورة المجتمع العراقي في القرن السادس للهجرة من خلال كتاب خريدة العراق: 249، (رسالة دكتوراه).

(2) ديوان بهاء الدين زهير: 213.

(3) نفسه: 14.

(4) نفسه: 87.

فراق ووجد واشتياق ولوعة  
 رعى الله أياما تقضت بقربكم  
 وياليت عندي كل يوم رسولكم  
 تعددت البلوى على واحد فرد  
 كأني بها قد كنت في جنة الخلد  
 فاسكنه عيني وافرشه خدي

ومهما بلغت رقة أشعار بهاء الدين زهير فإنها لن تبلغ ما بلغته قصائد شرف الدين الأنصاري (ت 662هـ) الغزلية التي تولد في النفس النشوة والارتياح وتهزها هزة الثمل والطرب خلال الأوزان والقوافي لتحقيق الانسجام المنشود في شعره، يقول في غزليته الغنائية المشهورة: (1)

رفقا بروحي فهي لك  
 إنني أغار إذا الأرا  
 ويروعي واشي النسد  
 ما أقبح الصبر الجميد  
 وعلى السخي بما ملك  
 ك دنأ إلك فقبلك  
 يم إذا تذاك وميلك  
 ل بعاشقك وأجملك!

السابر لأغوار الأبيات السابقة يجدها لا تتاسب شرف الدين الأنصاري (الوزير الكبير المعروف بالوقار) (2) ولكنها تمس نفسه الإنسانية المحتجة خلف السياسة والوزارة، وهذه النفس الإنسانية مهما احتجبت فلا بد لها حين تجد أمامها متنفسا أن تتعري على حقيقتها في حميا الأهواء ولا يحجبها عن العاطفة الحقيقية منصب أو سلطان أو زهد أو ورع (3)

### الوصف:

(1) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: 378.

(2) ينظر: الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 340.

(3) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: 34.

يصل الشاعر إلى الإطلاع على الحياة وإدراكها حق الإدراك بواسطة الحس أحيانا، والفكر والخيال أحيانا أخرى، ولا يهمننا الوصف المجرد (الواقعي) كأن نصف الشيء كما هو من دون أن نعيره شيئا من شخصنا وخيالنا، أما الوصف النفسي فهو محور اهتمامنا الذي تمتزج فيه أحاسيس النفس، وما تشعر به تجاه الشيء الموصوف من ميل إليه وإعجاب به، أو صد عنه ونفور منه، وهذا الوصف يستعين كثيرا بالخيال ولسعة فن الوصف تنوعت أساليبه كثيرا، وفوق ذلك لا يخلو فن من الوصف، فهو في الحرب حماسة، وفي الجمال نسيب، وفي الفضائل مديح، وفي الحزن رثاء<sup>(1)</sup> وما أن تطور فن الوصف حتى تبدل إلى فن مستقل في العصر العباسي، وبدأ الشعراء بوصف الرياض والأزهار والبساتين، وافردوا بابا خاصا بشعر الطبيعة واتسع نطاق وصفها وتغيرت النعوت التي استخدمها العرب في أشعارهم، واشتهر من شعراء الوصف في ذلك العصر ابن الرومي وابن المعتز فقد سجلا ظواهر الطبيعة تسجيل فن ودقة وأخرجوها إخراجا فنيا حافلا بالحياة والحركة<sup>(2)</sup> وعلل الدكتور أحمد احمد بدوي قلة شعر الوصف قياسا بالأنواع الشعرية الأخرى، إلى أن الشعر كان يعيش يومئذ في كنف الأمراء والعظماء، فلم يفرغ الشعراء إلى الطبيعة وجمالها<sup>(2)</sup>

وشكلت الطبيعة لدى الشعراء - غالبا - رمزا لعالمهم النفسي وخلعوا عليها كثيرا من مشاعرهم الذاتية، ولهذا يعد اللجوء إلى الطبيعة و الالتفات إلى مشاهدتها من ملامح النزعة الوجدانية، تلك النزعة التي تجعل من ماء بردى نميرا ناجعا عذبا كان أو غير عذب، والعيش لا يخلو الا بين اكناف جِلِّق يقول عرقلة الكلبي:<sup>(3)</sup>

فيا بردى لا زال مأوك باردا      عسى شيم من حافتيك نمير  
أبي العيش الا بين اكناف جلق      وقد لاح فيها نضرة وسرور

(1) ينظر: الأسلوب ( دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية): 90.

(2) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 90.

(3) ديوان عرقلة الكلبي: 51.

ولا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار،  
وكذا المسموع لاستتارة القريحة باستجماعها وتثيبتها بملاذ السرور<sup>(1)</sup>.

وان تم للشاعر ذلك على رأي ابن خلدون، فهل استطاع الشاعر عمارة اليميني أن  
يستغل قوة التشخيص لديه ليصور الحياة في الجمادات والمعاني وإكسابها شخصيات  
تصور الحياة فيما لا حياة به<sup>(2)</sup> نلاحظه يصف الهرمين:<sup>(3)</sup>

خليلي ما تحت السماء بنية	تماثل في إتقانها هرمي مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما	على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفي في بديع بنائها	ولم يبتززه في المراد بها فكري

هذا مجرد وصف للهرمين، يفقد الاتصال المباشر العميق الشخصي بين  
الشاعر وبين رمز من رموز الطبيعة، حتى انه لم يصغ إلى سر الحياة الكامن في  
الهرمين، لكنه يصرخ بقوة شعوره بخلودها، عندما وصف بناءها بان الدهر يخشاها وأنها  
تشغل الأفكار بغموضها وأسرارها ولكنها تمتع الناظر بحسن بنائها ودقته فهي عظة  
للحي وخلود للميت<sup>(4)</sup>

وصف الشعراء كل ما يحيط بهم، ومنحوا الطبيعة حياة عامرة تغور إلى  
الأعماق، من بطولة وفروسية ونضال جياش بالغضب الظاهر والسطوة المجفلة، ورجل  
الحرب يعشق السلاح ويثق بنفاذ ضرباته فلا بدع أن يصور تاج الملوك الأيوبي من  
يحب بما يحب، حتى يشف شعره عن هويته وهوايته، نراه واصفا السيوف والرماح بمعان  
للفخر زاهية يقول:<sup>(4)</sup>

تقلل قرع الدارعين سيوفنا	ففيهن من طول القراع فلول
--------------------------	--------------------------

(1) ينظر: مقدمة ابن خلدون: 574.

(2) ينظر: ثقافة الناقد الأدبي: 248.

(3) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 279.

(4) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 64.

لها في صدور الدارين أفول

ونطلع من زرق الأسنة انجما

وبرغم كونها صورة مألوفة عند الشعراء المتقدمين إلا أن فضائل معانيها رائعة للنفس كل حين<sup>0</sup>

وتبدو دمشق وطبيعتها الساحرة متفضلة في تكوين ذوقه وترقيق مشاعره، حتى غدت عنصرا هاما من عناصر أسلوبه، فغوطة دمشق وأرضها غرامه وهي جنته...<sup>(1)</sup>

وغالبا ما يأتي شعر الوصف مبنوثا بين ثنايا الأغراض الشعرية الأخرى، إلا أن بعض النقاد ميزوا بين الشعراء، فقالوا: شاعر الطبيعة، وشاعر الإنسان، وجعلوا موضوعات الشعر ثلاثة: الله والطبيعة والإنسان<sup>(2)</sup>، والأبله البغدادي فضل أن يكون الوصف في أثناء مقدمة قصيدة المديح، ويحاول أن يمنح الطبيعة حياة، بعد أن ربط بينها وبين صفات الإنسان ومع ذلك لم يبد أثرها النفسي عليه يقول في وصف روضة:<sup>(3)</sup>

بدمعه الهاطل أزهارا

في روضة اضحك فيها الحيا

جداولا زرقا وانهارا

قد عانق المخضر من نبتها

ومن الإعجاب والروعة بمشاهد الحياة، يتأثر الشاعر بما يملك من مزاج ورأي مصورا ما يشهده ومفسرا ما يهدف إليه، ومن اشراقات الوصف عند بعض شعراء عهد بني أيوب ولعهم في وصف قلم ورسائل القاضي الفاضل، والرأي أن اهتمامهم هذا مرده إلى أفضل قلمه ورسائله في تحقيق النصر على الأعداء، فضلا عن منزلته الكبيرة في قلب صلاح الدين الأيوبي ومجده وحياته، وهذا الشاعر سبط ابن التعاويذي يصف

(2) ينظر: نفسه: 235-238.

(3) ينظر: الطبيعة في الشعر العربي: 11.

(4) ديوان الأبله البغدادي: 432، 661، (رسالة ماجستير).

رسائله قائلاً: (1)

رسائل كالسحب شم برقها السد  
تطوي على ضر ونفع فمن  
اري وبت منها على ذعر  
صواعق تردي ومن قطر

لقد مزج الشاعر بين الموصوف والطبيعة ورموزها من سحب وبرق وصواعق ومطر، وبين انفعالات النفس من ذعر وضر ونفع، وموت وحياة، هي في الحقيقة صورة أدبية وصفية، برزت في الساحة الشعرية لما حققته رسائل القاضي الفاضل من شهرة وصيت، بالإضافة إلى كونها وثائق تاريخية عن هذا العصر وكانت سنداً قوياً لتحمل أعباء الجهاد والصبر عليها (2)

ويبدو الاهتمام الذاتي بفن الوصف، كان واضحاً عند أسامة بن منقذ، فمن سأمه بالحياة وتجاربه الميرة وطول عمره، نحا منقاداً لآلامه وضعفه وكبره فوصف نفسه وتقوس ظهره ودببته على العصا (3)، وقصة العصا مع أسامة هي واقع متفرد، فجاء وصفه لها محاكياً لفلسفته الذاتية، فهو ممزق بين ذكريات صباه وشبابه وبين عصاه وواقعه المرير، إن عصاه مكرهة على تحمله بسبب أوزاره، تمشي به مشي الكليل المنقطع بثقله، وقد أعطانا صورة في وصف معاناة عصاه التي ألحقها بقائمة الهواجس التي يكابدها في كبره يقول: (4)

حملت ثقلي بعدما شبت العصا  
ومشت به مشي الحسير بوقره  
فتحملته تحمل المتكاره  
لا يستقل مقيدا بعثاره  
ما آذها ثقلي ولكن ثقل ما  
أبقى الشباب علي من أوزاره

هذه هي النفس الإنسانية شديدة التقلب في أحوالها، يقضي بها البشر اوطارهم بحسب منازل الشباب والعمر والهرم

(1) ديوان سبط ابن التعاويني: 194.

(2) ينظر: دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 211.

(3) ديوان أسامة بن منقذ: 269، 272، 274.

(4) نفسه: 275.

ومن قصة العصا مع ابن منقذ إلى ولع عماد الدين الاصبهاني في وصف دمشق وما فيها من أشجار وأثمار وعلى وجه الخصوص ثمرة (المشمش)<sup>(1)</sup>، وجرى حديثه عنها حبا وشوقا، فقد انعم الله عليها بخير عميم، وفرة بالثمار وتنوع الفواكه والخضار، كل ذلك يعد تذوقا للجمال وهو حاجة من الحاجات النفسية يرتقي إليها الإنسان عندما يشبع حاجاته الأساسية من جوع وعطش وامن وحاجة للانتماء والحب والتقدير، عندها يحقق الإنسان حاجته إلى الجمال والتذوق<sup>(2)</sup> ويشاركه هذا الشوق و الإعجاب بثمره المشمش الشاعر ابن نفاذ الذي أبدع في وصفه لها، ليس وصفا بصريا بل ذوقيا حسيا يحسه كل من يتذوق طعمها نلاحظه قائلا:<sup>(3)</sup>

يرشف ريق الندى مقلها      فيجتنيها معسولة الشنب  
تدوب في فيه من لطافتها      من غير مضغ يفضي إلى تعب

والشيء بالشيء يذكر كما يقولون فان حديث الحاجات الجمالية كالرغبة في الجمال تعود بنا إلى فكرة الإمام الغزالي (رحمه الله) عن الجمال وحبه يقول (إن الصور الجميلة مستلذة في عينها.... حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتفاح المشرب بالحمرة والى الماء الجاري والخضرة، من غير غرض سوى عينها...)<sup>(4)</sup>، وفكرة العامة عن الجمال وحبه، فهي بسيطة تنم- في رأينا- عن مبدأ الافتخار بخلق الله وعظمة تصويره وقدرته جل وعلا0

وتبدو حاجة عماد الدين الاصبهاني للجمال وتذوقه في أبياته التالية في وصف

(1) ينظر: ديوان عماد الدين الاصبهاني: 168، 316، 317، 330.

(2) ينظر: نظريات الشخصية: 424.

(3) كتاب الوافي بالوفيات: 40، وأيضا 42.

(4) إحياء علوم الدين: م/203.

(اللاترج):<sup>(1)</sup>

وأترجه صفراء لم ادر لونها  
 امن فرق السكين أم فرقة السكن؟  
 بحق علتها صفرة بعد خضرة  
 فمن شجر بانث وصارت إلى شجن

وصدق عماد الدين، فان هذه الفاكهة- بالذات- لا توصف إلا هكذا، ولنا في الرسول الكريم القدوة المثلى، فكان صلى الله عليه وسلم إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينه وأكرمها، وقال: إنها قريب العهد برينا<sup>(2)</sup>

وهيمنة فكرة الاستمتاع بما في الحياة من جمال طبيعي، تبدو جلية في شعر ابن الساعاتي، فتصبح الطبيعة ولعه المستمر. وبذا احتلت دمشق ثم مصر المكان الأوسع في وصفه وحنينه وشوقه اليهما، وديوانه حافل بغرر عبر فيها خير تعبير عن خلجات قلبه، ولا بد لشاعر وصاف- كابن الساعاتي- إذا جاز لنا التعبير، من التفرد في أسلوب وصفه وشحذه لفكرته فنراه يصف الأمانى والنيل والليل وغيرها في مقطوعات متفردة، يقول في وصف الليل:<sup>(3)</sup>

خليلي ما بال النجوم كأنما  
 أبي الليل أن تسري بأفق كواكبه  
 تعاضم واطغوى وألقى بعاعه  
 واقبل كالبحر الذي أنا راكبه  
 كم استأذنت عيني على فجر خدره  
 فما رفعت أستاره وهياذبه

هنا أضفى الشاعر نفحة من شعوره الخاص وانفعالاته الوجدانية، فعبر عن انقباضه ووحشته وأعرب عن أحاسيسه وتأملاته ووصف سهاده وعينيه المؤرقنتين<sup>(4)</sup>

وقد يسخر الشاعر قدراته اللغوية فتبدو ألفاظه متزنة، وقابليته على

(1) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 404.

(2) ينظر: إحياء علوم الدين: 206/2.

(3) ديوان ابن الساعاتي: 333/2.

التخيل ومطاوعة الفكرة في وصفه روضة دمشقية جاءت على لسان  
الشاعري قائلاً: (1)

والروض يغمرنا بعيني نرجس	غض ويبسم عن ثغور أقاح
والطير بين مغرد ومعربد	ومردد ومعدد نواح
والماء بين مسلسل ومسجسج	ومهينم ومزمزم سياح

ومع تأمل موسيقى هذا التدرج اللفظي: الروض يغمز، ويبسم، عيني نرجس  
وثغور اقاح، الطيور لغاتها ونغماتها متباينة ما بين تسبيحها وترديدها وعربدتها ونواحيها،  
كل له شأنه.. والماء يجري بحريته فوق ألوان الأرض... هذه الجمل والعبارات موسيقى  
طبيعية، ولم يعد علماء الجمال جمال الطبيعة جمالاً، إنما الجمال بأعينهم هو ما  
يضيفه الفنان على موضوعه بحيث يثير فينا عواطف ومشاعر مختلفة (2) وروض فتیان  
الشاعري برغم كل ما وفره من عناصر وصفه إلا انه لم ينفذ إلى حب الطبيعة الحق  
وهو (أن يمنح الطبيعة حياة تحب وتتاجي ويتم التعاطف بين الشاعر وبينها) (3)  
وهذا التعاطف بين الشاعر وبين الطبيعة بدا منسجماً في قصيدة ابن النبيه  
المصري، وقد مازج بين غزله وحب الطبيعة، فأضفى على الحبيب من سمات  
ومكونات الطبيعة، نلاحظه في هذا الاستهلال بقوله: (4)

يا ساكني السفح كم عين بكم سفحت	نزحتم فهي بعد البعد ما نزحت
واسود الخال في محمر وجنتيها	كمسكة نفحت في جمرة لفحت

(1) ديوان فتیان الشاعري: 231.

(2) ينظر: البحث الأدبي ومنهجه: 19.

(3) ثقافة الناقد الأدبي: 231.

(4) ديوان ابن النبيه المصري: 165.

لها جفون وأعطاف عجبت لها  
وروضة وجنات الورد قد خجلت  
تشاجر الطير في افنائها سحرا  
بالسقم صحت وبالشكر الشديد صحت  
فيها ضحى وعيون النرجس انفتحت  
ومالت القضب للتعنيق واصطلحت

ويبدو بيته الأخير في وصف الطيور اقرب إلى النفس من بيت فتیان الشاغوري السابق (والطير بين مغرد...0) وابن النبيه من الشعراء الذين يؤمنون بمذهب الاستمتاع بالحياة، لذا تعلق بجمالها ورياضها، فأضفت على نفسه الفرح والإقبال على الحياة وخيرها، وقد وصفه الدكتور محمد كامل حسين قائلاً: (كان فنانا يعشق الجمال ويتبعه وكان يهيم بالطبيعة...<sup>(1)</sup>)

إن الجمال اخص صفات الأسلوب الأدبي، وهذا الأسلوب تتحكم فيه قوى معنوية ليست منفصلة إحداها عن الباقي في الطبيعة النفسية ونقصد بالقوى (الإدراك والانفعال والارادة)، فهي (مظاهر تتوارد على نفس الإنسان حسب الدواعي والمؤثرات، فالإنسان مرة مفكر بنفسه، وأخرى منفعل بها، وثالثة مرید معتزم والنفس هي هي...<sup>(2)</sup>) ومن خلال شفافية الثناء والاستحسان يصور راجح الحلي ممدوحه بصورة وصفية نجدها خفيفة الظل شديدة الوقع، لو رسمها فنان ما بريشته لظهرت تلك الصورة ملائمة لأبياته الوصفية في تجسيد الإنسان الذي يدركه الفكر الذي يشد إليه أزر العاطفة والانفعال، بعيدا عن كونه ممدوحا (سلطانا أو أميرا) يقول واصفا (الإنسان) الذي يريده أن يكون هكذا:<sup>(3)</sup>

فما اظلم الدهر الا اضاء  
تشاءم برق الندى والردي  
جزيل العطية طلق اليدين  
ولا جمد الغيث الا انسكب  
لديه غداة الرضى والغضب  
جميل الطوية زاكي الحسب

(1) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 157.

(2) الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية): 23.

(3) ديوان راجح الحلي: 126، (رسالة ماجستير).

وتسمو المعالي اذا ما انتسب  
ويحدي العفاة ويجلو الكرب

تتية العوالي اذا هزها  
يفك العناة ويؤذي العناة

وهذا الوصف الهادئ للإنسان، لا يتلاءم مع نفسية الشاعر الملك الأمجد بهرام شاه الذي يصف أصحابه الأبطال وقد أشبعت الحروب وآثرها ألفاظه ومعانيه إشباعا يقول: (1)

يمشون ، والموت قد ابدى نواجذه	اليه ما بين سباق وسراع
لا يعرفون برودا غير ما لبسوا	من الشجاعة، او من زغف أذراع
في الحرب والسلم من كرم ومن كرم	لم يبرحوا بين ضرار ونفاع

وعندما يعتدل مزاجه النفسي، ويفر من التزامه الأخلاقي والاجتماعي مع الأصحاب ومواقفهم الشجاعة واستبسالهم في الموت، يخلو إلى نفسه، معبرا عن عالمه النفسي الخفي، وما يضطرب من احساساته في ذلك العالم الذي هو ألصق ما يملك الشاعر لذاته، نراقب هذه الألفاظ الحانية الشذوية وهي تغطي الربا والاباطح عليها تنسم عليه عبيرا يجلبه الحنين هدية لنفسه المرهفة الرقراقة وما ارق قوله: (2)

اهدت الي شذا العرار الفائح	نكباء هبت عن ربي واباطح
نسمت علي فاججت ارواحها	نار الهوى في اضلع وجوانح
جلب الحنين الي ما اهدته من	انفاس ذياك العبير النافح
ولطالما اذكى النسيم خمودها	كالنار شبت من زناد القادح

ومن رقة الوصف إلى صدق الثناء والإعجاب يمازج الشاعر علي بن احمد بن الزبير في لوحته المدحية الوصفية التي من الصعب العثور على نماذج تجمع بين جمال الطبيعة ورموزها وفضائل الممدوح، وقد يكون لشخصية الممدوح اثر في انجاح هذا

(1) ديوان الملك الأمجد: 87 .

(2) نفسه: 117.

التمازج بين مشاعر الشاعر والشاعر وبين وصفه ومدحه، يقول واصفا مادحا البطل صلاح الدين: (1)

شيدت بالبيض والعسالة الذبل	مجدا اناف على النسرين والحمل
تخضر اكناف ارض ان نزلت وان	نازلت تحمر ارض السهل والجبل
مازلت افري دجى ليل التمام سرى	ونور وجهك يهديني إلى السبل
بكل مهمة يبكي الغمام بها	خوفا ويخفق قلب البرق من وجل
تخشى الرياح الذواري من مهالكها	فما تهب بها الا على مهل

تتاول وصفه والنزول والمنازلة وفيهما تخضر الأرض وتحمر كناية عن الحياة والموت، وكالعادة المجد علا على الكواكب وأبراجها، وجاءت ألوانه وحركاته مناسبة للأرض والسهل والجبل والليل والسييل والمطر والبرق، كائنات حية لها إرادة وشعور، وما ألطف استجابة الرياح - على مهل - بعيدا عن الأصوات المدوية، ولكنها تكتنف الألوان الزاهية، وما أوقع هذه الألفاظ المختارة والمقابلات الدقيقة المستفيضة بالبرقة والجزالة، وكأنه أراد بأبياته أن يرينا الوجه الإنساني الآخر لصلاح الدين بعيدا عن قعقة السيوف (0)

### الفخر والحماسة:

الفخر صورة الزهو الذاتي، وهو الجانب الأكثر لصوقا بذات الشاعر، ونزعاته الشخصية، يقول الدكتور طه حسين (ففي كل شاعر نصيب من الغرور، وتجويد الكلام

(1) خريدة القصر وجريدة العصر / مصر: 202/1.

نفسه يغري الشعراء بإظهار هذا الاعتداد، لا لأنه من حقائق نفوسهم دائماً، بل لأن الكلام يواتيهم فلا يقدرّون على دفعه<sup>(1)</sup>، والفخر لم يرد غرضاً مستقلاً لدى شعراء عهد بني أيوب، فقد جاء ماثوفاً في قصائد المديح على أغلب وجهه، وهذا حال الفخر لدى النقاد القدماء كما صرح بذلك أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين<sup>(2)</sup>، ويبدو الفخر منفصلاً عن الحماسة - إلا ما ندر - فلم يعد ممتزجاً بحماسة مبعثها إحساس العربي بشجاعته وإقدامه أو عراقته محتده...<sup>(3)</sup>، وانصب اهتمام الشاعر بالفخر بشاعريته في معرض مديحه، ويبدو لنا مدى قلق الشعراء واضطرابهم أمام هذه الشاعرية فهذا عرقله الكلبى يعلل لنفسه وللآخرين معضلة شعره، بعد أن فقدت الحياة الكرماء، وتختفي روحه المرحّة وهو يهدى حفات من الشعير مقابل شعره يقول:<sup>(4)</sup>

يقولون لم أرخصت شعرك في الورى      فقلت لهم: إذ مات أهل المكارم  
أجازى على الشعر الشعير وانه      كثير إذا استخلصته من بهائم !!!

ومن البديهي أن يشغل شعر الجهاد والشعر الحماسي وشعر التهاني والتبشيرات وتمجيد البطولة ورتاء البطل، الحيز الأعظم من شعر الشعراء وأيضاً بسبب الحروب الصليبية وسوء الحياة الاجتماعية والمعاشية، أصبح الشعر وسيلة للرزق، ومن أهم واجبات الشاعر اتجاه نفسه هو الدفاع عن شاعريته ليضمن استمرار الرزق وما أدق تعبير عمارة اليميني مفتخراً بشعره:<sup>(5)</sup>

وابخل بمعدن هذا الدر وهو فمي      فالبخل بي كرم محض وإيثار  
واطرب على خطراتي فهي مطربة      لابل على قطراتي فهي انهار

(1) خصام ونقد: 242.

(2) ينظر: كتاب الصناعتين: 131.

(3) ينظر: ديوان الأبله البغدادي: 117، (رسالة ماجستير).

(4) ديوان عرقله الكلبى: 94.

(5) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 266.

وتتنوع مجالات الفخر والحماسة أمام تاج الملوك الأيوبي (ت 579هـ) فمن طموحه وشبابه ومحامده الشخصية، إلى الفخر بنفسه وبأهله وحتى أسلحته وخبراته الحربية وأيضا كرمه ومجده وانتصاراته يقول: (1)

إني لأذخر من بلادي كله  
رما أصم ، وسابقا مهضوما  
ما يحمل الأمر العظيم من الوري  
ذو سؤدد حتى يكون عظيما

وتتكرر صورة فخره بشعره وفيض قريحته وسمو شاعريته كما مرت بالشاعر عمارة اليمني (الدر والبحر والخاطر ....) يقول تاج الملوك: (2)

أينكر نثر الدر من بحر خاطري  
وتعلم ان الدر معدنه البحر!؟

ورسم الأبله البغدادي صورة للفخر بشعره بعيدة عن الدر والخاطر والبحر، لان الأمر الأهم في حياة الشاعر، هو وقوفه أمام ممدوحه، مختتما مدحته ليزفها إليه كما تزف البكر التي لم ترض بغير الممدوح خاطبا لها: (3)

لولاك لم اصنع القوافي  
ولم يجل في القريض فكري  
من كل عذراء ليس ترضى  
غيرك ان خوطبت بمهر

ورب سائل يسأل اين روح الفخر في بيت ابن الدهان؟ وهو يحدث نفسه قائلا: (4)

أ أحيا وهذا الشعر بعض فضائي  
فقيرا بجمص اغتدي واروح

فقول الشعر فضيلة ومفخرة للشاعر ولكنه أضاع قدرها وقدره بما حمل عجز البيت من

(2) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 234.

(3) نفسه: 169.

وينظر أيضا: ديوان بهاء الدين زهير: 117، 231 وديوان الأبله البغدادي: 267

(4) ديوان الأبله البغدادي: 401، (رسالة ماجستير).

(1) ديوان ابن الدهان: 172.

استجداء فاضح، والبيت السابق من قصيدة قالها في مدح صلاح الدين نلاحظها: (1)

ازلت عيوب الدهر في كل بلدة  
وكننت هجرت الشعر كي لا يغيضني  
وفقري عيب في الزمان قبيح  
عبوس شحيح يرتجى وكلوح

إن هذا الاقتصار على المفارقة بالشاعرية، كان سببا مباشرا في تجميد الفخر والحد من تنوع أساليبه وأفكاره، فأقفرت ساحة الفخر من الأفكار المستجدة والمعاني الطريفة وباتت الألفاظ تكرر نفسها وتجتر أوصافها، ويعزى سبب هذا التغيير الحاصل في فن الفخر إلى تغيير البيئات الشعرية، من بيئة بدوية لها قيمها وعاداتها إلى بيئة حضرية امتزجت فيها الدماء وذابت الفروق الجنسية (2)

ولأسامة بن منقذ منبر ينأى به عن جميع الشعراء، وذلك لأنه حمل لواء الحماسة (القوة والشدة والبأس والشجاعة)، ولن ننسى أن قوته تصدر من عاطفة وانفعال نفسي، وإذا عدنا إلى فترة شبابه نجده فارسا ينازل الأبطال، ولذا لا نندهش من فخره وحماسته وهو يقول: (3)

لخمس عشرة نازلت الكماة إلى  
اخوضها كشهاب القذف مبتسما  
ان شبت فيها، وخير الخيل ما قرحا  
بصارم من رآه في قتام وغي  
طلق المحيا، ووجه الموت قد كلحا  
فسل كماء الوغى عني، لتعلم كم  
افري به الهام، ظن البرق قد لمحا  
كرب كشفت وكم ضيق بي انفسحا

يحفل ديوانه بلوحات الفخر والحماسة، ذات التأثير العميق لما تتسم به من

(2) نفسه.

(3) ينظر: الشعر العربي من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد: 314.

(4) ديوان أسامة بن منقذ: 209.

(سمة الترابط والتلاحم واتساق المعاني)<sup>(1)</sup> وكان أسامة يعنى بتتقيف شعره وتقويمه  
وصرح بذلك قائلاً:<sup>(2)</sup>

كلما رددت في شعري النظر  
فاجيل الفكر في تقليله  
بان ضعف العي فيه، وظهر  
فإذا قل اختصرت المختصر

إن التقليل والاختصار في شعر أسامة من ضوابط نظم الشعر عند بعض النقاد،  
يقول ابن خلدون (وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنتيح والنقد ولا يضمن به على الترك  
إذا لم يبلغ الإجابة فان الإنسان مفتون بشعره إذ هو بنات فكره واختراع قريحته...)<sup>(3)</sup>،  
ولذلك يوضع أسامة بن منقذ في مقدمة الشعراء الذين جددوا شباب الشعر وكسوه حلة  
من الفخامة والقوة والجلال<sup>(4)</sup>

وما رائعة الشاعر ابن سناء الملك (ت 608هـ) إلا خير دليل على افتتاحان الشاعر  
بشعره وقد وفق في نقل ذلك الإعجاب إلى المتذوقين، وتبقى قيمة الشاعر لا فيما يدعيه  
لنفسه، بل فيما يخلده له الدهر من غرر القصائد التي تعلن عن نفسها بنفسها، الفخر  
عند ابن سناء وعلى وجه الخصوص في قصيدته سجل حضوراً فنياً ونفسياً فكانت من  
مكارم ما قيل:<sup>(5)</sup>

سواي يخاف الدهر أو يرهب الردى  
ولكنني لا أرهب الدهر إن سطا  
وغيري يهوى أن يكون مخلداً  
توقد عزمي يترك الماء جمرة  
ولا احذر الموت الزؤام إذا عدا  
وحلية حلمي تترك السيف مبرداً

يستمر فخره في ثلاثة وأربعين بيتاً ومع أنها أشهر قصائده، إلا أنها لفتت

(1) دراسات في الأدب العربي في العصر الأيوبي:

(2) ديوان أسامة بن منقذ: 10.

(3) مقدمة ابن خلدون: 574-575.

(4) ينظر: ديوان أسامة بن منقذ: 35.

(5) ديوان ابن سناء الملك: 559/2.

انتباه النقاد، ولسنا بصدد ذكر الآراء حولها، ولكن الملاحظة المهمة هي أن شهرتها تحققت في الأبيات الأولى للقصيد بعد الاستهلال وقد غطت أبياتها الأولى لما فيها من أسلوب قوي شديد، وألفاظ تعانق كل نفس متمردة على زمانها وأحداثه، والموت وأزماته، ويمكن القول ان درجة قوة العاطفة أو الانفعال النفسي الشديد فيها قد بلغ شأوا عظيما مما خلق شعورا بالجرأة على الموت والفخر بسطوة الإنسان، ولكن ما أن نقرأ أبيات القصيدة الأخرى حتى تصدمنا مبالغته الشديدة التي نوجزها بهذين البيتين من قوله: (1)

ولو علمت زهر النجوم مكانتي      لخرت جميعا نحو وجهي سجدا  
أرى الخلق دوني إذ أراني فوقهم      ذكاء وعلما واعتلاء وسؤددا

وبعض النقاد علل نجاحها تعليلا لطيفا بقوله: (وأفكارها ومعانيها أشبه بأفكار الشباب وغرورهم، وما لديهم من طموح كاذب ...) (2). ومن النادر أن يواجهنا شاعر من شعراء عهد بني أيوب وهو يفخر بمآثر قومه إلا إذا ظهرت الحاجة لذلك كما نوه ابن دنينير اللخمي، إذ جاء فخره بقومه بعد أن كثر حسد أهل دمشق له (3) ومن فرائد لوحات الرثاء لدى الشاعر ابن عنين تبدو أبيات الفخر ولكن بماذا؟ بعروبة الميت، الأمير بدر الدين الجعبري، وهذا يدل على تشدده في أمر العصبية العربية، نجده يقول: (4)

من أسرة عربية جاءت به      عربية أبؤها أحرار  
لم يغذ من لبن الإمام ولم تحل      أخلاقه عن طبعها الأظار

وتتوضح صورة الفخر والحماسة لدى الشاعر داود بن عيسى الأيوبي، وقد

(2) نفسه: 559/2.

(3) ابن سناء الملك (حياته وشعره): 110/1.

(4) ينظر: ديوان ابن دنينير اللخمي: 593، (رسالة دكتوراه).

(1) ديوان ابن عنين: 69، 53.



والموت في عهد شعر بني أيوب، مستعينين بما يمكن أن يخدم الموضوع من معلومات أو أفكار أو دراسات، متوجة بالشعر ومن ارق العبارات التي قيلت في الزمن قول الدكتور زكريا إبراهيم (إني لأشعر في كثير من اللحظات بأن الزمان هو نسيج وجودي إن لم يكن هو قرارة نفسي...) (1)، فالزمن لا ينفصل عن مفهوم الذات، وأي ذات إنسانية لن تتجمع خبرتها إلا بتتابع الزمن مع حدوث التغييرات التي تشكل حياة الذات الإنسانية، انه لغز عصي، نرى آثاره واضحة على ما في الوجود، ونحن بمجرد ما أن ننظر في وجوه الناس نستطيع أن نقدر وببساطة كم مضى عليها من زمن..... (2) وبعد الاكتشافات المهمة في عالم نفس الإنسان، وصل العلماء إلى فكرة أساسية تهيمن على النفس البشرية، وهي أن الإنسان يعتقد اعتقاداً جازماً بالخلود، وان هذا الاعتقاد مناقض للنظريات القديمة، فأصبحوا يعزونه لنسيج خيال الإنسان، ولذلك أهملت طبيعة الإنسان الروحانية (3)، والحقيقة إننا جميعاً حريصون على البقاء، وهذه أولى الغرائز وأشدّها تملكا لنفوسنا (4)، ومن خلال سعة الحياة، تبرز رموزها واضحة، فهي تسعى للبقاء وللوجود وللدنيا والشباب بينما تطالعنا رموز الموت كثيرة مرتبطة بظواهر الكون (5)، وما الليالي والدهر والأجل والحتف والحدثان والشيخوخة إلا أسباب ومتغيرات يشعر الإنسان اتجاهها بالقلق والتأزم الدائمين 0

وعد احد الباحثين التناسل البدني والتناسل الروحي طريقين شائعين للخلود في الحياة (6)، وهذا التناسل الروحي أكده الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما قال لبعض ولد هرم بن سنان - والحديث عن زهير-: (إن كان ليحسن فيكم القول. قال: ونحن و الله إن كنا لنحسن له العطاء. فقال: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما

(2) مشكلة الإنسان: 78.

(3) ينظر: الحياة والموت في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين: 183، (رسالة ماجستير).

(4) ينظر: هل عشت قبل هذه الحياة؟: 222.

(5) ينظر: ثقافة الناقد الأدبي: 286، وسيكولوجية الإبداع في الفن والأدب: 131.

(1) ينظر: الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام: 135، 150.

(2) ينظر: الحياة و الموت في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين: 79، (رسالة ماجستير).

أعطاكم<sup>(1)</sup> O والقصد من قول الخليفة واضح فالشعراء أدركوا ذلك وفخروا بخلود كلماتهم ومشاعرهم وخواطرهم عند الناس، وما يعلق في أذهانهم وقد يتمثلون به في حياتهم وشعر له هذه السطوة على الناس لن يلحقه الفناء O وقد عمد الشاعر سبط بن التعاويذي إلى توضيح عمق تأثير الشعر على الناس من خلال تميز شعر عن آخر يقول:<sup>(2)</sup>

والشعر كالسيل منه ما ينفع الناس ومنه الغناء والزبد

وقائلوه فمنهم الهامة المكاء وابن الاراقة الغرد

فما كل شعر يكتب الخلود لشاعره، وما كل شاعر بمستطيع على تخليد شعره، ومن الشعراء من يتقدم عنده ثناء الدهر ورضاه على المغنم والوفر وبهذا المعنى عبر أسامة بن منقذ بقوله:<sup>(3)</sup>

وإن كان دهري غال وفري فلم يغل  
ولم ادخر للدهر، إن ناب او نبا  
ثنائي، ولا ذكري بكل مكان  
وللخطب إلا صارمي وسناني

فالدهر قاصر والثناء والذكر سيخلدان برغم ما يغيله الدهر، وأخيرا عالج أسامه الموقف من الدهر وقبحه ونوائبه بما أعده طوال حياته وهو سيفه ورمحه، وهما الفيصل أمام الحدثان. وأكثر أسامة الحديث عن مواقفه النفسية أمام الدهر وهو يحاول الثبات والتقيد بالمكارم والفروسية والبطولة والجهاد، هذا النزوع عنده للخلود وما سواه فهو فان يقول:<sup>(4)</sup>

سأنفق وفري في اكتساب مكارم  
واسعى الى الهيجاء، لا ارهب الردى  
اظل بها بعد الممات مخلدا  
ولا اتخشى عاملا ومهندا  
كأن له في القتل عيشا مجددا  
بكل فتى يلقي المنية ضاحكا

(3) أغانى: 304/10.

(4) ديوان سبط ابن التعاويذي: 155.

(5) ديوان أسامة بن منقذ: 228، 229.

(1) ديوان أسامة بن منقذ: 234.

فأن نلت ما أرجو فللجود، ثم لي وان مت خلفت الثناء المؤبدا

وما أكثر عتاب أسامة للموت والدهر والزمان والشيب والهزم، إذ لم يحظ بالاستشهاد في ساحة الوغى، أو بالموت بعد أن تقوس ظهره<sup>(1)</sup>، وأشعار أسامة تؤكد عمق ألمه في شيخوخته وإحساسه بالفناء، ولكنه يغالب ذلك بأشعاره التي تذكره بشبابه وبأسه ومجده وكأنها تغذيه وتسليه وتشعره برغبة الحياة فيه، وأملها في بقائه ولو إلى حين، وننفي أن تكون أشعاره تلك دافعها الشكوى، إنما هي خطرات نفس وضعت على محك قاس، صقلت شخصيته وعمقت تجاربه<sup>0</sup>

عمد الشعراء وعلى طول مسيرة أدبنا العربي إلى نم الدهر وتصاريفه، والشكوى من الحياة والموت والخوف من الشيب والهزم، والخوف عنصر هام من مقومات الذات البشرية: فنحن نتحاشى المستقبل والمجهول والزمان، وما الخوف من الحياة إلا خوف من الزمان والخوف من الزمان، ما هو إلا خوف من الموت<sup>(2)</sup>، ولكن الشعراء على يقين من عدم جدوى كل ذلك، إلا انه المتنفس الذي يزيح عن صدورهم الكرب والهزم، وهذا عماد الدين الاصبهاني يستمر في التشوق إلى دمشق ولكن بطريقته وفكرته وأسلوبه الخاص به يقول:<sup>(3)</sup>

نأى بي عنكم عدو لدود      ودهر خؤون وحظ عثور  
فقدتكم ففقدت الحياة      ويوم اللقاء يكون النشور

ومن العدو اللدود والدهر الخؤون والحظ العثور يرسم لنا عماد الدين صورة طريفة تختصر زمن شبابه وشيبه وهو القائل:<sup>(4)</sup>

ما الشيب الا غبار      من ركض عمري تعلق

(2) نفسه: 269-271.

(3) ينظر: مشكلة الإنسان: 118.

(1) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 186.

(2) نفسه: 313.

وضاع مفتاح وصل الـ

حسان فالباب مغلق!!

وتبرز النظرة السوداوية لدى الشاعر ابن سناء الملك على غير عادته،  
فيما عرفناه من حياته ولياليه ولهوه وغزله، ولكنه يذم نما جماعيا، فكيف لا يخون من  
كان ابوه الزمان وأمه الدنيا؟ يقول: (1)

لي في الخيانة نسبة علياء  
وأبي الزمان وامي الدنيا

اتخون يا سكاني؟ فقال: نعم  
لم لا اخون ولم اف ابدا

ومن النادر أن يثني الشعراء على الدهر أو الزمان، ولكن القاضي الفاضل مؤمن  
بأن أمر الزمان مرده لله سبحانه وتعالى وان على الإنسان ذكر الدهر بخير وصلاح  
وفي ذلك يقول: (2)

يصرّفه فيما اراد من الأمر  
واياكم والدهر، فالصلاح للدهر

وماذا أرى من ذا الزمان، وربّه  
فلا تذكرن الدهر الا بصلاح

وصلح الدهر أو عدمه، لا تأثير له على الشيب، فهو زائر بلا استئذان ودخيل  
يورثنا الأحزان، ومحارب لزمان اللهو والشباب، ومخطط لرحلة الفناء فلا بد من الانتباه  
إلى انه نذير، بل هو نظير الردى كما يراه القاضي الفاضل (3)

وعلينا القول ان صور الحياة والموت في شعر عهد بني أيوب، امتداد فكري  
ونفسي، لما تقدم في العصور الأدبية لذا تداولت لدى الشعراء المعاني والألفاظ متأثرة  
بملايسات حياة الشاعر وحالته النفسية التي توجه أفكاره وآراءه، ولانقصد أنها تتبع من  
مزاجه الآني دائما، ولكنها عاطفته التي هدته ليكيل المديح للدهر ولكن (دهر

(3) ديوان ابن سناء الملك: 472 / 2.

(4) ينظر: ديوان القاضي الفاضل: 335/2.

(1) ينظر: ديوان القاضي الفاضل: 447/2.

مدينة حلب بالذات ) فما اسعد الشاعر راجح الحلي بحلب  
ودهرها وهو يقول: (1)

والدهر في حلب كما تهوى المنى      طلق يروك حسنه وبهاؤه

ويتشارك راجح الحلي والشاعر الملك الأمجد بصفة التفاضل والإشراق      لدهرهما،  
و ألا يضيق المرء بأحوال دهره (2)

ويصدر بهاء الدين زهير تحذيرا من تقلب الزمان، ناصحا بمسابقة الزمان،  
وحجته في ذلك تغير الأيام والأحوال بالناس وفناء الدول وأرباب السلطان ولكن الأوقات  
واحدة والموت حادثة تقع في الحياة سواء تريت الناس أو تعجلوا يقول (3):

سابق زمانك خوفا من تقلبه      فكم تقلبت الايام والدول

واعزم متى شئت فالأوقات واحدة      لا الريث يدفع مقدورا ولا العجل

وللدهر فضائل على الشاعر الأيوبي شرف الدين الأنصاري التي أوجبت الشكر  
والامتنان، انتصارات المسلمين وكسر الإفرنج وفتح دمياط، هنا وجب الشكر بعد حالات  
اليأس والقهر التي عانى منها الشاعر يقول شاكرا: (4)

شكرا لدهر تلافاني بأوبته      من التلافي وأغنى بعد انفاض

قد كان يمنحني طورا ويمنعني      فاليوم قد نلت فيه كل أغراضي

والقاضي الفاضل كعادته ركز على تحديد أبعاد الزمن، الذي هو الأيام في  
تتابعها، وهو الدنيا بشموليتها للكون والطبيعة والإنسان وكل الكائنات (5)، وتحديد الزمن

(2) ديوان راجح الحلي: 117، (رسالة ماجستير).

(3) ينظر: نفسه: 126، 169، 548.

وينظر: ديوان الملك الأمجد: 303.

(4) ديوان بهاء الدين زهير: 281.

(1) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: 284.

(2) ينظر: مفهوم الزمن بين الأساطير والمأثورات الشعبية، "مجلة عالم الفكر"، م 8، ع2: 516.

عند القاضي الفاضل يعني "الحاضر وهو اليوم" و"الماضي وهو الأمس" و"الغد وهو المستقبل" وكل شيء حوله في تغير مستمر حتى نظرت لهومومه في حاضره تبدو سامية حكيمة حتى لم يعد هناك مكان في حياته لهند أو أسماء وارتباطه بالأمس بدا ضعيفا، فقد ناصبه دهره العدا وموقفه من أمسه مختلف تماما عما تتنازع الشعراء من ارتباطات وثيقة بالماضي ولاسيما (إن هذا الماضي يرتبط بالشباب والخير والحب والقوة والصحة فيظل هذا الماضي شامخا ومتألقا في ذهن الإنسان بشكل عام وفي ذهن الشاعر بشكل خاص) (1) نراه يقول: (2)

همومي اراها اليوم من امسها اسمى      فلا يذكر العذال هندا ولا اسما  
وما كنت ايام الشباب بجاهل      ولكن يوم الشيب قد زادني علما

وتستمر حركة الزمن دائرة في حياته، مع استمرار التغير المستمر حوله، وما زال قلقه مستمرا في تحديد زمنه ووجوده قائلا: (3)

مضى أمسي عني، وانقضى اليوم بعده      وليس غد مني، فلم احمل الهما

فلماذا ينكر الشاعر غده؟ والمستقبل الذي يراه غوستاف لوبون (من أهم البواعث عند الإنسان لاستمرار الحياة) (4) بسبب غموضه وجهله بالنسبة للإنسان، وهذا الغموض والجهل يشكلان حافزا لاستمرار الحياة 0 ومن أخبار الشاعر القاضي الفاضل يتراءى لنا ان حياته امتازت بالاستقرار ولسنا متأكدين من ملابسات وظروف قصيدته التي تدور في محور الزمن الضائع وكأنه افرغ مافي صدره من نفثات الهموم، فما عاد اللهم طريق إليه، إن الماضي مدون في الذاكرة والإنسان موجود في الزمن، ومحكوم عليه بالتلاشي، ومحكوم عليه بالانسحاب المستمر لأعماله وأفكاره من مسرح الزمن الحاضر إلى الزمن

(3) الزمن في شعر أبي العلاء المعري: 54.

(4) ديوان القاضي الفاضل: 381/2.

(5) نفسه: 382، 381/2.

(1) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام: 244.

الماضي وما الغدالا المستقبل المرتسم لأهداف وتصورات الإنسان<sup>(1)</sup>، وهذا التلاشي و الوجود والانسحاب نشعر به في قوله:<sup>(2)</sup>

وهان علي الحادثان كلاهما                      فلا اسمع الأيام حمدا ولاذما  
وكنت أرى بالأمس دهري محاربا                      إلى أن علمت اليوم أن كان لي سلما

وقد هان عليه الليل والنهار وساعاتهما وربما فاته وهو في زحمة هموم الزمان وأبعاده أن الله سبحانه وتعالى جعل الليل والنهار نعمة سخرها للناس ﴿وسخر لكم الليل والنهار 000﴾<sup>3</sup> انه يحرم على الأيام حق الحمد وحتى الذم، وجاء قوله هذا تضمينا لصدر بيت أبي الطيب في رثاء جدته في قوله مستهلا:<sup>(4)</sup>

ألا لا أري الأحداث مدحا ولا ذما                      فما بطشها جهلا ولا كفها حلما  
وزمن الهموم عند أسامة بن منقذ قد أحصاها بطريقة طريفة أتى عليها صاحب الخريدة<sup>(5)</sup> وطريقته في حساب عمره قوله:<sup>(6)</sup>

وإذا عدت سني ثم نقصتها                      زمن الهموم، فتلك ساعة مولدي

ومثلما كشفت البحوث والدراسات عن نزعة إنسانية مشتركة بين البشرية إذ أنهم أحبوا طول العمر رغبة في الخلود وبغضوا الهرم خشية الضعف واقتراب الموت<sup>(7)</sup> فإنها كشفت أيضا عن ميول خاصة لدى الشعراء قد تبدو متميزة حيناً ومرفوضة أحياناً، أنهم بحاجة لمعالجة تجاربهم اليومية التي تمثل بمجموعها سني

(2) ينظر: "فلسفة الوعي بالزمن وأثرها في العمل الأدبي". مقال في مجلة "الثقافة الاجنبية"، السنة الثانية، ع2:

39.

(3) ديوان القاضي الفاضل: 381،382/2.

(4) النحل: 12.

(5) كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 175/1.

(1) خريدة القصر وجريدة العصر/ شعراء الشام: 105/1.

(2) ديوان أسامة بن منقذ: 247.

(3) الشيب والهرم في الشعر العربي قبل الإسلام: 14، (رسالة ماجستير).

حياتهم<sup>0</sup> أن المفارقات الشعرية لدى شعراء عهد بني أيوب وتباين معالجتهم لدقائق  
وتصارييف الحياة تغني النظرة النقدية والذوقية وحتى الجمالية لأدب تلك  
الحقبة، إضافة إلى ما تصوره لنا من واقع الحياة<sup>0</sup>  
ولنا في الشاعر ابن دنينير اللخمي الأنموذج الواضح عندما يحدد  
للخلود يقول: (1)

عمري لقد صدق الزمان وعوده      عندي بجور للخطوب عنيد  
صن ماء وجهك أن يذال بذلة      لا خير في ذل بنيل خلود

انه يرفع شعارا في حياته يريد أن يوصله للناس وهو:  
لا خلود مع الذل والهوان، ومن هنا تبدو وظيفة الشعر، وهي القضاء على طاقة الزمن  
الدمرة من خلال تخليده القيم النبيلة والأخلاق الحميدة<sup>0</sup>(2)

وبكى الشعراء الشباب وامنوا بعدم عودته، بعد أن غزا الشيب سواد نوائبهم،  
وعدوه دليلا على الفناء، ومعه تبدأ رحلة (الغربة) وان عاش بين الأهل والأحباب<sup>0</sup>(3)  
والشيب وحده لا يكفي أن يكون عنوان الكبر ونهاية الشباب فقد يسبق الهرم بكثير من  
الأعوام ويأكل سواد الرأس وصاحبه في عنفوان العمر والشباب<sup>0</sup>(4)، وهذا الرأي لا يتفق  
مع رأي الشاعر شرف الدين الأنصاري، الذي أطال النوم في ليل الشباب وإذا  
بصبح الشيب يوقظه ويعنفه على إبطائه وهزت تلك الصدمة بقايا أحلامه وإذا يؤذن  
بالوداع يائسا، لامفر للهروب من الموت بعد أن أصابت نصال الشيب أهدافها في

(4) ديوان ابن دنينير اللخمي: 231، (رسالة دكتوراه).

(5) ينظر: هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي: 288، (رسالة دكتوراه).

(1) ينظر: ديوان عرقلة الكلبي: 7 وكتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 166.

(2) ينظر: الحياة والموت في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين: 149، (رسالة ماجستير).

رأسه، أوحى رؤية الشيب للشاعر بأنه يسير حثيثا إلى الموت وما عليه إلا أن (يحل عرى ويفك شظاظا) يقول: (1)

فأجد صبح الشيب في ايقاظي	واطلت في ليل الشببية رقتي
باليأس من مشتى له ومقاز	فاقرأ على العيش السلام مودعا
بالشيب غارقة الى الارعاظ	كيف الفرار من الردى ونصاله
فانهج بحل عرى وفك شظاظ	يا سائرا للموت، مالك والسرى؟

إن هذا الإدراك الزمني للأحداث يقيد الحياة النفسية للشاعر في أعمق مستوياتها ويحدد من المبادئ الإنسانية تجاه الحياة والموت والمجتمع والعالم المحيط به، ويقوم بوضع اطر للشعور بإيقاع الحياة<sup>0</sup> ولكم سعى الإنسان في تأملاته لذاته ومتغيراتها من ميلاد وشباب وكهولة وشيخوخة وموت محاولا باستمرار الاهتداء بحدسه الفطري لعلة المتغيرات في حياته التي أثارت بدورها في نفسه دوافع القلق من واقعه والخوف من مصيره بعد الموت<sup>0</sup>

(3) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: 301.

## الفصل الثالث

---

### الملاح الفنية في شعر الحياة و الموت

1- اللغة و الأسلوب

2- الصورة الشعرية

3- الصنعة البلاغية

4- الإقناب و النظمين

## الملاح الفنية في شعر الحياة والموت

تقن الباحثون و الدارسون في دراستهم الفنية، وأجزوا وأطالوا وفصلوا وأكثروا، ولكنهم تنوعوا واختاروا، كل واحد منهم حسب رؤيته وقناعته، وقد أثرنا أن تكون الدراسة الفنية في ماهية روح العصر ونوقه، وما اثر عن شعرائه من الانغماس في فنونه وبدعه، محاولين التركيز على أهم مميزات فن الشعر حينئذ وأظهرها، مستخدمين الخطاب الشعري دليلا إلى حقيقة مهمة تحدد كون الشاعر (شاهد عصره) ينقلنا من خلال ألفاظه وأفكاره لمعايشة مجتمعه وعصره بكل ما يضم من جوانب فكرية وثقافية واجتماعية وسياسية، وهي تحاول رسم الجسور المؤدية للحياة، وقد يتبرم منها الشاعر إلا أنه موقن باستمرارية الحياة وحتمية الموت.

أما الملاح الفنية، فتقتصر على المباحث الآتية:

1- اللغة والأسلوب

2- الصورة الشعرية

3- الصنعة البديعية

4- الاقتباس والتضمين

## 1. اللغة والأسلوب

تلعب اللغة دوراً حاسماً في عملية الإدراك الأدبي، فهي الوسيط الذي يهيئ لهذه التجربة الشعورية، وبما أن اللغة كائن حي اجتماعي تخضع لعوامل التطور والارتقاء، فقد وصفها القاضي الجرجاني (ت392 هـ) شارحاً التطور اللغوي الذي طرأ على لغة الشعر بعد الإسلام بقوله (... وعمدوا إلى كل شئ ذي أسماء كثيرة فاختروا أحسنها سمعاً، وألطفها من القلوب موقعاً، والى ما للعرب فيه من لغات، فاقترضوا على أسلسها وأشرفها) (1). وعدها ابن خلدون (ت808 هـ) فعلاً إنسانياً فهي (عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل إنساني) (2) ولا بد لهذا الفعل الإنساني أن يتأثر ويتفاعل، وان يخضع لحتمية التطور.

واللغة البشرية تستند مثل كل ظاهرة اجتماعية إلى سلسلة لانهاية لها من وقائع الماضي، وكل لغة وليدة لتطور تاريخي تدخل فيه مؤثرات عديدة متباينة (3). حتى أصبحت القدوة والمثل لمختلف العلوم، خاصة الإنسانية منها. وباللغة نعرف العالم وبها نبنيه.. وهي الأساس الفاعل المنتج لنقل الأفكار والمفاهيم، وهي وسيلة التواصل والمعرفة، واللغة تتحكم في تحديد علاقة الملفوظات ومواقعها حتى يتم إدراكها. (4)

وبذلك يبدو اهتمام العرب بقدسية الحرف ورمزيته وجمال الكلمة وشرف التعبير والبيان، عندما كانت قرائحهم صافية و أسنتهم فصيحة، و المعروف أن لغة شعراء بني أيوب تأثرت بظروف الاختلاط بغير العرب، بعد أن وطئت ارض البلاد جحافل غازية من الغرب والشرق، مما افرز تطورات جديدة في اللغة وأساليبها. ذلك أن الأغراض الإنسانية محصلة للألفاظ المعبرة، و الأغراض لا تنتهي و المعاني لا

(1) الوساطة بين المتبني وخصومه: 18.

(2) مقدمة ابن خلدون: 546.

(3) ينظر: النقد المنهجي عند العرب: 453.

(4) ينظر: دليل الناقد الأدبي: 33-34.

تتعد، فلا بد من إيجاد ألفاظ ومصطلحات للجديد من الأغراض، وربما كان هذا التطور (العنصر الأساسي لفهم سير الحياة بالكائنات على اختلافها)<sup>(1)</sup>.  
وتسربت إلى اللغة الوفرة الوافرة من الألفاظ، فإن (الأحداث الكبرى التي شهدتها هذا العصر كانت عاملاً من عوامل هذا الوفر اللغوي في الألفاظ الغريبة المعربة)<sup>(2)</sup>.

ومن الصور للتفاعل اللغوي في هذا العصر بين اللغة العربية وبين اللغات الأخرى، ما ذكر عن أسامة بن منقذ (ت584هـ) وقد مر بقرية لا يجيد سكانها العربية فأنشد:<sup>(3)</sup>

نزلت بأرض (بالوا) وهي حصن	علا ، حتى تمنطق بالنجوم
بروم، لا تلائمهم طباعي	وما العربي نو إلف بروم
سلامهم (هزار باريك) ماذا ؟	شبيه سلام خز ان النعيم <sup>(4)</sup>

إن عوامل "مثل المكان والزمان والعرق، لا يمكن تجاهلها ونحن نواجه هذا التزواج اللغوي بين العربية واللغات الأخرى... وكان لابد للعربية أن تستمد من تلك اللغات من مختار ألفاظها وأساليبها التعبيرية، والشاعر ابن سناء الملك (ت608هـ) يتقن الفارسية لدرجة أن ينظم موشحة بلغة فارسية، وديوانه يعج بالكلمات الفارسية وصور الخيال الفارسي المنوع دون تكلف، حتى إنه أول من جعل خرجة الموشحة فارسية، وأول من ألف كتاباً "في هذا الفن"<sup>(5)</sup> اسمه (دار الطراز) به موشحات المغاربة و الاندلسيين<sup>(6)</sup>. ومن قوله في المديح وقد استخدم كلمة فارسية (رستاق) وتعني السواد أو القرى:<sup>(7)</sup>

(1) كتب خلق الإنسان: 87.

(2) الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين و الأيوبيين و المماليك): 640.

(3) ديوان أسامة بن منقذ: 159.

(4) هزار باريك: معناها في اللغة الأرمنية: ألف تحية مقرونة بتمني الخبر.

(5) ينظر: ابن سناء الملك: (حياته وشعره): 134/1، 137، ينظر دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 114، 128.

(1) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر): 64/1.

(2) ابن سناء الملك (حياته وشعره): 135/1.

له الجسوم رستاق

خيم فيه ملك

واستغرق التكلف اللغوي والأسلوبي بعض شعراء عهد بني أيوب، إذ قد يخلو للشاعر أن يأتي بلفظ غريب بقصد التلاعب بالألفاظ ليدل على اقتدار لغوي متمكن في نفسه، كأن يجرد الشاعر أبياته من حروف معينة كالسين أو الطاء أو على العكس مثل قول الشاعر ابن عنين (ت 630هـ) وقد تكلف حضور حرف السين في كل لفظة فيها: (1)

مرسى السيادة سدة سيفية	محروسة مسعودة التأسيس
أنست من استار سدته سنا	قبس فسقت نفيسة لنفيس
وسقيتها سلسال سحر مسكر	للسامعين وسقتها كعروس

وللشرف الأنصاري (ت 662هـ) أبيات، يصف صديقاً له (يموت)، تكلف بها في لزومية وقد استخدم لفظة فارسية الأصل وهي (بس) وتعني (حسب) يقول: (2)

ورأيته متوعلاً	في النازعات (3) وماعبس
من لام في ولهي عليه،	فقل له: أقصر، وبس

ومن قصائده العاطلة من التنقيط قوله مستهلاً: (4)

موله لعهود اللهو مذكر	لولا مدامعه ما أهمل المطر
لكل ممكورة لو رأى ساحرها	سحار سحرا طاعوه وما سحروا

(3) ديوان ابن عنين: 96، 97.

(4) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: 266.

(5) النازعات: يقال فلان في النزاع أي في قلع الحياة، وهو تنزع نزعا إذا كان في السياق إلى الموت و النازعات في التفسير: الملائكة التي تنزع الروح من الجسد وقيل هو الموت ينزع النفوس (مجمع البيان في تفسير القرآن م 429/10).

(1) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: 230.

ولماذا هذا التكلف والتصنع اللغوي؟ فالأسباب كثيرة وواضحة للدارسين لهذه الحقبة التي قد يتجه فيها شاعر ما عدة اتجاهات متباينة إرضاءً لغروره واعتراضاً بثقافته أو سعياً وراء الإغراب والتعقيد، أو تحدياً لمنافسيهم في المحافل الأدبية أو مجالس الملوك والسلاطين، وقد تكون استجابة لطلب الممدوحين، ومما يلفت النظر إن السهولة والوضوح في الشعر حينئذ، الطابع الغالب على لغة جمهرة كبيرة من شعراء العصر<sup>(1)</sup>، وعلل ذلك الدكتور مزهر السوداني بالابتعاد عن أجواء الفلسفة وتعقيداتها<sup>(2)</sup>، ونميل إلى رأي الدكتور ريكان إبراهيم خلال حديثه عن الشاعر والدين . في تصميمه، بأن الشاعر يجب أن يكون فيلسوفاً" وان لم ينتسب إلى أية مدرسة فلسفية معلنة، لان (رواه الخاصة وترتيباته وتشوفاته وتصوراته تشكل في مجملها رؤية فلسفية خاصة به شاء أم أبى)<sup>(3)</sup>.

ولابد من الإشارة إلى أن الوضوح والجزالة والقوة والسهولة وغيرها من المصطلحات اللغوية مسائل نسبية تتفاوت بين شاعر وآخر ولا يخلو منها ديوان شاعر من شعراء الحقبة.

ومن الظواهر اللغوية أن بعض الشعراء يأتون في البيت الشعري أو بعضه بما يجرى مجرى المثل السائر كما في قول الشاعر الأبله البغدادي )  
ت579هـ):<sup>(4)</sup>

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصباة إلا من يعانيتها

وقول الشاعر ابن الدهان الموصلية (ت581هـ):<sup>(5)</sup>

وما كل من يغدو إلى الحرب فارس ولاكل من قال المديح فصيح

(2) ينظر: النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري: 96.

(3) ينظر تفصيل ذلك: الشعر العراقي في القرن السادس الهجري: 30-31.

(4) نقد الشعر في المنظور النفسي: 184.

(5) ديوان الأبله البغدادي: 228، (رسالة ماجستير).

(1) ديوان ابن الدهان الموصلية: 58.

وتلاحظ أحياناً ما يشبه الحكمة وما يقع كالمثل، مثل قول ابن الساعاتي (ت604هـ)<sup>(1)</sup>:

ورضى الخلائق غاية لاتدرك <sup>(2)</sup>	سخط الأنام على الزمان وصرفه
ملك يزول وستر قوم يهتك	ونهاية الدنيا وغاية أهلها
أمنية هي بالمنية تنهك	كم لذة فيها تشاب بذلة

وقول ابن سناء الملك (ت608هـ)<sup>(3)</sup>:

ومن كره الهيجاء واختار عشقه	كمن حذر الأنهار واقتحم اللجج
-----------------------------	------------------------------

وأضفى التشبيه على البيت جمالاً " لأنه جاء بمنزلة المثل والعرب تقول: )  
كالمستغيث من الرمضاء بالنار (4).

ويتمتع شعراء كثيرون بثقافة واسعة، يستمدون منها لغتهم مع ما يحفظون من الموروث الحضاري، حتى تكاد فصاحتهم تقربهم من الرصانة والجزالة اللفظية ومن هؤلاء الشاعر راجح الحلبي (ت 627هـ) مثل قوله:<sup>(5)</sup>

أتعلم ما أهدى لي العلم الفرد	سنا بارق بين الضلوع لها وقد
تألق نجدياً" فبت أشيمه	فأذكرني بالشام من داره نجد
فله صب لا تزال تروعه	نوازع أشواق تروح كما تغدو!!
يؤرقه برق يلوح وعبة	تفوح وورق فوق أوراقها تشدو

تختلف أساليب الشعراء في تناولهم لمواضيعهم، ولكل منهم طريقة خاصة في التعامل مع اللغة من خلال إقامة علاقات جديدة بين الألفاظ لأداء المعنى المراد<sup>(6)</sup>، وتتباين أساليبهم بين غرض وآخر، فهم يهتمون اهتماماً فائقاً بشعر المديح، فيجودون

(2) ديوان ابن الساعاتي: 206/2.

(3) ينظر: كتاب جمهرة الأمثال: 493/1.

المثل (رضا الناس غاية لا تُتبع).

(4) ديوان ابن سناء الملك: 373/2.

(5) كتاب جمهرة الأمثال: 160/2.

(6) ديوان راجح الحلبي: 250، (رسالة ماجستير).

(1) ابن عنين (حياته وشعره): 132، (رسالة ماجستير).

أشعارهم ويحسنون اختيار الألفاظ والمعاني والأساليب التي تليق بالشخصيات السياسية الذين يمدحونها تكسباً وخطوة عندهم، وهم أنفسهم يخفقون في أدائهم الشعري عندما يطرقون غرض الغزل المستقل مثلاً. فالمفردة والعبارة تشكل عنصراً أساسياً من عناصر الأسلوب، وتتضافر جهودهما لإبراز المعنى وجلائه وهذا ما نفهمه من قول الآمدي (ت 370هـ) (...وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاءً وحسناً ورونقاً..<sup>(1)</sup>) وما الذي نلمحه على سبيل المثال، لا الحصر في هذا المديح الذي أطلقه الشاعر الأبله البغدادي (ت 579هـ):<sup>(2)</sup>

أنت الحياة فإن أهجت فحياة  
من ساورته فماله من راق<sup>(3)</sup>

أسلوب مدحه هذا يستوقفنا، فقد شبه الممدوح بالحياة في حالة هياجه، ولو سئل الشاعر آنذاك لردّ علينا: إنها المجانسة بين الحياة والحياة. ومن المجانسة بين الحياة والحياة إلى اللقاء بين الأحياء والأموات في موقف للفخر، فقد أمر الشاعر تاج الملوك الأيوبي (ت 579هـ) الأموات بالفخر فيما بينهم على الأحياء لأن مملوكه ( المرثى )، دفن بجوارهم يقول:<sup>(4)</sup>

فليفخر الموتى فقد أضحى لهم  
بجواره فخر على الأحياء

ويتيقن الشاعر تاج الملوك الأيوبي أن أسلوبه يروق لندمانه وأصحابه، عمد إلى الاستزادة من ذلك الأسلوب، واتخاذة نسقاً لإشعاره، فألح في نظم المقطعات، التي هي أجول في مجالسه، وأعلق بسمع أصحابه، وأحلى في قلوب أحبائه، وهذا ما أكده ابن أبي الإصبع في قوله (وعليك بالمقطعات، فاءنها في القلوب أحل وأكمل، وفي المجالس أرشق وأجول، وبالأسماع اعلق وبالأفواه أعبق)<sup>(5)</sup>، ومقطوعته التي قالها

(2) الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحر الطائي: 381.

(3) ديوان الأبله البغدادي: 434، (رسالة ماجستير).

(4) الراقي: الذي يعوذ وينفث في عودته.

(5) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 101.

(1) تحرير التحبير: 416، 415، ينظر: المفصل في تاريخ الأدب العربي: 203/1.

عند موته وهي آخر شعره، لا يبدو عليها اتفاق الوصف لما جاء في قول ابن أبي الإصبع إلا أنها خاتمة لشعره وحياته:<sup>(1)</sup>

أسكان مصر لعل الزمان	علي بقربكم جائد ؟
أما تذكرون فتى شوقه	إلى وصلكم أبداً زائد ؟
رماه الزمان بسهم المنون	كأن الزمان له قاصد

وتخلو قصائد بعض الشعراء من صور التكلف اللفظي وعلى الأخص في شعر الجهاد، حيث لانجد في قدسياتهم تكلفاً أو تصنعاً، أو طغيان لفظ على معنى<sup>(2)</sup>، فالجهاد عندهم هو الهم الشاغل ودماء الأعداء هي الخمر الحلال، وصليل السيوف هو الوقع والسماع، وبهذا المعنى يرتفع أسلوب أسامة بن منقذ<sup>(3)</sup> (584هـ) مستخدماً الألفاظ الفخمة والتراكيب الرصينة بالنغمات القوية والأسلوب التعبيري المباشر الذي يبرأ من ملامح التكلف ومظاهر الصنعة والتعقيد، يقول أسامة:<sup>(3)</sup>

جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا	ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمر
دماء العدا أشهى من الراح عندنا	ووقع المواضي فيهم الناي والزمر

وعندما يتحدث بعض النقاد والدارسون عن الأسلوب المثالي فإنهم يختصرون ذلك بجملة (أنتلاف اللفظ والمعنى)<sup>(4)</sup>، ومن الطبيعي أن تختلف درجات انفعال الشعراء في قوتها، وصدقها في التعبير باللغة، حتى إن الأسلوب الشعري يختلف باختلاف معناه الوجداني، فأسلوب التعبير عن الغضب والحرب والهجاء يفوق من حيث القوة أساليب التعبير عن الحزن والخوف والغزل...

(2) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 154.

(3) ينظر: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية: 298.

(4) ديوان أسامة بن منقذ: 201.

(1) الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية): 75.

والشاعر عماد الدين الأصبهاني ( ت 597هـ) يطالعنا في قصيدة طويلة،  
استرعى انتباهنا قوله واصفاً " نحوله فأجاد حيث يقول: (1)

أنا الخيال نحولاً فالخيال إذا      مازارني كيف يلقي من به التبسا

ويستمر في قصيدته نفسها يمدح الفتح المبارك ويوم حطين حتى يصل إلى وصف ( البرنس ) احد قادة الأعداء وقد جز السيف رأسه، لنلاحظ قوله: (2)

يأظهر سيف، يرى رأس البرنس فقد      أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا  
وغاص، إذ طار ذاك الرأس في دمه      كأنه ضفدع في الماء قد عطسا

ويخيل إلينا أن عماد الدين نحا بأسلوبه في البيت السابق منحىً هزلياً فكاهياً،  
لايتناسب وشعر المديح ووصف المعركة وقتال العدو.

ومن السمات الأسلوبية البارزة لصور الحياة والموت في شعر عهد بني  
أيوب، بصورة عامة (التكرار)، حيث تستحوذ على الشاعر ألفاظ وتعبيرات وصور  
معينة يرددها في أماكن متعددة من شعره، أو يكررها في المقطوعة الواحدة، يقول ابن  
سناء الملك ( ت 608 هـ) مخاطباً ( الدنيا): (3)

إليك عني يا دنيا إليك فلي	في وصل مثلك شان المبغض الشاني
في وحشة القبر والدود المقيم به	شغل لنفسي عن داري وبستاني
أقول داري وجيراني مغالطة	والقبر داري والأموات جيرانني
سأوسع القبر بالأعمال أصلحها	جهدي، وألبس زهدي قبل أكفاني
وإن خرجت من الدنيا ولذتها	طوعاً" فيا ربح بختي بعد خسراني
وكيف آسي على الدنيا ولذتها	وقد تعوضت بالباقي عن الفاني

(2) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 228.

(3) نفسه: 229.

(4) ديوان ابن سناء الملك: 555/2.

وبعد إحصائية بسيطة لمقطوعته إتضح ما يأتي:  
 تكرر لفظة (إليك) مرتين، وتكرر لفظة ( القبر ) ثلاث مرات ،ولفظة (داري) ثلاث  
 مرات، ولفظة(جيراني) مرتين ولفظة(الدنيا) مرتين، و(لذاتها) مرتين...  
 لقد وقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، والتكرار هنا جاء على سبيل الازدراء  
 والتهمك والتنقيص في شأن الدنيا.  
 والتكرار يرد تلبية لحاجات نفسية عميقة الأثر في نفس الشاعر وفي حوار ومخاطبته  
 للدنيا. وقد تكون الألفاظ المكررة ذات دلالات نفسية<sup>(1)</sup> غامضة لمستقبله في عالم  
 القبور والأموات.

وعلى مر العصور الأدبية كانت أساليب الشعراء تمثل طرقهم الخاصة في  
 صياغة تجاربهم الشعرية، وكان لأسلوب الطلب المجال الأرحب، حيث لم يستغن  
 الشعراء عن الاستفهام والنداء والتمني... والاستفهام معين ثر يوجهه الشاعر بحسب  
 معاناته في أمور حياته الكثيرة، ولاسيما قلقه الدائم من الشيب الذي عده الشاعر علي  
 بن عرام واعظاً يرشده سواء السبيل فلا ريبة تكتنف حياته لاسراً ولا جهراً يقول سائلاً  
 نفسه في بيته الأول ومجيباً في بيته الثاني:<sup>(2)</sup>

أغني وقد لاح المشيب بعارضي      وفيه لعمرى واعظ أي واعظ  
 سأكرم نفسي أن تقارف ريبةً      بسر دفين أو بعين ملاحظ

ولم يكن الاستفهام أداة جمالية فحسب، بل كانت وظيفته زيادة التعبير عن  
 التوتر النفسي، ويميل معظمه إلى معاني النفي أو التعجب مجازاً، وقد نلمس فيه  
 (طابعاً تعليمياً) يهدف إلى تقرير الحقيقة عن طريق تكرر الأسئلة ذاتها...<sup>(3)</sup>  
 ولعل من أرق نماذج توظيف الاستفهام، ما جاء به الشاعر ابن النبيه المصري  
 (ت619هـ) في الاستعطاف، وبما أن الاستعطاف- بحسب وجهة نظرنا . أمر دنيوي  
 يمس خصوصيات الشاعر وتقرير مصيره وتحسين صورته أمام الممدوح في غضبه

(1) ينظر: قضايا الشعر المعاصر: 276-279.

(2) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء مصر: 178/2.

(3) ينظر: الرحلة إلى الفردوس و الجحيم في أساطير العراق القديم: 180.

أو نفوره، فإنه لأمر خطير على الشاعر: فعليه ألا يبعد أي أسلوب ناجح ليصل إلى مرامه وهو رضا الممدوح، ناهيك أن الشاعر ابن النبيه يمكن أن يمثل - كغيره من شعراء مصر - شعر المصريين، في اقتصادهم في استخدام البديع من ناحية ووضوح العبارة وإشراقها، وميلهم إلى السهولة وبعدهم عن التعقيد من ناحية ثانية<sup>(1)</sup>، يقول ابن النبيه منادياً الوجه الجميل<sup>(2)</sup>:

يا أيها الوجه الجميل تدارك الصـ	ب النحيل فقد عفا وتضعضعا
هل في فؤادك رحمة لمتيم	ضمت جوانحه فؤاداً موجعا
هل من سبيل أن أثبت صابتي	أو أشتكى بلوأي أو أتضرعا
أمظفر الدين استمع قولي وقل	لعثار عبد أنت مالكة: لعاً <sup>(3)</sup>

هذا النداء ( يا أيها الوجه الجميل )، فتح آفاق القبول لدى الممدوح، أعقبها الأمر ( تدارك ) المجازي، ثم ( الصب ) و ( النحيل )، و ( عفا وتضعضعا ) وهكذا بقية الألفاظ التي جاءت متجانسة بهذا الاستفهام المتكرر وهذا التقابل بين فؤاد الممدوح وما فيه من رحمة وبين فؤاد الشاعر وما فيه من وجع وحسرة، ويمكن للمتلقي أن يتحسس الأثر العاطفي الذي تركته قصيدته في النفس، ومن خلال هذا التعبير الأدبي ظهرت روحه جليلة وبدت الحياة نابضة في ثناياه.

ومن الشعراء من اتبع أسلوب القسم لتأكيد فكرته كقول ابن عنين (ت630هـ) مقسماً ليؤكد رغبته في فداء أحبائه أمام الموت:<sup>(4)</sup>

قسماً لو ان الموت يقبل فديةً عزت لكنت بمهجتي لك فادي

(2) ينظر: أدب الحروب الصليبية: 255.

(3) ديوان ابن النبيه المصري: 149.

(4) لعاً: كلمة تقال لمن يعثر دعاء له.

(1) ديوان ابن عنين: 63.

في حين يقسم الشاعر ابن مطروح (ت 649هـ) متغزلاً، وبعد ثمانية أبيات من الغزل يمدح السلطان الناصر يوسف سنة 648 هـ عند مسيره إلى دمشق ببيتين فقط يقول:<sup>(1)</sup>

لا وعينيك ويكفي ذا القسم  
لا تراه ناسياً لفظة لا  
مارأت عيناى يوماً منذ كم؟  
كصلاح الدين لا ينسى نعم  
من يرد الغيث إن قيل همى؟  
من يرد الليث إن قيل هجم؟

وكما تمنى الشعراء الغنى والجاه، وسعوا إلى القبول والرضا عند ممدوحهم، فإن الإمام الشاعر ابن عسرون (ت 585هـ) تمنى الموت برغم نهى الرسول الكريم عن تمنى الموت في قوله (لا تتمنوا الموت)<sup>(2)</sup>، وحتى أمنيته تبدو غريبة بعض الشيء بسبب علتها، وبدا ذلك في أسلوب طرحه لفكرته، يعلل قائلاً:<sup>(3)</sup>

أؤمل وصلاً من حبيب وإنني  
تجارى بنا خيل الحمام كأنما  
على كمد عما قليل أ فارقه  
يسابقتني نحو الردى وأسابقه  
فياليتنا متنا معاً ثم لم يذق  
مرارة فقدي لا ولا أنا ذائقه

وإذا ما إنفسحت الحياة بمصاريعها أمام الرجال ،في زمن كانت للرجولة قيمتها ورمزيتها، وفتحت للبطولة أبواب فروسيتها، وللجهاد ميدانه وتسابقه، وثم زخرت للحياة آمالها وآلامها، ونعيمها وبؤسها، وشكواها ورضاها ولهوها وزهداها، وما إلى ذلك من فسح الحياة الأيوبية الواسعة، فإننا أمام شاعرة قال عنها صاحب معجم السفر (أنشدتني تقيّة بنت غيث، بن على الارمنازي الصوري المدعوة ست النعم بالثغر ولم تر عيني شاعرة سواها)<sup>(4)</sup>.

(2) جمال الدين بن يحيى بن مطروح (حياته وشعره): 281.

(3) صحيح البخاري: ص 1278، رقم الحديث 7233.

(4) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام: 351/2.

(1) معجم السفر: 220/1.

وقد نفت انتباهنا أبياتاً من قصيدة لها ترد على من لامها في مدح نفسها، وقد ردت على لؤامها باستفهام التصور، وقد بدت صيغة التأدب في أسلوبها، وأجادت في تعليل مدحها لنفسها بالتعريض بأبي الطيب المتنبي لمدحه نفسه وبنيت رأيها بأحقية المتنبي في ذلك، واستفهمت أخيراً مستنكرة عليهم وجود فتاة تفوقهم علماً وشعراً، وعرضت بالهجاء والمديح بالذات وهما من أشهر فنون الشعر، تقول تقية الصورية (ت 579هـ)<sup>(1)</sup>

أبالجد هذا منك أم أنت تمزح؟	يعتب على الإنسان إظهار علمه
إلى مدحهم قوم وقالوا فأفصحوا	فدتك حياتي قد تقدم قبلنا
على نفسه بالحق والحق أوضح	وللمتنبي أحرف في مديحه
وتعلو على علمي وتهجو وتمدح؟	أروني فتاة في زماني تفوقني

وأخيراً بما أن اللغة هي ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، فهي مظهر الحياة العقلية عند الأمة، ومرآة تطورها الاجتماعي، ولذلك تفرد شعراء عهد بني أيوب بأساليبهم ما بين الأسلوب التقليدي والأسلوب الشعبي الميسر والأسلوب الزخرفي<sup>(2)</sup> الذي أشاد به الدكتور محمد زغلول سلام ورأى، أن دارسي الأدب في القرنين الخامس والسادس الهجريين إهتموا بالبديع وفنونه اهتماماً بالغاً، وعدوه حلية ضرورية لا يكون الشعر جميلاً إلا بها....<sup>(3)</sup>.

(2) خريدة القصر وجريدة العصر/قسم شعراء مصر: 223/2.

(3) ينظر: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 351، 343، 339.

(4) ينظر: تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري: 313.

## 2. الصورة الشعرية:

أفاض تراث العرب النقدي و البلاغي في تحديد ملامح "الصورة"، بدءاً من الجاحظ (ت 255هـ) في كتاب (الحيوان) وصعوداً لمواقف النقاد العرب في القرون التي تلت زمن الجاحظ.

وأفاضت أيضاً البحوث و الدراسات الأدبية بالإشارة و الاستشهاد بذلك، وما يهمننا هو أن نقف على مفهوم للصورة التي تخدم الدراسة الفنية، وما أفاض به عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) يوضح المرام من الصورة فهي تقع في المعنى وليس في الإطار الشعري وحسب، حيث يقول (وان من الكلام ما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز الذي تختلف عليه الصور، وتتعاقد عليه الصناعات وجل المعول في شرفه على ذاته، وان كان التصوير قد يزيد في قيمته ويرفع من قدره...<sup>(1)</sup>)، فالجرجاني يحاول أن يبين أن سر الجمال في الاستعارة يرتكز على ما تتضمنه من رمز وتلويح وإيماء إلى معان خفية بعيدة تفوق المعنى الظاهر<sup>(2)</sup>.

ومن محاولات النقد الأدبي الحديث لتحديد مفهوم الصورة الشعرية نخلص إلى مفاهيم وان تراءت لنا مختلفة في صياغتها إلا أنها تتمركز في أهم عناصر الصورة الشعرية، فالصورة في الاستعمال الأدبي تشير إلى التي يتم تكوينها في العقل بواسطة اللغة<sup>(3)</sup>، بالإضافة إلى كونها معيار الإبداع، يعبر بها الشاعر عن أحاسيسه وأفكاره وتجربته، وتعمل على تنظيم التجربة الإنسانية الشاملة للكشف عن المعنى الأعمق للحياة و الوجود المتمثل في الخير و الجمال من حيث المضمون و المبني بطريقة إيحائية مخصصة<sup>(4)</sup>، يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها<sup>(5)</sup>. أن الشاعر إذ يندمج في الأشياء يضي عليها مشاعره، و الموقف الذي تقوم على أساسه الفلسفة النفسية للصورة الشعرية، أن عالم الأفكار

(1) كتاب أسرار البلاغة: 25.

(2) ينظر: تمهيد في النقد الحديث: 194.

(3) ينظر: "الصورة الفنية" (موسوعة برنستون للشعر)، السنة الثامنة، ع: 4: 22.

(4) ينظر: الصورة الفنية في شعر أبي تمام: 14.

(5) ينظر: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري: 30.

(وهو غير واقعي) يحاول أن يصبح واقعياً بمعانقته للأشياء، لكن هذه المعانقة ليست فناء للفكرة في الشيء..<sup>(1)</sup>

ويؤكد الدكتور عز الدين إسماعيل أيضاً على اتحاد الفكرة أو الشعور بالصورة وعدم إمكان تصورهما مستقلين، فهما تركيبية عقلية وعاطفية في لحظة من الزمن<sup>(2)</sup>. ونجحت الباحثة بشرى موسى في تحديد البعد المباشر للصورة الشعرية كتركيبية لغوية متحققة من إقتران الشكل بالمضمون في سياق بياني خاص، أو حقيقي كاشف ومعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية<sup>(3)</sup>. أما في علم النفس فهي تعني إعادة إنتاج عقلية، ذكرى، لتجربة عاطفية أو إدراكية غابرة، ليست بالضرورة بصرية<sup>(4)</sup>. إن الشاعر يعاني التجربة معاناة، يندهل بل ينخطف عبرها، ويحاول أن ينقل في شعره ما عاناه وانذهل به. ومعاناة الشاعر، غالباً، هي نتيجة واضحة لأسباب نفسية وفنية بعيدة الغور كثيرة اللبس و التحول و التقمص، لذا قيل عن الشعر هو غالباً، تعبير عن الذات المظلمة في الشاعر، تلك الذات التي تختلج في وجدانه وراء ما يعيه ويفهمه، وما يتداول به من شعور ظاهر<sup>(5)</sup>.

ومن ابرز عناصر الصورة الشعرية وقواعدها (الخيال)، فهو وسيلة الشاعر في محاولته التعبير عما يعتمل في صدره ويدور في عقله، فيترجمه صورة أدبية مؤثرة ومثيرة<sup>(6)</sup>، ويكاد يكون الخيال المنهل الثر لغالبية الشعراء، وهو دعامة أساسية للصورة الشعرية. فالشعر الحق لا يكون من غير أسرار، ولا يعيش من دون أوهام، فلا غنى للخيال الشعري عن شئ من الوهم، فما (تفسر الوقائع بأسبابها الباردة، ولا غنى لها عن شئ من الضباب يغشى الأشياء فيكسبها روعة السر وفتنة المجهول)<sup>(7)</sup>.

(1) ينظر: التفسير النفسي للأدب: 65.

(2) نفسه: 71.

(3) الصورة الفنية في نقد الشعر العربي الحديث: 27، (رسالة دكتوراه).

(4) نظرية الأدب: 240.

(5) ينظر: نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص: 8.

(6) ينظر: داود بن عيسى الأيوبي (حياته وشعره): 27، (رسالة دكتوراه).

(7) علم النفس و الأدب: 5.

ومع كون الخيال يولد صورا واضحة ويعيد رسم الصورة الحسية في الحياة، إلا إن الشاعر عرقله الكلبى (ت567هـ) قد يستغني عنه، عندما تلح عليه فكرة عميقة تشغله وتملا عليه فكره، وما تلك الفكرة إلا المطلب الحياتي "المعاشي" الذي بات يورق حياته مع اثرته عن غيره من الشعراء عند صلاح الدين، ولعل هذا الإيثار قد كان سببا من أسباب موته فقد بالغ في الحرص على الحياة - مطالبته بما وعده السلطان من العطاء - فوهب إليه الموت بعد أن أعطي هبة سلطانه، مات فجأة، وهاهو ذا ينقل إلينا شعورا ذاتيا صادقا يبحث عن نظير مادي لما يعانيه، يقول: (1)

قل للصالح معيني عند اعساري      يا ألف مولاي، أين الألف دينار؟  
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم      وما تقي جنة الفردوس بالنار

أظهر بيتا الشاعر بوضوح معاناته، وخشيته من الموت أو الأسر إن قصد مصرا، وفاقته وعوزه في الحياة، أدى به إلى شعور فكري خاص اتجاه الحياة. أراد الشاعر أن يضع قاعدة ثابتة لموت عوزه فاستعطف ب(يا ألف مولاي)، وعبر عن خشيته من الأسر وأبهم في ذكر الموت، لما له من سطوة وجبروت عليه، إنها صورة خالية من التشبيه و أمثاله إلا أنها عكست الجانب الإنساني المظلم من حياة وموت شاعر من الشعراء.

اهتم شعراء هذه الحقبة بالصورة الشعرية اهتماما بالغا، واعتمدوا على الأسلوب الفني التصويري في نقل أفكارهم ومشاعرهم، سواء أكان ذلك بالأساليب البيانية المعروفة أم بالأسلوب الوصفي الذي يعتمد على ظلال الكلمات وإيحاءاتها في رسم المشهد، وإشاعة الجو الذي يريده الشاعر. وكثرت الصور التقليدية التي استمدها الشعراء من أسلافهم، وشحذ الشعراء طاقاتهم الفنية لاستخراج الصور الطريفة، وتوليد المعاني المبتكرة، وقد شجع بعض نقادنا الإطلاع على أشعار الأقدمين لعل الشاعر

(1) ديوان عرقله الكلبى: 49.

يقبس معنى يكون سباقا إليه<sup>(1)</sup> ففي رثاء زوجته رسم الشاعر عمارة اليمني  
(ت569هـ) للمنايا صورة تقليدية، حيث يقول<sup>(2)</sup>:

بعضنا قد قضى وبعض شديد	و المنايا تحشنا بسنان
ويح قلبي لنا حدا حادي المو	ت وساروا بنعشها للمكان
كل عام للموت عندي نصيب	في سراة البنين و الإخوان

ومن جدة الإخراج و البراعة أن يأتي الشاعر بما يستطيع من الصور في  
البيت أو المقطوعة، كقول تاج الملوك الأيوبي (ت579هـ) في وصف حال الدنيا  
لموت أخيه شمس الدولة تورانشاه<sup>(3)</sup>:

شمس لدولتنا جنت أنوارها	بعد الضياء، وكان نور الناظر
جبل هوى فارتجت الدنيا له	فكأنما ركبت جناحي طائر
قد كورت شمس النهار لفقده	وجنا سنا القمر المنير الباهر

والبيت الأخير يذكرنا برثاء السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام لأبيها صلى الله عليه وسلم في قولها<sup>(4)</sup>:  
أغبر أفاق السماء، وكورت شمس النهار، واظلم العصران

ويلاحظ في المقطوعة كثرة الصور، انطلاقا من المقاييس في الحكم على الشعر  
آنذاك وهي الثناء على إتيان الشاعر بما يستطيع به من الصور كما جاء في الخريدة  
على لسان كاتبها عماد الدين الاصفهاني<sup>(5)</sup>.

ومن ذلك قول أسامة بن منقذ (ت 584هـ) في وصف سنه المخلوع<sup>(6)</sup>:

وصاحب لآتمل الدهر صحبته	يشقى لنفعي ويسعى سعى مجتهد
لم آلفه مذ تصاحبنا، فحين بدا	لناظري افترقنا فرقة الأبد

(1) ينظر المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر: 69/1.

(2) كتاب النكت العصرية، في أخبار الوزراء المصرية: 277.

(3) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 170.

(4) زهر الآداب وثمر الآليات: 70/1.

(5) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام): 575/1.

(6) ديوان أسامة بن منقذ: 153.

ونادرا ما يلتفت الإنسان مثل هذه الالتفاتة، ليثني على سنه أو عينه أو أذنه أو يده... وكأنها أُجْرَاءٌ لديه، حتى يفاجئ بفقد واحد منها، وعندها يصح على ندم وحسرة، وما أجمل نعي أسامة بن منقذ لسنه!! نعاه كصاحب، قضى شطرا من عمره غائبا، وشطرا حاضرا وشقيا، سعى سنوات معه، وما أشقى هذا اللقاء الذي باء بفراق ابدى!! وعلق عماد الدين الاصفهاني على هذين البيتين بقوله:

(وهما من مبتكرات معانيه)<sup>(1)</sup>.

و تمثل العمر جزء من قلق أسامة بن منقذ، فتفننت قريحته في وصف نصيبه منه،  
قائلا:<sup>(2)</sup>

وإذا عددت سني ثم نقصتها      زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

وتلك الصورة من المعاني التي انقذت لأسامة من أشعار الاقدمين، وقد علق العماد على ذلك قائلاً: (فهذا ابلغ من قول أبي فراس بن حمدان:

ما العمر ما طالت به الدهور      العمر ماتم به السرور  
أيام عزي ونفاذ أمري      هي التي احسبها من عمري

فالفضل للمتقدم في ابتكار المعنى وللمتأخر في المبالغة)<sup>(3)</sup>.

وإعتمد الشعراء على حواسهم في بناء صورهم اعتمادا واضحا، وكانت الصور المرئية التي تعتمد على البصر مثل اللون و الهيئة، وانفعالات الوجه و الحركة بأنواعها من أكثر الصور دورانا في الشعر، ولا يعني الاعتماد على الحواس في التصوير أنهم نقلوا الواقع نقلا حرفيا، وإنما برزت هذه الصور من خلال مشاعرهم وأحاسيسهم في إطار من الجمال و الإيحاء الفني كما مزج الشعراء بين هذه الصور، وأخرجوها في لوحات فنية متكاملة<sup>(4)</sup>... وهذا ما يتراءى لنا في هذه الصورة التي

(1) الروضتين في أخبار الدولتين: 264/2.

(2) ديوان أسامة بن منقذ: 247.

(3) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام: 501/1 و البيتان من مزدوجة أبي فراس الطردية، ديوانه:

319.

(4) ينظر: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 325.

رسمها القاضي الفاضل (ت 596هـ) للشهيد، ووظف حواسه لتجسيد: البصر و اللون، والشم وغيرها يقول<sup>(1)</sup>:

لهفي لمقتول تلاحظه عيون البيض شزرا  
متضرجا بدم راته الحور في الجنات عطرا  
متكفن بملابس حمراء، وهي تعود خضرا

وهذا في معنى بيت أبي تمام<sup>(2)</sup>:

تردى ثياب الموت حمرا، فما دجى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

وإذا وثقنا بالأقدار، وراقبنا تقلب الليل و النهار، وحذرنا من ظفر الزمان ونابه فكيف بالفريسة العجماء التي يصفها الأمير يغمر بن عيسى بعد أن انقض عليها احد الفهود فاتكا بها، وجاء وصفه لموتها ينبض بالحياة!! وبذلك يقول:<sup>(3)</sup>

يشد على الطريدة ثم يهوي  
فيرديها معاجلة كان قد  
فليس ترى به إلا التماحا  
تضمن كفه القدر المتاحا

ولابد أن تكون دلالة الأبيات الشعرية شديدة التأثير على الشاعر عندما يعبر عن مأساة الموت من خلال صورة شعرية موحية متنوعة قد تكون صوراً بصرية أو سمعية أو حركية، تصور أعرق المآسي التي يواجهها الإنسان، حيث لا تحديات ولا خلود والصراع مازال قائماً بين الحياة والموت، وقد عبر ابن سناء الملك (ت 608 هـ) في صورة عن موقف الطبيعة والدين والقرآن والعلم والشرع، وجسد ردة الفعل أزاء موت احد رجالات عصره الشرفاء قائلاً:<sup>(4)</sup>

(1) ديوان القاضي الفاضل: 397/2.

(2) ديوان أبي تمام: 329.

(3) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم الشام: 373/1.

(4) ديوان ابن سناء الملك: 505/2.

تبكي السماء لشمس منك مشرقة      تحت التراب ونجم منك وقاد  
ويلطم الدين خديه ومفرقه      من بعد تخريق أثواب و أبراد  
وقد بكت سور القرآن فاستمعوا      شهيق نون بسمع القلب أوصاد

وتزداد صورته حركة واضطراباً وتميل إلى الرعب والوحشية وهو يرسم صورةً للدهر،  
منادياً إياه (يا دهر)، وكأنه منادٍ (يا موت)، وهذا وارد فقد ذكر أن الدهر هو سبب  
الموت في الشعر الجاهلي<sup>(1)</sup>، ويبدو أن ابن سناء ساوى بينهما قائلاً:<sup>(2)</sup>  
يادهر تأكل أحبابي وتقر سهم      ما أنت يادهر إلا ضيغم ضاري

فالأكل والفرس، وضحت صورتها بقوله (ضيغم ضاري)، مع ما أضافه حرف  
الضاد وتكراره من تفخيم وتهويل.

وعلى الاعتراف أن الشعر في طبيعة تحديده، هو التعبير عن الأشياء من  
خلال الواقع الذاتي، وان العاطفة هي المادة الأصلية للتجربة الشعرية فهي التي (تدفع  
بالنفس إلى التوتر والتنازع بين واقع الأشياء ومثالها، وتؤدي إلى ما نشهده من سور  
للغلو، وبعث لليقين النفسي الذي قد يخالف اليقين المنطقي)<sup>(3)</sup>. وما توتر  
النفس وتنازعها، إلا انفعال عميق ينشأ نتيجة لاتحاد مباشر بين عبقرية الشاعر  
وموضوعه الذي يشغله (فإذا وقع هذا الاتحاد فإنه يتبلور في حدس)<sup>(4)</sup>. وبالنظر إلى  
أهمية عنصر العاطفة فإنه يحتاج غالباً "لأجل أدائه إلى الخيال الذي هو لغة العاطفة  
ووسيلة تصويرها من ناحية الأديب، وبعثها في نفس القارئ، فالعاطفة في الأدب  
عنصر أسلوبية يحس دون أن يشرح أو يعرض عرضاً مباشراً صريحاً"<sup>(5)</sup>.

والأمر مختلف جداً في الشعر الصوفي، ففيه ارتفاع بالصورة الشعرية الحسية  
عند الشاعر على كل حالة عشق أرضية زائلة، إنه ارتفاع بالمحسوس إلى مصاف

(1) ينظر: الحياة و الموت في الشعر الجاهلي: 145.

(2) ديوان ابن سناء الملك: 509/2.

(3) نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص: 26.

(4) الإبداع الشعري في النقد العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري: 27.

(5) الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية): 52.

اللامحسوس<sup>(1)</sup>، فحين يصف ابن الفارض (ت632هـ) الخمرة الروحية التي يرى لونها ويسمع قرقرتها في الحلق ويشم رائحتها، فإنه لا يحاسب بشئ من حسابات الصورة الفنية، فهو منتم إلى علياء الصفاء الروحي، يقول في ميميته المشهورة:<sup>(2)</sup>

صفاء ولا ماء ولطف ولاهوى  
ونور ولانار وروح ولاجسم  
تقدم كل الكائنات حديثها  
قديما ولاشكل هناك ولارسم

ويرى الدكتور زكي مبارك أن المعاني الرمزية في شعر ابن الفارض هي السرفي إقبال الناس على شعره<sup>(3)</sup>، إن الشعر الصوفي ينبع من الذات، فهو في حالة كشف وفيض، أو في حالة توتر و وجد مشوق إلى هذا الكشف والفيض وعندما تدار كؤوس المحبة وبغير بنان يطالعنا الشاعر ابن عربي(ت638هـ) بقوله<sup>(4)</sup>:

لوترانا برامة نتعاطى  
أكؤوسا للهوى بغير بنان  
والهوى بيننا يسوق حديثاً  
طيباً مطرباً بغير لسان

يصف مايسميه بلغة(الصوفية) مقام المحاورة، وكؤوس المحبة من قوله تعالى(يحبهم ويحبونه)<sup>(5)</sup>، وقوله بغير بنان تنزيه وتقديس وتبنيه على أن الأمر معنوي غيبي خارج عن الحس والخيال والصورة والمثال. لذا يحتل الخيال منزلة سامية عند ابن عربي، فهو أعظم قوة خلقها الله، يستمد مادته من عالم المحسوسات ثم يعيد تركيبها في صور جديدة.<sup>(6)</sup>

لا يخفى على الجميع أن تجارب الحياة لا تحصي، لان الحياة والطبيعة متعددتا الجوانب، وهما ينبوع لا ينضب يستقي منه الأديب ما يشاء، والتجارب أيضاً تتفاوت من حيث القيمة والسمو، وتجارب الشاعر في عهد بني أيوب، تجلت كأبي

(1) ينظر: نقد الشعر في المنظور النفسي: 190.

(2) ديوان ابن الفارض: 190.

(3) التصوف الإسلامي في الأدب و الأخلاق: 1/88-86.

(4) ترجمان الأشواق: 85.

(5) المائدة: 54.

(6) الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري: 20.

عصر من عصور أدبنا العريق شمولية و أصالة وعمقاً، وتبدو خصوصية الشعر العربي في العهد الذي نحن بصدد دراسته في إطاره الزمني المحرج الذي جعله متاخماً لأضخم وأطول حروب شهدتها واقع الأمة العربية الإسلامية، ولكن للتاريخ سحراً يشيع في النفوس إحساساً بالجلال والغموض حيث تتهياً النفوس لاستقبال صورة البطل، فقد أضفت الصورة التي رسمها الشاعر على البطل جواً أسطورياً، فتجلت صورة ملونة للحدث التاريخي، ومما أضفى عليه الحياة والحركة، استعانة الشاعر بكل الوسائل البلاغية المتاحة ليرسم تجربته الشعورية، التي هي الصورة النفسية والشعرية الكاملة التي يعرضها الشاعر بعد أن يكون قد تأمل شيئاً (عاشه، سمعه، قرأ عنه)، حينها يقع الشاعر تحت تأثير تجربته فيندمج معها بفكره ووجدانه ويختار لذلك التعبير المناسب واللفظة الموحية والإيقاع الساحر والخيال الرشيق.

والحدث التاريخي هنا يعني الحياة الحربية التي عاش لحظاتها القادة و المقاتلون والناس.. ومن الناحية الفنية يعني أسلوباً تصويرياً، يخلق فيه الشاعر جواً من الإعجاب بعظمة البطل و قدسية الجهاد، ويحمله من الخشوع والرهبة ما يؤثر فينا سلباً أو إيجاباً، إنه يولد فينا الشعور نفسه الذي دفعه إلى نظم قصيدته، أو نعيش الجو الذي عاشه وعاناه وهو يصور الحدث التاريخي، هنا يكون الشاعر قد خلد تجربته، لأنه حولها من إحساس خاص إلى شعور عام، فالتجارب القومية والوطنية والإنسانية أسمى من التجارب الذاتية، فهي تمس أحاسيس الكثرة الكاثرة من الناس.

وعمد شعراء القديسيات في بناء قصائدهم وإيصال معانيهم وأفكارهم إلى الأسلوب الفني التصويري، وجاءت صورهم الشعرية معتمدة على فنون البيان المختلفة، مع أنهم نوعوا صورهم الشعرية، واتسم شعرهم بمواكبة الأحداث ورصدها وتصوير المعالم الكبيرة في فتح بيت المقدس (سنة 583 هـ) المباركة وما صاحبها من معارك جليلة، وينقل الشاعر الشريف النابة المعروف بالجواني (ت588هـ) صورة لفتح القدس الملك الناصر صلاح الدين يقول: (1)

(1) الروضتين في أخبار الدولتين: 105/2.

ملك غدا الإسلام من عجب به  
نثر ونظم طعنه وضرابه  
حيث الرقاب خواضع حيث العيو  
غاراته جمع فإن خطبت له

يختال والدنيا به تتبخر  
فالرمح ينظم والمهند ينثر  
ن خواشع حيث الجباه تعفر  
فيها السيوف فكل هام منبر

وضح الشاعر صورة البطل مستخدماً التشبيه والاستعارة<sup>(1)</sup>، فغدا الإسلام يختال ويتكبر في عهده، شحذ بعدها مخيلته ليصور الموت بين يدي البطل، فطعنه بالرمح نظماً، وضربه رؤوس الأعداء بالسيوف نثراً. والسيوف خطيب يتربح هامات الأعداء منبراً له، والرقاب خاضعة للبطل والعيون خاشعة منكسرة، لا يمكن لمن يقرا هذه الأبيات إلا أن يحس أن هذه الصورة منتزعة من واقع المعركة وتوحي بعظمة البطل.

ونجد الشاعر عماد الدين الاصبهاني (ت 597هـ) في سينيته يحدد موقع معركة حطين، ويذكر وقوع أعداد كبيرة من الفرنج أسارى في أيدي المسلمين، يقول:<sup>(2)</sup>

سحبت على الأردن ردنا من القنا  
حططت على حطين قدر ملوكهم  
تقاد بداماء الدماء ملوكهم  
سبايا بلاد الله مملوءة بها

رد ينية ملدا وخطية ملسا  
ولم تبق من أجباس كفرهم جنسا  
أسارى كسفن اليم نضت بها القلسا  
وقد شريت بخساً وقد عرضت نخسا

الشاعر رصد حركة جيش صلاح الدين الأيوبي، وتحدث عن عبوره نهر الأردن حتى وصوله منطقة حطين حيث هزم الصليبيين شر هزيمة ثم صور كثرة الأسرى والسبايا، واستعان بالتشبيه في البيت الثالث، فجعل المسلمين يسوقون ملوك الفرنج والسبايا وهم مقيدون في بحر من دماء جنودهم كما تساق السفن في اليم، وقد ربطت بحبل ضخم من ليف، ولزيادة توضيح الصورة جانس بين (بخس ونخس).

(2) ينظر تفصيل القول فيهما: كتاب أسرار البلاغة: 26-28.

(2) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 235.

الشاعر عماد الدين في صورته عني بحركية الواقع وبالشكل الخارجي من غير أن يتعمق في اثر الصورة في النفس والى العلاقات الخفية في الصورة، إنه يهدف إلى الوصف وهو نزعة فطرية ملازمة لطبيعة الإنسان. لقد حاكى الشاعر عماد الدين الواقع بكل أبعاده وكان أميناً في نقله هذا الواقع وتصويره إلى جانب الخيال لإتمام عملية النقل بصورة فنية مرضية. وجاءت صورته موافقة لمنطق المكان والتنسيق المكاني للأشياء، ومتابعته لحركتها في مشهد سردي.<sup>(1)</sup>

والشاعر أبو الفضل الجلياني (ت 602هـ) يعمد إلى توظيف الأدلة المنطقية والبراهين العقلية في صورته الشعرية، حيث يقول في مقدمة قصيدته المعروفة بالفتحية الناصرية:<sup>(2)</sup>

في باطن الغيب ما لا تدرك الفكر      فذو البصيرة في الاحداث يعتبر  
مالي أرى ملك الإفرنج في قفص      أين القواضب والعسالة السمر؟

نلاحظ الاستهلال، إذ جاء بصورة تقوم على الإدراك العقلي لا الشعوري، فهي صورة عقلية تفيد أن المرء مهما بلغت قوته وفطنته لا يستطيع الوصول إلى ما خفي في علم الغيب والمرء المدرك العاقل، تكون الأحداث دليلاً و إلا فالموت مصيره.

إن صورة الجلياني العقلية تتفق مع رؤيته للشعر إذ يقول:<sup>(3)</sup>

إذا الشعر لم يحك العلوم فقد      حكى ججاج اصوات ولغواً مفندا

والصورة العقلية لم يغفلها علماء البلاغة فقد حدها عبد القاهر الجرجاني بقوله:

( تمزجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني.. )<sup>(4)</sup>

وأكد ذلك بعض المختصين في الفكر ودراسة الشخصية بقوله ( لا ينعزل الشعر الذي هو سجل المشاعر الإنسانية عن العلوم الطبيعية التي هي أساس

(1) ينظر: الشعر العربي المعاصر، قضاياها وظواهره الفنية و المعنوية: 156.

(2) ديوان المبشرات و القدسيات: 137-138.

الروضتين في أخبار الدولتين: 116/2.

(3) ديوان المبشرات والقدسيات: 143.

(4) كتاب أسرار البلاغة: 13.

الحضارة المادية الحديثة بل يتم كل منهما صاحبه: فيخلع الشعر بعض جوانب رفته على العلم الجامد ويقتبس منه في الوقت نفسه بعض حقائقه وأسلوبه في البحث ليصبح اصدق تعبيراً عن عواطف الإنسان واقل مبالغة في وصف الأحداث والكشف عن ملابساتها وأكثر بعداً عن تشويه الحقائق أو تزييفها<sup>(1)</sup>، ويمكن ملاحظة ترابط الصور الجزئية وتكاتفها وتلاحمها مع بعضها لتشكيل الصورة الكلية، والجلياني قد نسج صورة ( الفتحية الناصرية ) على ذلك المنوال يقول:<sup>(2)</sup>

أما رايتم فتوح القادسية في	أكناف لوبية <sup>(3)</sup> تجلى وذا عمر
والحق يعرس والطغيان منتحب	والكفر يطمس والإيمان مزدهر
هذا الملك الذي بشر النبي به	في فتنة البغي للإسلام ينتصر

لقد آلف الجلياني بين صورته الجزئية، ووظف التراث الديني والربط بين فتح بيت المقدس والأحداث التاريخية العظيمة، والشاعر في قدسياته عموماً قد كثف الجزئيات وترابطها من أجل أن يحقق وحدة موضوعية للقصيدة وتماسكاً شعورياً حتى غدت القصيدة في شعر القدسيات صورة نفسية موحدة يصور فيها الشاعر اثر الأحداث في نفسه، وفي المسلمين كما يبين صدى هذه الأحداث في الأعداء من الناحيتين المادية والنفسية.

لقد أولى شعراء القدسيات عنصر الحركة في بناء صورهم الشعرية أهمية فائقة، فجاءت صورهم نابضة بالحركة ومفعمة بالحياة، فصوروا اندفاع الجيوش الإسلامية الجارة لفتح القدس وتحرير البلاد كما صوروا فلول الصليبيين أمام المد الإسلامي واضطرابهم، يقول الشاعر ابن الساعاتي (ت604هـ)<sup>(4)</sup>:

تجاوزت ما أعيا الجبال مناله      فهل يقظة كانت مساعيك أو حلما ؟

(2) الفكر (طبيعته وتطوره): 258.

(3) ديوان المبشرات و القدسيات: 138.

الروضتين في أخبار الدولتين: 116/2.

(4) لوبية: من قرى طبرية، موقع أثري فيه مدافن منقورة في الصخر دمرها اليهود سنة 1948.

(1) ديوان ابن الساعاتي: 387-386/2.

نصبت على الأعداء رأياً وراية  
 وشمّت سيوفاً تنهب الليل وقدهً  
 إذا عقلت سود المنايا قرعتها  
 فحصنت منه بالردى ذلك الحمى

يفيدانهم من بعد رفعهم الجزما  
 فكل عيان ظنها النار والفحما  
 ببيض ذكور تولد المحن العقما  
 وحسنت منه بالندى منظراً جهما

نسج الشاعر ابن الساعاتي صورته بالاعتماد على الألفاظ الموحية بالحركة، ومنها: تجاوزت، نصبت، شمت، قرعتها، تولد،.. وما أوضح عنصر الحركة في تشكيل صورته في قوله ( وشمّت سيوفاً تنهب الليل وقدهً ) فالسيوف تنهب الليل شيئاً فشيئاً وتضيؤه ببريقها حتى ظنها الناظر من بعيد ناراً موقدة .

وتنوعت الصورة بين جزئية ولوحات كبرى توصل الشعراء في رسمها بالتشخيص والتجسيد، ويلاحظ في الصور التي تعتمد التشخيص غلبة صورة الإنسان ذكراً كان أم أنثى...<sup>(1)</sup> وها هو الشاعر ابن سناء الملك (ت 608هـ) يصور مدينة الكرك أمماً ثكلى، لم تعد قادرةً على الإنجاب، وكأن هول الأحداث أصابها بالعقم يقول:<sup>(2)</sup>

هل الكرك الثكلى بأولادها انتهت  
 وكانوا لها كالعقد إلا أنه وهى

عن النسل مما جرعت من الثكل  
 وأضحى لها جيش ابن أيوب كالغل

ومن الصور الشعرية المميزة ما تعتمد على المبالغة في الانفعال والتخيل مع ميل الشاعر إلى التلميح والإيحاء لا التصريح والمباشرة في التعبير، ويبقى استكشاف المجهول الحلقة التي تبين اثر الواقع في النفس بخلق عالم مجازي خيالي إيحائي. إن الاهتمام بالواقع الوجداني الداخلي من سمات هذه الصورة، وهي القادرة على إثارة العواطف وتحريك الوجدان، وتكمن فيها المتعة الفنية، وتجعل النفس في حالة دهشة واغتراب.

ولأبد من توفر الصور التي تمثل الحركة القوية السريعة والأصوات الحادة في الشعر الحربي ((الجهادي)) وخير مثال لصورة إيحائية في شعر القدسيات قول

(2) ينظر: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 321.

(3) ديوان ابن سناء الملك: 223/2.

الشاعر فتیان الشاغوري (ت615هـ) مصوراً جيش الفرنج ولقاءه المسلمين في معركة حطين: (1)

يتذامرون على متون الضمر	جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم
بظبى وزغف محكم وسنور	وكانهم بحر تدافع موجه
فولغن في علق النجيع الأحمر	اوردت أطراف الرماح صدورهم
والخيل تعثر بالقنا المتكسر	ولوا وعقبان المنون مسفة
من كل ذي ناب وصاحب منسر	فالقوم نهب للسباع تنوشهم

الصور واضحة التي نوه عنها الشاغوري، رسم هيئة جيش الأعداء في حشده المتماوج، واستعداداته الضخمة وحماسته للقتال، وهذا جل مرام البطل المقاتل أن يكون خصمه كفاءاً له لتكون لذة الانتصار أكثر عمقاً واشدّ خلوداً. ووقعت لفظة (جاشت) موقعاً يوحي بالاضطراب والحركة السريعة وجو المعركة الحافل بالصخب والضجيج، وروح المباغته، والدماء النازفة، والسيوف المضرجة، والقتل المفاجئ.. وزاد الشاغوري الصورة توضيحاً فشبه جيش الأعداء بالبحر ولكنه هائج، تتدافع فيه السيوف والدروع، وبدا الشاعر موفقاً في مزجه بين مشاعر الاعتزاز بالقوة ومشاعر الخوف التي تملكت الصليبيين بعد لقاءهم صلاح الدين وجيشه. فصور الإفرنج هاربين من ساحة المعركة، تلحق بهم نجوم تخر من السماء وتتبعهم عقبان المنون.. وتآزرت هذه الصور الجزئية جميعاً في بناء صورة كلية حافلة بالحركة والحياة تشد المتلقي لمتابعتها بحواسه جميعها.

ويختم الرشيد النابلسي (ت619هـ) القصائد القدسية، وهو يعلي من قيمة هذا الفتح الذي لايدانيه فتح: (2)

فدون مرتبته الأنجم الزهر	يوم تعالى محلاً واستنار سنا
جم ولكن لكسر ليس ينجبر	يوم به التأم الكفار في عدد
والنقع مرتفع والنصر منحدر	فالروع متصل والعبر منفصل

(1) ديوان فتیان الشاغوري: 140-148.

(2) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: 166، 167.

لقد اصطفى ألفاظاً دالة غزيرة المعنى، فالخوف مسيطر على نفوس الصليبيين، واكتفى بالإيجاز في وصفه شدة المعركة بقوله (النقع مرتفع )، وقد وفق في استخدامه أسلوب التقسيم في بيته الأخير مما زاد الصورة جمالاً وانسجاماً مع الإيقاع الموسيقي لهذا الأسلوب، إضافة إلى أسلوب الطباق بين (متصل ومنفصل ) و ( مرتفع ومنحدر).

إن هؤلاء الشعراء وغيرهم من شعراء هذه الحقبة، مزجوا في قصائدهم بين البعد الفني والبعد التاريخي، ولن يكون هذا مأخذاً عليهم قياساً بالمدة الزمنية لتلك الحروب، وقياساً بالرقعة الجغرافية التي احتلتها معارك الجهاد، لذا جاءت إطلاتهم في القصائد وعنايتهم بأحداث المعارك، تنزع إلى الوصف والنقل التصويري للواقع مع تركيزهم على البعد النفسي للصورة، والنظر برؤية خاصة ملائمة لنفسيتهم عندما يصورون المكان، وجل همهم المكان النفسي<sup>(1)</sup>، وهنا عليهم الاستعانة بالصورة المكانية لخلق حالة من الانسجام بين الشاعر والواقع.

وهكذا سطعت في سماء حياتهم وشعرهم ( القدس)، هالة من نور لن يخبو سناها وجمرة لن تخمد نارها في القلوب.

ويمكن الاستتارة بما يأتي:

1- إن تأثر شعراء القديسات بالموروث الأدبي ليس عجزاً في قدراتهم ، فقد شعروا أن أمتهم تواجه حملات صليبية حاقدة تهدف إلى اقتلاعهم من جذورهم والقضاء على دينهم وتراثهم الأدبي واللغوي فأروا ضرورة الحفاظ على دينهم فتمثلوا بالقرآن الكريم في شعرهم وحاكوا صورته وأساليبه و معانيه وقصصه، فالثقافة الموروثة تدخل في التكوين الفني للشاعر، وإن حجب آثارها أمر غير ممكن<sup>(2)</sup>. ومن النماذج البارزة لتأثير القرآن الكريم في تشكيل الصورة الشعرية، توظيف قصة يوسف (عليه السلام) توظيفاً فنياً لاسيما أن اسم صلاح الدين (يوسف)، فيصور ابن الساعاتي إذعان ملوك الفرنج للملك

(2) ينظر: الشعر العربي المعاصر (قضاياها وظواهره الفنية و المعنوية): 129.

(1) ينظر: التصوير الشعري عند ابن المعتز: 100، (رسالة دكتوراه).

الناصر وخضوعهم له متأثراً بتصوير القران الكريم (سجود إخوته الأحد عشر والشمس والقمر أبواه)<sup>(1)</sup>، يقول:<sup>(2)</sup>

وأذعن كوكب لما تهادت  
فكنت كيوسف الصديق حقاً  
وان تك آخراً \_ وخلاك ذم \_  
نجوم ملوكها لك مذعنينا  
له هوت الكواكب ساجدينا  
فان محمدا في الاخرينا

2- احتفظوا للأدب العربي بشخصيته العربية ومقوماته الأصيلة، فعمدوا إلى محاكاة الصور الشعرية البارزة التي أبدعها أئمة الشعر العربي الحماسي.

3- قدحت قرائحهم بما أبدعوا من صور شعرية ظريفة استوحوها من واقعهم، وهو الواقع الحربي الذي عاشه المسلمون في تلك الحقبة، ويعد ذلك الواقع أهم مصدر للصورة الشعرية زمن الفتح، عاش الشعراء الحدث وفي ضوئه نسجوا صورهم، بعد أن استمدوا منه عناصر تلك الصور، لذا جاءت صورهم ملائمة لواقعهم، متسمة بالواقعية الصادقة.<sup>(3)</sup>

2

(2) ينظر: مجمع البيان في تفسير القران م/209.

(3) ديوان ابن الساعاتي: 408/2.

(4) ينظر: حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها: 54-58.

## 3. الصناعة البديعية

تصرف شعراء عهد بني أيوب . أسوةً بشعراء العصور السابقة . بما تمليه عليهم حاجاتهم النفسية ونوازعهم الفكرية وما تفرضه عليهم مقتضيات أحوالهم الحياتية والمصيرية، فسلكوا طرقاً شتى للتعبير والتنقيص عما يجيش في صدورهم من آمال وآلام، وحقائق وأحلام، وحب للحياة أو بغض لها، فتفرق الشعراء تبعاً لهوهم ورؤاهم، ولكنهم كشعراء لا بد أن تجمعهم الرغبة في تحسين وجوه شعرهم بما يليق بهم وبعصرهم، فعمد كثير منهم إلى ألوان البديع الذي وضع علماء (يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة) (1)، والقول السابق واضح العبارة فقد نص على ( وجوه تحسين الكلام ) وهي التي يأتي بها الشعراء في أشعارهم فتزيدها حسناً وجمالاً، وقد سبق الجاحظ (ت 255هـ) البلاغيين في القول في ذلك، حتى جعله مقصوراً على العرب (2)، وبحسب هذا المفهوم (تحسين الكلام ) حشد قسم كبير من الشعراء أشعارهم بما استطاعوا من ألوان البديع، كما في شعر القاضي الفاضل وعماد الدين الاصبهاني ( فقد اغرما هما ومن لف لفهما بهذه المحسنات من جناس، وطباق، واقتباس وتورية... ) (3) وعلق الدكتور احمد مطلوب على زيادة الاهتمام بالبديع في القرنين السادس والسابع الهجريين بقوله (مع انه أصبح في هذا العصر يميل إلى الناحية الشكلية أكثر من ميله إلى ناحية المعنى فإن أهل مصر والشام كانوا في بحث البديع على الذوق الأدبي، وكان أسامه بن منقذ وابن أبي الإصبع المصري خير من يمثل هذا الاتجاه) (4).

والأمر المحير أن بعض الباحثين والنقاد يشيدون بفن البديع والبعض الآخر يعزو إليه انصراف الشعراء عن التحليق في أجواء العبقرية الشعرية . بالإضافة إلى

(1) الإيضاح في علوم البلاغة: 334/2.

(2) ينظر: البيان و التبيين: 51/1، 55/4.

(3) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر و الشام: 111.

(4) البلاغة عند السكاكي: 322-323.

اضطرابات العصر- إلى أخذهم باتجاهات العصر التي لفتتهم إلى المحسنات اللفظية والمعنوية التي تلهي وتغوق الذهن عن الإختراع والإبداع<sup>(1)</sup>. وربما يكون الغلو في ذلك إلى حد التكلف والتعقيد، هو ما يرمي إليه النقاد في أحكامهم، وعدهم الدكتور محمد زغلول سلام (أصحاب الصنعة ) وهم ( بدع العصر، ومذهبهم المذهب المختار الذي يتلاءم مع أذواق الناس ويتفق وأهوائهم)<sup>(2)</sup>.

وخير دليل على ذلك ماورد في قول الشاعر سبط ابن التعاويذي معدداً المحسنات البديعية التي يذكرها في معرض مديحه:<sup>(3)</sup>

جاءتك حالية ترائبها من التجنيس والتطبيق والترصيع

ولا نعدم شعراء استخدموا الألوان البديعية استخداماً طبيعياً لا تكلف فيه ومنها قول الشاعر تاج الملوك الأيوبي (ت579هـ):<sup>(4)</sup>

وكذاك طبع الدهر حين عرفته      يمضي على السراء والضراء  
والعيش بين حلاوة ومرارة      والدهر بين سعادة وشقاء

والطباق الوارد في بيتيه يرجع إلى المعنى، حيث يجمع بين متضادين وله أنواع عديدة، وفي البلاغيون بيانها وتبيانها<sup>(5)</sup>.

وقد عزا الدكتور احمد مطلوب إكثار الشعراء من الصور البيانية (البديع)، إلى خروج العرب من جزيرتهم واتصالهم بالعالم ودخول حياة الترف مجتمعهم الجديد حتى أنهم تأنقوا في حياتهم المعاشية ( فكان لابد أن يصطبغ أدبهم

(1) ينظر: ديوان عرقله الكلبى: المقدمة هـ.

(2) الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي: 302 وينظر: تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري: 313.

(3) ديوان سبط بن التعاويذي: 276.

(4) ديوان تاج الملوك الأيوبي: 100.

(5) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: 334/2.

بهذه الصيغة الجديدة وان يذهب شعرهم في البديع<sup>(1)</sup>، فيا ترى هل ينسجم ما ذكره الدكتور احمد مطلوب مع واقع الحياة الأيوبية؟ وهل ينطبق الخروج والاتصال وحياة الترف على شعرائها؟ ونحن نعلم أن خروجهم واتصالهم وحياتهم كانت رهينة لتلك الحروب المريرة في ذلك المجتمع، مجتمع التناقضات والأجناس والوقائع والحروب.

من المحسنات اللفظية ( الجناس ) وأنواعه، فالجناس بين اللفظين هو (تشابهما في اللفظ)<sup>(2)</sup>، والذي يهمننا كدارسين للشعر أن يتوافر شرط الحسن في المحسنات اللفظية وغيرها من سبل البلاغة، وحدد الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) ذلك بقوله (الألفاظ خدم المعاني و المصرفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعتها...)<sup>(3)</sup>، ويؤكد سياسة المعاني و استحقاق الطاعة أيضا بقوله (أن ترسل المعاني على سجيبتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكس إلا ما يليق بها)<sup>(4)</sup>.

وعني الشاعر الأبله البغدادي (ت579هـ)، بالجناس فقد أكثر منه إكثاراً جعل طائفة من شعره تبدو كأنها معارض لصنوف الجناس، يغلب عليها التكلف، فبدت فجة ليس بينها وبين البلاغة والفصاحة أية صلة<sup>(5)</sup> نجده يقول:<sup>(6)</sup>

يا من رأينا أمره	أمضى من القدر المقدر
يا فاعل الفعل الجمي	ل وقائل القول المحرر

فالقدر المقدر، وفاعل الفعل وقائل القول وغيرها في أبياته، ألفاظ لم تكتس ما يليق بها. ويبدو ذلك أيضا جليا في مطلع قصيدة رثائية لابن الدهان الموصلية (ت581هـ) يقول:<sup>(1)</sup>

(1) البلاغة عند السكاكي: 321.

(2) الإيضاح في علوم البلاغة: 382/2.

(3) كتاب أسرار البلاغة: 08

(4) نفسه: 13-14.

(5) ينظر: الشعر العراقي في القرن السادس الهجري: 329.

(6) ديوان الأبله البغدادي: 183، (رسالة ماجستير).

فان نعي رداه للعزاء ردا

يأبى التاسي إنهاء الأسي الجلدا

فمثل هذا المقطع ما بين (التاسي و الأسي و الردى و الردا) قد يضيع على المتلقي فرصة جادة للشعور بالحزن أو المواساة، و العلة أن الشاعر نفسه أثقل معانيه و ألفاظه فاوهن عاطفته وبدد مشاعر حزنه، فعجزت شاعريته عن الوصول إلى القارئ.

وظاهرة ورود الطباق وملازمة الجناس له، تبدو واضحة لدى بعض شعراء هذا العهد، وبصورة خاصة، قصائد الأبله البغدادي وسبط ابن التعاويذي (ت 583 هـ)، فكيف إذن بالشاعر الأخير وهو يمدح القاضي الفاضل، صاحب مدرسة تقوم على البديع وضروبه، وتبدو من متطلبات اللياقة و الذوق أن يحرص الشاعر على الإتيان بكل ما تملك قريحته من صنوف البديع إرضاء لممدوحه، ووصولاً إليه عن طريق ما يفضله في فن الشعر، يقول واصفا قصة حياته مع ليلي ومفتخرا بنفسه ومادحا القاضي الفاضل:<sup>(2)</sup>

تجمع بين الإثم و الأجر  
واضحة اللبات و النحر  
فملت ياليلي مع الدهر  
والناس في نهبي وفي أمر  
تنقل من زيد إلى عمرو  
طوراً ومن عسر إلى يسر

مرت بجمع ليلة النفر  
أدماء غراء هضيم الحشا  
ما هو إلا أن نبا الدهر بي  
دهري مأمور ومستعبد  
ولليالي دول بينهم  
تجول من بؤس إلى نعمة

وعلينا ألا نحذر ونحن بصدد الحديث عن القاضي الفاضل (ت 596 هـ) الذي كان مدرسة وحده في مصر، وكان من اخلص تلاميذه ابن سناء الملك، وكمال الدين ابن البنيه<sup>(3)</sup>، ومن أشد المعجبين به صديقه الشاعر عماد الدين الاصبهاني (ت

(1) ديوان ابن الدهان: 138.

(2) ديوان سبط ابن التعاويذي: 190.

(3) ينظر: أدب الحروب الصليبية: 256.

597هـ). وقد لفت القاضي الفاضل انتباهنا بمحاولاته الجادة لخلق أو اختراع المعاني البعيدة التي قد لا تخطر على بال كل شاعر، مثلاً حين يقول: (1)

سلوا المطامع، يا أهل المطامع، هل  
أشدُّ لبي، ولا أرخي لها لبيبي

فكرته تقول: مطامع الإنسان تضطره إلى إلغاء عقله، فيفكر بعقل من بيده هذه المطامع والى الخضوع لها. والحق يقال: جاء الطباق (أشدُّ وأرخي) في مكانه الذي أعان الفكرة وضوحاً والمعنى عمقاً.

وما ألطف تلاعبه بالألفاظ عندما وصله نعي الملك الناصر صلاح الدين من الشرق ولم يصح ذلك فقال: (2)

نعي زاد فيه الدهر ميمًا  
فأصبح بعد بؤسائه نعيمًا  
وما صدق النذير به، لأنني  
رأيت الشمس تطلع والنجوما

وتبدو المبالغة وحسن التعليل في البيت الثاني، فهو يعلل باعتبار لطيف غير حقيقي (3)، أن النذير لم يصدق بعلمه، وذلك أن الشمس والنجوم مازلتا يطلعن، ووجه المبالغة متداخل بحسن التعليل ووجهته، لو أن النذير صادق في نعيه لاحتجبت الشمس والنجوم حزناً وكمداً عليه.

وتتفاوت الجودة، ويتأرجح القبول في استخدام الشعراء للمحسنات البديعية، وكما قلنا سابقاً إنهم كانوا يعتمدون في بحث البديع على الذوق الأدبي، فتارةً تترك محسناتهم اللفظية والمعنوية صدى رائعاً في النفس، وتارةً يعجز المتلقي عن حمل أُنقال التكلف والمبالغة في الصنعة، فمثلاً عندما تتحرف الصناعة بعماد الدين الاصبهاني (ت597هـ) فتدفعه الرغبة في جمع أكبر عدد من الألوان (4) يقول واصفاً يوم النصر: (5)

(2) ديوان القاضي الفاضل: 347/2.

(3) نفسه: 306/1.

(4) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: 367/2.

(1) ينظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر و الشام: 447.

(2) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 160.

وما ابيض يوم النصر واخضر روضه من الخصب حتى اسود بالنقع واغبرا

فأبي روض هذا في حومة الوغى؟ وما دام الروض مستحيل الوجود في ذلك الجو الحربي المشحون بالعدد والعدة، فلا اخضرار ولاخصب هناك، ويميل عماد الدين في أكثر من موضع في قصائده إلى استئناس الطبيعة من رياض وأزهار وثمار وكمائم ونوار، وهذا الاستئناس وظفه لتشبيهه كتيبة مثل الرياض يقول: (1)

وكتيبة مثل الرياض كأنما	راياتها منشورة أزهار
وكانما خضر البيارق للقنا	ورق وهامات العداة ثمار
وكمائم الأغمد عن زهر الظبي	فتقت فكل صقيلة نوار

ولن نجد تعليقا مناسباً عدا تساؤلات، أتري لجأ عماد الدين إلى الخيال قاصداً تصدير انفعاله؟ وأين دائرة أفكاره التي تمده بأجل وأشمل ما يعينه على أسباب القوة والجمال؟ وهل فسرها تفسيراً أدبياً كما شاء خياله أم ما يملئ عليه طبعه ومزاجه؟؟ وربما بالإمكان الإجابة عن تلك التساؤلات، نقول: إن الألوان المستخدمة في إعداد الجيش، وقيافته، وحسن ترتيبه واستعداده . وهذا قبل أوار المعركة. ثم الثقة النفسية العميقة بالنصر، واطمئنان بال شاعر إلى النتائج المحسومة لصالح جيش المسلمين في داخله، كل ذلك عمل على تفتح قريحته على جمال الطبيعة ورموزها، وانعكاس ذلك على أفكاره وأخيلته لما توحىه بالأمل والتقاؤل.

وابن الساعاتي (ت 604 هـ) له شأن آخر مع اللغة ومحاسنها، وربما شأن نفسي طغى عليه وولد عنده هذا الإحساس بالتفوق على أقرانه في حلبة الشعر، ولا نظير له في ماضي الشعر وحاضره (2)، وله إشارات كثيرة في ذلك تتكرر في ختام مديحه، مثلاً يقول: (3)

من كل آنسة الحديث بديعة في الحسن تهزأ بالغزال النافر

(3) نفسه: 164.

(1) ينظر الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين و الأيوبيين والمماليك): 87.

(2) ديوان ابن الساعاتي: 172/1.

عربية مع أنها لم ترب في      نجد ولا عذبت بنفحة حاجر  
لم يحل صدر الدهر قبل بمثلها      كلا، ولا جيد الزمان الحاضر

ولطالما نوه ابن الساعاتي بأشعاره مبالغاً في الزخرفة اللفظية فتصنع صورته البيانية  
وصناعته البديعية، ولكنه تعشق من البديع خاصةً فن (أبهام التناقض) في معاني  
البيت الواحد، ساعياً إلى دقة المعاني ومسخرأً خياله وتشخيصه يقول في ذلك: (1)  
عجباً لسيف اللحظ يجرح مغمداً      ولسهمه يمضي وليس يفوق

وجاء بمعنىً ذي وجهين متضادين يستحيل حسب الظاهر الجمع بينهما، مثل ذلك  
ادعأوه أن الصحة في المرض كقوله: (2)  
كل يصح إذا تصح حياته      إلا النسيم يصح ساعة يمرض

وهذا يذكرنا بقول متعارف عليه وهو (نسيم عليل) كناية عن عذوبته ورقته معنىً،  
أما لفظاً فهو من العلة والسقم، وما أرق وصف ابن النبيه المصري  
ت (619 هـ) لليالي ونسيمها من غير حاجة للصنعة اللفظية يقول: (3)  
ليال تغل فيها النسيم      فما كان أقصر أعمارها

ولا بن عنين (ت630هـ) في النسيم العليل بيت جميل، حيث يقول: (4)  
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق      وصح نسيم الروض وهو عليل

وعندما نقول إنَّ الشعر تعبير عن العاطفة والوجدان فإننا نلقي بمسؤولية  
ضخمة على عاتق الشاعر، لأن الشاعر (المفتن هو الذي يستطيع أن يدرك ما في

(3) نفسه: 89/1.

(4) نفسه: 155/1.

(5) ديوان ابن النبيه المصري: 351.

(1) ديوان ابن عنين : 69.

الألفاظ من قوة وما في ثناياها من معان، فلا يفسرها بالعقل وحده، ولكن بالقلب والخيال...<sup>(1)</sup>.

ولابد من التأمل والتفكير لإعادة تأهيل الصور والذكريات في خاطره، تفسيراً وإيحاءً، وشحذ مقدرته لإكساء اللفظ عواطفه وخياله ووجدانه وصولاً به إلى المتلقي لإثارة انفعالاته، تحقيقاً لمتعته وتذوقه.

ومن الرمز واللغز والتلاعب بالألفاظ بدا الشاعر ابن سناء الملك (ت 608هـ) خبيراً، فنناً بدراسة الألفاظ واختيارها، يتخذ من المبالغة والإفراط في التورية وحسن التعليل وسائل ومواد لخياله. يقول وقد وري بالإشارة إلى الخليل نبي الله إبراهيم عليه السلام:<sup>(2)</sup>

وفي القلب نار للخليل توقدت وما ذقت منها لاسلاماً ولا برداً

أشار إلى قوله تعالى: ( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم )<sup>(3)</sup>.

ولا يخفى على قارئ ديوانه تلك الحشود للمحسنات البديعية، ففي مديحه للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، تزدهي قصيدته بما شاء لها من المحسنات البديعية التي يبدو بعضها جاء عفويًا والبعض الآخر أقحم إقحاماً، يقول واصفاً قتال الأعداء وهزيمتهم:<sup>(4)</sup>

أقسم ماشدوا إزاراً لهم	إلا لان الليل مر خي الإزار
عجوا وعاجوا عن طريق الردى	فما خلوا من خور أو خوار
فروا ولا عار عليهم به	إن فراراً منك ما فيه عار
ياملكاً يهزم أعداءه	بالرعب هذا وأبيك الفخار

(2) ابن سناء الملك (حياته وشعره): 115/1.

(3) ديوان ابن سناء الملك: 86/2.

(4) الأنبياء: 69.

(5) ديوان ابن سناء الملك: 134/2، 133.

وكثر مجيء هذا المعنى لدى شعراء بني أيوب (هزيمة الأعداء بالرعب)<sup>(1)</sup>،  
 قدوة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في قوله ( نصرت بالرعب مسيرة شهر  
 )<sup>(2)</sup>، وهو ما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من  
 بعده، إذ تكفل سبحانه وتعالى نبيه بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على  
 قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله ﷺ فكان الرعب في قلوبهم سبباً للهزائم في الفتوحات  
 الإسلامية كلها إلا أنه خفي عن العيون.<sup>(3)</sup>

ونرى عدداً من الدارسين يتعاملون على الصناعة البديعية، يقول احدهم: (هذه  
 الصناعة تعوق طبيعته (الشاعر) الفنية عن الانطلاق والتحليق في سماء الحسن  
 والخيال... و إن كانت هذه الصناعة ذاتها لا تخلو من جمال وقدرة ولباقة...)<sup>(4)</sup>، فهي  
 تعوق طبيعة الشاعر الفنية، وهي نفسها لا تخلو من جمال، وأبيات فتیان الشاغوري (ت  
 615هـ) الآتية تضعنا أمام اختبار لمشاعر الحب الصادق، هل أثارت تجربته  
 الغزلية لواعج الحب والشوق فينا؟ ألم تلعب الكلفة والصنعة دوراً في تكبيل الشاعر  
 بعد أن استجاب لطريقة العصر ومتطلبات قرائه؟ يقول فتیان:<sup>(5)</sup>

ياقاتلي عامداً لوقيل: هل أحد	يحب قاتله عمداً ؟ لقلت : أنا
نمت وأسهرتمونا وحشة لكم	أو حشتمونا وما تستوحشون لنا
لو قيل لي ماتمني ؟ قلت: عودليا	لينا بخيف منى حسبي بذاك منى

عمد الشاعر إلى حشد أبياته بأساليب النداء والاستفهام والتمني والتكرار  
 والطباق وغيرها بالإضافة إلى اقتباس معان مشهورة من التراث العربي الشعري،  
 وتكرار حروف ضخمة الجرس مثل ( الشين والقاف )، في معرض الغزل، وقد  
 وضعنا في الفصل السابق ما يجب أن تكون عليه الفاظ الغزل والنسيب.

(1) ينظر: الروضتين في أخبار الدولتين: 151/2.

(2) صحيح البخاري: 168/1.

(3) تنظر: مقدمة ابن خلدون: 277.

(4) ديوان فتیان الشاغوري: 12.

(5) نفسه: 514.

وأما قوله حين وصف قرية الزبداني فلا يخلو من جمال وقدرة ولباقة يقول: (1)  
قد أجمد الخمر كانون بكل قدح وأخمد الجمر في الكانون حين قدح

والبديع عند الشاعر ابن عنين ( ت 630 هـ) مقتصد به على الرغم من  
لجونه إلى المحسنات البديعية وسيلة لتحلية صورته وتجسيد معانيه إلا أنه ( لم يجعل  
منها غرضاً في ذاته كما هو الشأن عند الكثير من معاصريه) (2) مما جعلها تبدو  
جزءاً من موهبته الشعرية تراه يقول: (3)  
أكد ويكدي الدهر في كل مطلب فيا بؤس حظي كم أكد وكم يكدي

وتعدُّ أبياته الآتية خير شاهد على مقدرته في حسن التصرف بالمحسنات, يقول (4):  
كم أوري عن لوعتي وأواري ما أجنث أضالعي من أوري  
وأري صاحبي سلواً وفي القلب زناد من قادح الشوق واري  
دام تخطيه حادثات المنايا نافذاً حكمه على الاقدار

ولكل لفظة دلالتها وقد وقعت موقِعاً حسناً في الأبيات, وبدا حسن تصرفه  
بالمحسنات التي غدث سباقاً يتسارع إليه الشعراء في القرنين السادس والسابع للهجرة.  
ويعد الشاعر بهاء الدين زهير ( ت 656 هـ) من تلاميذ مدرسة الرقة والسهولة التي  
تسعى إلى خلوص اللفظ من التكلف والتعقيد والتعسف في السبك وتدل على رقة  
الحاشية وحسن الطبع وسلامة الروية.  
وقد عد ابن حجة الحموي بهاء الدين زهيراً ( قائد عنان هذا النوع وفارس ميدانه) (5),  
وصرح الشاعر نفسه بذلك وقد آنس هذه السهولة في شعره قائلاً: (6)

(1) ديوان فتیان الشاعري: 94.

(2) ابن عنين (حياته وشعره): 146، (رسالة ماجستير).

(3) ديوان ابن عنين: 74.

(4) نفسه: 74، 77.

(1) خزنة الأدب: 454.

(2) ديوان بهاء الدين زهير: 231.

كلامي غني عن لحون تزينه  
له معبد من نفسه ومخارق<sup>(1)</sup>  
لكل امرئ منه نصيب يخصه  
يلائم ما في طبعه ويوافق

فشعره ليس بحاجة إلى زينة ولحون، فأنه مكتف بزينته، غنى بألحانه، وعرض بأسماء بعض المغنين المشهورين الذين استغنى شعره عنهم، فشعره يروق لكل ذوق، ويلئم ما في الطباع البشرية ويوافقها، ولكل امرئ منه نصيب، ولم يجانب الشاعر الصواب، فهذا هو ما خلق الشعر لأجله. ويكفي ملاحظة بيته آتية لتعرف على روح العصر وذوق شعرائه وميولهم النفسية والشعرية التي استحسننت السهولة في التعبير موازنة بما في الحياة من مشاق، يقول بهاء الدين زهير:<sup>(2)</sup>

وأعجبنى التجنيس بيني وبينه  
فلما تبدى أشنباً رحمت أشيبا

وقوله وقد ورى بكلمة (كافر) عن ستر الليل بظلامه الدنيا، مع ما في صدر بيته من أجر للمجاهد المشتاق الذي ليس ليله آخر ولا لشوقه نهاية يقول:<sup>(3)</sup>

لي فيك أجر مجاهد  
إن صح أن الليل كافر

ومن ذلك التجنيس وتلك التورية نقف أمام رائد عصره في مذهب التورية والانسجام الشاعر شرف الدين الأنصاري (ت 662 هـ)، والتورية: إطلاق لفظ له معنيان، قريب وبعيد، ويراد به البعيد منهما<sup>(4)</sup>، والمراد بالانسجام أن يأتي الكلام خالياً من العقادة كانسجام الماء في انحداره ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة... وغالب شعر الشيخ شرف الدين الأنصاري سائر على هذا التقرير<sup>(5)</sup>.

ولابد لهذه العذوبة والرقّة والسهولة أن تنهج الوزن الخفيف وحلاوة الجرس الموسيقي، والاحتقال بالبحر المجزوء والقافية الراقصة التي قد لا تتسجم مع شخصية شيخ الشيوخ

(3) معبد: احد مغني صدر الإسلام المشهورين / مخارق: من مشاهير المغنيين في أوائل دولة العباسيين.

(4) ديوان بهاء الدين زهير: 34.

(5) نفسه: 156.

(1) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة: 353/2.

(2) ينظر: خزنة الأدب: 190.

الانصاري ولكنها تتمازج مع محاسن الرقة والعذوبة والسهولة مع ذلك الطابع الخاص في طريقته الغرامية في قصة حب مع جاريتته:<sup>(1)</sup>

أوقعني في قيد أسر الهوى      جارية أوصافها جامع  
ثالثة البدرين في حسنهما      مع أنها في نسكها رابعه

وقد جمع الغزل والزهد في مقطوعته السابقة، وجاءت توريته بـ(رابعة العدوية) منسجمة مع غزله بـجاريتته. وعندما تتحدد فكرته بحكمة الموت، تبدو فلسفته في حنقه على الأهواء، فهي آفة العقول وعصيائها تقوى للنفوس، أبياته هنا صادقة التعبير، لأنها ذاتية العمق، يخلو بها الشاعر مع نفسه متأملاً، مراجعاً مافاتاه ضارباً بالأمثال للعظة في الحياة والموت، منبهاً نفسه أن نذر الموت تحوم حوله، فعليه الاهتداء بها، يقول:<sup>(2)</sup>

آفة العقل طاعة الأهواء      فاعصها ما آستطعت شم الهواء  
عجبي لأمريء يرى الأرض مثوا      ه، وأقصى مناه كسب الثراء  
أين كسرى؟ وقيصر من ملوك      الارض، والمنذر بن ماء السماء  
وكفى المرء منذراً بدنو المو      ت، فقد الأتراب والقرناء

واستخدم الشاعر (الأكتفاء) وهو احد الأنواع البديعية الجميلة في قوله (ولاتو) والأصل و(لاتوحشوها) فاقتصر على بعض اللفظة تظرفاً وتلطفاً على رأي الصفي<sup>(3)</sup>. يقول شرف الدين:<sup>(4)</sup>

اليكم هجرتي وقصدي      وفيكم الموت والحياة  
أمنت أن توحشوا فؤادي      فأنسوا مقلتي ولاتو

ولا ندري كيف نعثر على التظرف والتلطف السابقين في قوله:<sup>(5)</sup>

(3) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: 312.

(4) نفسه: 60.

(1) الوافي بالوفيات: 16/19.

(2) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: 106.

(3) نفسه: 423.

ت بالرجل وبالخيل  
إلى الليل إلى الليل

وإجلابي على اللذا  
من الليل إلى الليل

ولعل شغفه بغناء شعره جعله ينحو هذا المنحى في ذكره لفظة الليل أربع مرات، مستعيناً بـ( من ) الجارة التي أفادت ابتداء غايته الزمانية في إجلابه على اللذات، مع العلم أن (من) الجارة تجي لابتداء الغاية في المكان كثيراً وفي الزمان قليلاً<sup>(1)</sup>، ويواصل الليلة بالليلة بـ( إلى ) الجارة التي من معانيها ( الانتهاء ) أي انتهاء الغاية الزمانية أو المكانية. ومعنى كونها للانتهاء إنها تكون منتهى لابتداء الغاية، لان النهاية تشمل أول الحد وآخره<sup>(2)</sup>.

فتلك الألفاظ و الحروف، أين يكمن الحسن فيها؟ وهنا يحق القول القائل (واصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني، لا أن تكون المعاني لها توابع اعني أن لا تكون متكلفة)<sup>(3)</sup>.

(4) ينظر: شرح ابن عقيل: 16/2.

(5) نفسه: 17/2.

(6) مفتاح العلوم: 204.

## 4. الاقتباس والتضمين

يعد القرآن الكريم . بحكم تفوقه البياني وإعجازه . مصدراً ومحوراً لملكات المسلمين النظرية والأدبية. فمن الطبيعي أن يغترف الشعراء منه، نصاً أو روحاً، فصدروا عنه صدور المستنكر العارف بالأساليب الإسلامية والدعائية و القصصية التي يستعين بها الشعراء في تعبيرهم فتد في ثنايا أشعارهم، ومن الملاحظ أن ورودها في أشعار شعراء عهد بني أيوب لا يمكن مقارنته بأساليب الاقتباس في العصور العربية السابقة، التي يتجلى أثر الإسلام في كل الجوانب الفنية لتلك الأشعار، بالإضافة إلى وضوح الالتزام باتخاذ الشعر أداة لإصلاح المجتمع وخدمة العقيدة التي امنوا بها. ومن الطبيعي ألا يكون الشعراء . وفي كل العصور- متساوين من حيث الالتصاق بالعقيدة الإسلامية، وانصهار وجدانهم بها، ومن هنا تختلف تجارب كل شاعر الانفعالية حدةً وقدرةً على التعبير، فيبدو التفاوت في أشعارهم، تلك الأشعار التي هي تعبير جمالي مؤثر عن مواقف وتجارب وتصورات إزاء الكون والحياة والإنسان. وتبدو محاولات الشعراء وعلى مدى العصور المتعاقبة، مستمرة للتوفيق بين الروح الجمالية لشعرهم وبين مدى التأثير بالمتلقين واستجاباتهم، وتلك وظيفة الشعر منذ أقدم الأزمان.

ولا نريد الإطالة في توضيح المراد من الاقتباس ووظيفته وأهميته، إنما نستذكر ما أورده ابن الأثير (637هـ)، حيث عد ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ((تضميناً))<sup>(1)</sup>، وأما الاقتباس كما تحدث عنه ابن أبي الإصبع المصري (ت654هـ) ( عقد النثر شعراً) ومن جملة شروطه ( أن يؤخذ المنشور بجملة لفظه، أو بمعظمه فيزيد فيه أو ينقص أو يحرف بعض كلماته ليدخل به في وزن من أوزان الشعر )<sup>(2)</sup>، ويعني بالمنثور على ما يبدو القرآن الكريم والحديث الشريف، وذكر الدكتور محمد مصطفى هدارة ( الاقتباس والتضمين ) في معرض حديثه عن السرقات كلغظة عامة تشمل (التقليد

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 341/2.

(2) تحرير التعبير: 441.

والتحوير) أيضاً، وعبرَ عن فكرته بأن السرقات ظاهرة طبيعية في الفكر الإنساني، فشيوعها وتعدد أنواعها إنما يتبع ارتقاء الفكر الإنساني وتعبده بتطور الحضارة الإنسانية<sup>(1)</sup>.

إن الاقتباس من النصوص القرآنية الكريمة . لفظاً أو معنى . تكسب الأشعار روعةً وجمالاً ومتانةً وقوةً، بالإضافة إلى شعورهم بالخيلاء لإظهار ثقافتهم الدينية وربطهم الدائم بالرموز الإسلامية الأولى لصور الحياة والموت والبطولة والجهاد والاستشهاد. وعزا الدكتور عاصم عبد دواح السبب الذي دفع الشاعر الأيوبي إلى هذا المنحى ( هول الهجمة الصليبية التي أرادت طمس معالم التراث العربي الإسلامي الخالد فما كان من الشاعر الأيوبي إلا الوقوف بالسيف والقلم... )<sup>(2)</sup>.

وحاز السيف والقلم قصب السبق، كما رأينا في معرض الحديث عن الأبعاد السياسية والدينية. والقلم أداة للتدوين ينطق عن فكر، تجول فيه بنات الأفكار التي تحتشد في الرؤى الفكرية للشاعر، وقد تنطلق الفكرة الشعرية - إذا صح التعبير - موحيةً مشيرةً بالمعنى الرمزي الذي جعل الفكر الإسلامي قبساً له وتداخلاً في مكنونات شعوره الداخلي ويمكن ملاحظة ذلك لدى بعض الشعراء، منهم الشاعر ابن الدهان الموصلّي (ت 581 هـ) الذي قبست أبياته من أنوار المعاني القرآنية، فجاءت تحمل الاستعداد للحرب والغنيمية في طاعة قادة المسلمين والسير إلى الموت بخط مستقيم لا سبيل إلى الفرار وتولية الأدبار أمام الأعداء... أوليس هذه الألفاظ محملةً بالمعاني القرآنية الكريمة التي نصت عليها آيات القتال والحرب والطاعة والصمود والصبر والثبات على المبدأ لا جبن ولا تراجع؟ نلاحظه يقول:<sup>(3)</sup>

بعثتهم نحو جيش الشرك فانبعثوا	يرون أكبر غنم أن أطاعوكا
ساروا إلى الموت قدماً ما كأنهم	رأوا طريق فرار قط مسلوكا

(1) ينظر: مشكلة السرقات في النقد العربي (دراسة تحليلية مقارنة): 13، 40، 42.

(2) الشعر عند بني أيوب: 158، (رسالة دكتوراه).

(3) ديوان ابن الدهان: 222

وما أرق هذا الاقتباس ( لفظاً ومعنى) في قول الشاعر سبط ابن التعاويذي (ت) 583 هـ) في رثائه لحفيده قائلاً: (1)

غالبني فيك شديد القوى      والبطش ما غالب إلا غلب

وقع الاقتباس في قوله **عَجَلِك** (علمه شديد القوى) (2) في وصفه جبريل عليه السلام، ولجلال الموت في النفس، تركت صورة لفظة ( شديد القوى ) جرساً موسيقياً شديداً عمقته كونها كناية عن الموت، حيث أثارت الرهبة والذعر في النفس. واقتبس القاضي الفاضل ( ت 596 هـ ) من قوله **عَجَلِك** ( وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ) (3)، ويبتدر نغمته على الدنيا بـ (تباً) التي تعني الإلتزام بالهلاك والخسران، يقول: (4)

تبا لدنيا ساحره	من ألاماني ساخره
وأنفس قد جهلت	أن النفوس عابره
تلك الوجوه الناضره	إلى الإله ناظره

وللعمد الاصبهاني اقتباس من قوله **عَجَلِك**: (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) (5) في قوله مادحا صلاح الدين: (6)

بسطوة بأسهم في كل ارض      جبال الشرك عادت كالعهون

وقد حدد ابن حجة الحموي (ت837هـ) الاقتباس من القرآن على ثلاثة أقسام، مقبول ومباح ومردود، واستشهد للأخير بقوله: (ونعوذ بالله من قول ابن النبيه في مدح القاضي الفاضل): (1)

(1) ديوان سبط ابن التعاويذي: 58.

(2) النجم: 5.

(3) القيامة: 21، 22.

(4) ديوان القاضي الفاضل: 464/2.

(5) القارعة: 5.

(6) ديوان عماد الدين الاصبهاني: 428.

جل عن سائر الخلائق فضلاً  
فاخترعنا في مدحه التنزيلاً<sup>(2)</sup>

ولن يغيب عن البال أن الأحداث الكبرى المعاصرة للشعراء، وثقافتهم الدينية، كانت أيضاً من الأسباب التي دعت الشعراء الاقتباس من القرآن الكريم، والذي أصبح من الضرورة في الشعر الذي يمجّد الانتصارات الإسلامية في الحروب الصليبية<sup>(3)</sup>. ولم يكن اقتباس الشعراء من ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، يتعدى الأبيات القليلة، وغالبا ما يجيء بيتاً واحداً، كما جاء في بيت الشاعر ابن الساعاتي (ت 604 هـ)، الذي اقتبس معنى الآية الكريمة (وما تدري نفس بأي أرض تموت)<sup>(4)</sup>، يقول راثياً:<sup>(5)</sup>

ومن ذا الذي يدري أوان حمامه  
وفي أيما قطر من الأرض يصرع

وقوله أيضاً وقد لمح بذكر أسماء سورتي (طه ويس) قاصداً الهجاء، بأسلوب طريف، معرضاً بالمهجو وذكره في جملة المنافقين المشار إليهم في سورتي طه ويس يقول:<sup>(6)</sup>

لو كنت في زمن تقادم عهده  
لذكرت في طه وفي ياسين

ونكتفي بذكر قوله **عَجَلٌ** في سورة طه كدليل على فكرة الشاعر (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى)<sup>(7)</sup> وقوله تعالى في سورة يس: (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون).<sup>(8)</sup>

(1) خزنة الأدب وغاية الأرب: 442.

(2) ديوان ابن النبيه: 397.

(3) ينظر: الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 626.

(4) لقمان: 34.

(5) ديوان ابن الساعاتي: 282/1.

(6) نفسه: 9/2.

(7) طه: 124.

(8) يس: 8.

وما زال الشعراء يتفننون في اقتباساتهم، حتى إن الشاعر ابن سناء الملك (ت 608 هـ) شبه نفسه بالنبي موسى عليه السلام وحكايته المشهورة مع الخضر عليه السلام يقول: (1)

ساعدم صبري حين آتي مودعا وأغدو كموسى حين لم يستطع صبيرا (2)

واستغل فتیان الشاغوري (ت 615 هـ) سورة الشعراء بطريقة مبتكرة حيث يقول في معرض ثنائه على الشعراء العرب: (3)

لو لم تكن سورتهم تتقى ما أنزلت سورتهم (4) في القرآن

ولو تغاضينا عن ركوع الشاعر راجح الحلي وسجوده (ت 627 هـ) في بيت حان حيث لا صلاة ولا تكبير، لكننا لا يمكن أن نتجاهل رؤاه الخاصة للخمرة ففيها موته ونشوره وهي حياته اليومية قبل كل شى يقول: (5)

قهوة كالحياة في كل يوم لي موت بكاسها ونشور

ويكاد لا يخلو ديوان من دواوين شعراء العهد الأيوبي من جملة اقتباسات من القرآن الكريم، نكتفي منها بما يقع الذوق على اختيارها ومناسبتها التي تخدم الدراسة، ولكن شاعرا كالبهاء زهير سيوقفنا بحكم شخصيته الأدبية التي اتسمت بالتفاؤل و النظرة الفرحة إلى الحياة مما رققت أشعاره، وعرفت بال خفة و السهولة، مثل قوله: (6)

أضعت العمر خسرا فأبى الله متى تريح ؟  
إذا أصبحت في عسر فلا تحزن له وافرح

(1) ديوان ابن سناء الملك: 584/2.

(2) الكهف: 78.

(3) ديوان فتیان الشاغوري: 533.

(4) الشعراء: 226-224.

(5) ديوان راجح الحلي: 384، (رسالة ماجستير).

(6) ديوان بهاء الدين زهير: 70.

جل، وأقرأ الم نشرح

فبعد العسر يسر عا

الاقتباس واضح من قوله **وَعَجَلْ** (إن مع العسر يسراً)<sup>(1)</sup>، وقوله **وَعَجَلْ** (الم نشرح لك صدرك)<sup>(2)</sup>، والناس عامة يتفاءلون بقراءة سورة الانشراح لإزالة الهم و الغم و دفع العسر، وفضل من قرأها كمن لقي محمداً **ﷺ** مغتماً ففرج عنه<sup>(3)</sup>.

وقد عرف الشاعر شرف الدين الأنصاري (ت 662هـ) بتورياته الفائقة وقوافيه المتمكنة وتراكيبه العذبة ولفظه الفصيح ومعناه البليغ، وعدَّ ابن حجة الحموي بعض اقتباساته من (الحسن)<sup>(4)</sup>، ومنها قوله:<sup>(5)</sup>

بكى على حالي مَنْ لا بكى      إنْ دمعَتْ عيني فمن أجلها  
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَزَاكَ<sup>(6)</sup>      أوقعتني إنسانها في الهوى

ولكنه بالغ حتى استخدم في قصيدة فواصل ست آيات من ست عشرة آية تؤلف سورة الشمس وختمها ببيتين اقتبس فيهما آيتين من سورة النازعات يقول فيها:<sup>(7)</sup>

قسماً بشمسِ جبينه (ووضاها)<sup>(8)</sup>      ونهار مَبْسَمَه (إذا جَلَّأها)

ولم يكتف بذلك، بل اقتبس آيات كاملة وضمنها بيته الشعري قائلاً:<sup>(9)</sup>

وَحَقَّ اللهُ، وَأَسِيلٌ      أَدْمَعًا ذَاتَ سَجُومٍ  
(ومن الليل فَسَبَّحَهُ،      وإِدْبَارَ النُّجُومِ)<sup>(10)</sup>

(2) الانشراح: 6,5.

(3) الانشراح: 1.

(4) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن م 507/9.

(5) خزانة الأنب و غاية الأرب: 443.

(6) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: 381, 400.

(7) الانفطار: 6.

(8) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: 515.

(9) الشمس: 3,1.

(10) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: 447.

(11) الطور: 49.

ومن مذهب الشعري الذي عرف به ينطلق معوذا ممدوحه بمجموعة من الآيات  
الكريمة وقد تفرد في مذهبه، نراه يقول: (1)

أعيز عرك بالعشر التي شرفت وهي: الطواسين، حقا و الحواميم

وهي الآيات التي تبدأ ب( طس وحم ) في الكتاب الكريم، و التي تشتهر بين المسلمين  
عامة بدفعها الأذى و الشر عن المعوذ بها.

والاقتباس من الأحاديث النبوية الشريفة ليس كثيرا، مقارنة بما اقتبس الشعراء  
من القرآن الكريم، ومن قصيدة لشرف الدين الأنصاري قوله في الزهد: (2)

واسل عن دنيا يقصيتها صباح ومساء وابغ أخرى ، دائم فيها نعيم وشقاء  
وإذا صح لك القوت، ((على الدنيا العفاء))

أشار إلى الحديث الشريف (إذا أصبحت معافى في جسدك، آمنا في سربك، عندك  
قوت يومك، فعلى الدنيا العفاء) (3)

التضمين، يمكن عده نوعاً من الاقتباس، وهو فن قديم، سماه ابن المعتز (ت  
296هـ) (حسن التضمين) (4) وحدده ابن طباطبا العلوي (ت 322هـ) يعكس المعاني  
على اختلاف وجوهها (5)، وابن حجة الحموي ( الإيداع) (6)، وهو أن يستذوق الشاعر  
بيتاً من الشعر لشاعر آخر أو نصف بيت أو جملة منه، ويضمنه قصيدته أو أبياته  
بعد أن يمهد له بروابط متلائمة، تجعله منسجماً مع ما قبله وما بعده (7).

وسعى الدكتور ريكان إبراهيم إلى تسمية هذه الظاهرة بـ( ظاهرة الائتناس  
الشعري )، وهي تسمية مستلطفة توحى بوجود رباط روحي بين الهام الشعراء، كأن

(1) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: 437.

(2) نفسه: 538 ، 539.

(3) المعجم الأوسط: 361/8.

(4) البديع: 114.

(5) عيار الشعر: 78.

(6) الخزنة: 377.

(7) ينظر: الأدب في بلاد الشام (عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 631.

الشاعر اللاحق يستأنس بمعاني الشاعر السابق وأفكاره، ولهذا ينظر علم النفس إلى حالة الانتناس في المعنى أو التطابق اللفظي أنها حالة صحيحة ومهمة لكونها تجعل الشاعر اللاحق مجددا لشباب فكرة أو معنى أو لفظ طرقة شاعر سابق<sup>(1)</sup>

ووضع علماء البلاغة شروطا للتضمين، تضمن للشاعر الحسن والقبول، والذي يهمننا- حقا- هو الاعتدال في فن التضمين فلا إفراط ولا تقريط، وقولنا (فن التضمين) لان الشاعر عليه أن يحسن الاختيار بما يناسب ألفاظه ومعانيه وحتى أوزانه وقوافيه، ولكي يتحقق التوافق بين ما يملك الشاعر وما يستخدم للتضمين من شعر الشعراء السابقين، وبرأيي المتواضع أجد الشاعر أمام مسؤولية أدبية وهي الحفاظ على جمالية ما ضمن من شعر الشعراء، وخلق حسن التلاؤم في الصياغة الجديدة. وأكثر شعراء هذا العهد تضمين ألفاظ أبي الطيب المتبني ومعانيه، وبشكل متفاوت لبقية شعراء العربية، وضم التضمين بالإضافة إلى الشعر قليلا من المنثور العربي والأمثال السائرة وقصص القرآن الكريم<sup>0</sup>

لقد أعجب الشاعر ابن الدهان الموصلي (ت 581هـ) بأبي الطيب المتبني، وعارضه بقصيدته المشهورة في هجاء كافور:<sup>(2)</sup>

عيد باية حال عدت يا عيد                      بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديد

ولسنا في معرض المقارنة، أو المقايسة هنا، ولكنه الذوق الشعري الذي يحتم علينا ذكر مطلع ابن الدهان:<sup>(3)</sup>

امأتم هذه الأيام ، أم عيد                      وذو الأغاني نوح أم أغاريد

حاول ابن الدهان (إعادة الصياغة) كما يقولون، فجاء بالمأتم والنوح والأغاريد والأغاني، وأوضح النقاد العرب متطلبات على الشاعر مراعاتها كما في قول ابن طباطبا (يحتاج من سلك هذه السبيل إلى لطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول

(1) نقد الشعر في المنظور النفسي: 52 ، 53.

(2) كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 548/2.

(3) ديوان ابن الدهان : 133.

المعاني واستعارتها وتلييسها...<sup>(1)</sup>، لذا عندما نعود إلى مطلع المتنبي نجده قنن الحكمة العريقة من (العيد) وهي عودته باستمرار الزمن وتقلب أحوال الدنيا في سعودها والمحن، شاء الإنسان أم أبي، والشيء الأهم من عودته، انتظار الإنسان لما يحمله من جديد...!

وقول ابن الدهان أيضا من القصيدة نفسها:<sup>(2)</sup>

واستمرُّ أمورا كنت أعهدُها      وانتم جيرة والعيش قنديد<sup>(3)</sup>

نلاحظ البعد الفكري الذي عالجه المتنبي، ومدى ابتعاد الشاعر ابن الدهان بفكرته الجديدة (قد يكون هذا هو المطلوب)، يقول أبو الطيب في ترغيبه بالموت عند الذل، فهو أحلى من عصارة السكر على النفس:<sup>(4)</sup>

وعندها لذ طعم الموت شاربه      إن المنية عند الذل قنديد

وعلينا الاعتراف أن ابن الدهان قد حقق ما أشار إليه ابن تغري بردي في قوله (في التضمين الذي عاناه فضلاء المتأخرين آية، في صحة المعاني والذوق اللطيف غاية، لأنه يأخذ المعنى ويحل تركيبه، وينقله بألفاظه الأولى إلى معنى ثان حتى كأن الناظم أراد به المعنى الثاني)<sup>(5)</sup>

إن توفر الظروف المشابهة أو المناسبة المذكورة في حياة الشعراء تهب التضمين بوادئ النجاح في الوصول للتأثر والتأثير في المتلقي، وإن كنا على ثقة من تجارب المتلقين مع الموروث الشعري العربي، وقبلهم تضمين الشعراء استجابة واعية لهذا الموروث العريق<sup>0</sup>

(1) عيار الشعر: 77.

(2) ديوان ابن الدهان: 133.

(3) استمر: أعالج مرارة الأمور،

قنديد: شراب يتخذه أهل الحيرة من القند وهو عصارة السكر إذا جمد.

(4) كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 551/2.

(5) المنهل الصافي: 314/3.

وهذا أسامة بن منقذ (ت 584هـ)، يواجه ظروف أبي الطيب نفسها مما اضطره إلى ترك دمشق متجهاً إلى مصر بعد أن سعى الساعون بينه وبين معين الدين أنر، يقول أسامة: (1)

وَلَوْأَ فَلَمَّا رَجَوْنَا عَدْلَهُمْ ظَلَمُوا      فَلَيتَهُمْ حَكَمُوا فِينَا بِمَا عَلَمُوا

والتي اقتفى فيها اثر أبي الطيب في قصيدته التي مطلعها: (2)

وأحر قلباه ممن قلبه شميم      ومن بجسمي وحالي عنده سقم

تجاوز الشاعران كلاهما الحد في العتاب والتعريض بالخصوم ورغبتهما في الاستعطاف ولكن عنفوان النفس انتهت بهما إلى الأنفة والإباء 0 جاء تأثر أسامة بن منقذ عاما وتفصيلا فشمّل وزن القصيدة وقافيتها وحركة الروي مع استعارة طائفة من ألفاظها وصورها يقول أسامة: (3)

وأنت اعدل من يشكى إليه، ولي      شكية، أنت فيها الخصم والحكم

وهو قريب جدا من قول أبي الطيب: (4)

يا اعدل الناس إلا في معاملتي      فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

ولهذا عدت قصيدة أسامة بن منقذ من التضاميين المشهورة في هذا العصر (5) ونكتفي من قصيدة أسامة بهذا القدر الذي يوضح هذه الظاهرة التي اتسعت مضامينها وكثرت نماذجها حتى (كانت لهم براعة فائقة في تغيير المراد من الشعر

(1) ديوان أسامة بن منقذ: 40.

(2) كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: 341/2

(3) ديوان أسامة بن منقذ: 40، 146.

(4) كتاب العرف الطيب في شرح أبي الطيب: 342/2.

(5) ينظر: الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): 633.

المأخوذ، مع حسن السبك ودقة الصناعة<sup>(1)</sup>، وصارحنا مجير الدين بن تميم، وهو من كبار الشعراء الممثلين لهذا العصر بشدة نزوعه إلى التضمين فقال:<sup>(2)</sup>

أطالع كل ديوان أراه                      ولم ازجر عن التضمين طيري  
اضمن كل بيت فيه معنى                      فشعري نصفه من شعر غيري!!!

فكانت من مظاهر بناء القصيدة في عهد شعراء بني أيوب، وما هذا الاقتباس والتضمين إلا جزء من روح ذلك التراث الخالد للأمة الإسلامية المتمثل بالقرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي القديم<sup>0</sup>

وتبقى كلمة الناقد العربي عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) ماثلة أمام الباحثين والنقاد -وقبلهم الشعراء- في تحديد أداء الشاعر المتفرد ( يتكلم ليفهم، ويقول ليبين )<sup>(3)</sup>

(1) المفصل في تاريخ الأدب العربي: 203/1.

(2) ديوان مجير الدين بن تميم: 107.

(3) كتاب أسرار البلاغة: 9.

## الخاتمة

سبق القول في المبحث الأول من الفصل الأول، إن على الدراسة الموضوعية الاهتمام قبل كل شيء بمجموعة القيم الاجتماعية والأنماط الثابتة المرتبطة التي تتحكم في نشاط المجتمع وتكون له شخصيته الحضارية بكل ما يتصل بهذه الشخصية من مفهومات الحياة والموت والعلاقات ومصير الإنسان.... فليس مهمتنا التقويم وإصدار الأحكام الأدبية، وإنما هي جملة أمور سواء كانت حقائق أم مفاهيم فكرية أم نتائج - ولا يمكن الجزم بصحتها جميعها - فكما يقال: الباحث آخر من يحق له الحكم... لكنه أول من تشير إليه أصابع النقد والنقاش<sup>0</sup>

ومن المعلوم - بادئ ذي بدء - أن الحضارة الإسلامية دعت إلى الإقبال على عالم الحس والاستمتاع بمسرات الحياة دون إفراط أو تفريط<sup>0</sup> ومن ذلك اصطبح مفهوم المجتمع من الحضارة الإسلامية بالتقاول وحب الحياة، ولم يعد العالم الحسي كما كان في بعض الحضارات المتشائمة مدعاة للاثم ومجلبة للخطيئة، بل أصبح في ظل الإسلام هبة من الله للإنسان ومجالاً لطموحه وتقاوله<sup>0</sup>

ومن هذا تأكد للجميع، أن الشخصية الحضارية للمجتمع الإسلامي لم تكن متشائمة، أو متراجعة عن الحياة أو منكرة لفردية الإنسان بل كانت متفائلة ومؤكدة لذاتية الفرد<sup>0</sup>

وفي عهد بني أيوب (648-567هـ)، جسد الفرد جميع الأدوار الممكنة التي تؤكد ذاتيته كبطل فارس أو شاعر مغامر، أو مقاتل صنيدي... ولكن هذا الفرد - بنظرنا - لم يكن بمفرده في مسرح الحياة، فالبطل معه أبطال للمساندة، والحروب الصليبية (صراعات دينية)، مع ضخامة في العدد والعدة، والساحة بحاجة إلى أكثر من بطل، وربما يكمل البطل دوره المخطط له، فيعقبه من يكمل ذلك الدور وبدقة و إخلاص مشهودين، وهكذا تُقاس الفردية من خلال الجماعة، وينظر للسيوف كآلات حرب وجهاد لكنها لن توقف تيار التقدم الحضاري في حين تستمر عجلة الفن في دورانها على الرغم من خوض الأيوبيين أضخم معركة للجهاد، فإذا بالمدارس تفتح والمكتبات تنشأ والحصون والقلاع تبنى وعلى قدم وساق في الصناعات والحرف....

كلها مجتمعة لإقامة أعظم بناء حضاري شهدته العصور الوسطى وهو بناء الحضارة الإسلامية<sup>0</sup>

ويبقى الشعر العربي حيا يواكب الأحداث فهو يرمز إلى قيم إنسانية خالدة وكلما غالى الدهر بحدثانه اشتد العربي ولا سيما الشعراء - لرهافة إحساسهم - تعلقا بلغتهم وتراثهم وثقافتهم<sup>0</sup>

وبالنظر لعراقه موضوع الحياة والموت، فقد تناوله الأدباء والشعراء في مختلف العصور كما تناولوا بقية الموضوعات التي شغلتهم وعبروا عن أفكارهم ورؤاهم ما شاء لهم ذلك متأثرين بالعصر وظروفه وحوادثه وملابساته ولعل ابرز ما يترأى للباحثين في عهد بني أيوب من القضايا الكبرى (الحروب الصليبية) التي استحوذت على تفكير الشعراء واستغرقت جزءاً من أشعارهم حتى كأنهم جردوا من أشعارهم أسلحة خاضوا بها معارك التحرير إلى جانب الأبطال المجاهدين<sup>0</sup>

كشف الفصل الأول عن المجتمع الأيوبي الذي تنوع فيه العنصر البشري بما يحمله من تقاليد وأفكار وعادات ونشاطات وقد تمايز الأتراك والأكراد في أدائهم العسكري إلا أن للقبائل العربية مواقف مشرفة في المشاركة في الجهاد والاستشهاد<sup>0</sup> بعد تسارع الأيوبيين لتنفيذ خططهم الإصلاحية اثبت الفرد الاجتماعي الأيوبي كفاءته في كونه استجابة ضرورية تاريخية في ميدان القتال في حين سخر الشاعر شعره ليكون مرآة صقيلة عاكسة لما يحويه مجتمعه من إيجابيات وسلبيات الشاعر ومجتمعه (وحدة حية متفاعلة) وقد شهدا ولادة الوحدة الإسلامية من جديد وتلاشت الإقليمية<sup>0</sup>

و أصبحت الحروب الصليبية أيضا من أهم البواعث الأولى على قول الشعر وتجويده ومواكبته لسير الأحداث جملة وتفصيلا وقد أحب المجتمع الأيوبي الشعر بكافة طبقاته وتعلقوا به ونظموه ولم يعد حكراً على الطبقة المثقفة وللحروب الصليبية يد طولى في هذا التعلق<sup>0</sup>

وتجراً الشاعر الأيوبي على مجتمعه وحدد مواطن الفساد ورصد الظواهر الشاذة وحاربها ولم يميز ما بين سلطان أو رجل من العامة<sup>0</sup>

وكشف الفصل الأول عن الارتباط الوثيق بين الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية وأخيراً تأثير كل ذلك في الحياة الأدبية<sup>0</sup>

وثبت أن روح الشعر متأثرة بالأحداث مسجلة لوقائعها وتتلون معانيه بألوانها وكان للشعراء أمام الأحداث قدرة مميزة هي (الحدس)<sup>0</sup>

أدرك الشعراء - كما أدرك الجميع - أن حياتهم تواجه أشرس بل أعنى حرب دينية عرفها التاريخ، لذا لاح في أفق المسلمين الصراع الديني من خلال وصف أحداث العصر وملاحمه الخالدة فظهرت المعاني الدينية المرتبطة بالدين الإسلامي<sup>0</sup> وظهرت الحاجة - تبعاً لظروف المجتمع الأيوبي - إلى الوعظ والإرشاد الديني والزهدي، فالحروب صراع ديني، والناس ما بين عوامل ذاتية ونفسية، وعوامل سياسية واجتماعية وهم تحت التأثير المباشر<sup>0</sup>

ومن هنا سطع نجم (المدائح النبوية) لأسباب سياسية بحتة، وسجلت تطورا هوروجها من المعاني الضيقة إلى المعاني الشاملة التي تضم تاريخاً منظوماً لسيرة الرسول الكريم ﷺ<sup>0</sup>

وازدهر التصوف ازدهارا ملفتا للنظر وأسباب هذا الازدهار تعود إلى الأخطار الخارجية الكبرى والكوارث الطبيعية وتشجيع السلاطين<sup>0</sup> ومن ناحية أخرى ثبت أن الشعر وثيقة اجتماعية لتطوير الحياة الاقتصادية في مختلف صورها ومظاهرها<sup>0</sup> وكشف الفصل أيضا أن المجتمع الأيوبي وبكافة طبقاته يقف موقفاً واحداً ثابتاً لا يتزعزع وهو (قدسية بيت المقدس) فإن تحريره وسلامته مما لا يعلى عليه<sup>0</sup>

ومن المفاهيم التي برزت هي تأثر الحياة الأدبية بما تخلفه الحياة السياسية والدينية والاجتماعية... وكان أدب هذه الحقبة نتاجاً عسيراً لما تمخض عنه الوضع السياسي، ورغم ذلك تجلت أصالته واستطاع أن يعطينا مرآة صادقة عما في جوهره وعرضه، وما فيه من تيارات أدبية ومذاهب بيانية لها مفاهيم خاصة، ونظرات عميقة، تتناول مختلف مظاهر الحياة الفكرية رزينها وماجنها إنها الحياة الإنسانية، ولا أدب بغير الإنسان والحياة<sup>0</sup>

ومن النتائج المهمة التي وصل إليها الفصل الثاني حرية الشعراء فيما يفكرون وينظمون فكان شعر المديح (الحياة الدنيا) إذا جاز التشبيه، حيث النفوس مولعة

بحب النشاء والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة على رأي ابن خلدون... لذلك جسد شعر المديح صور الحياة الحقيقية التي أحاطت بهالة مقدسة (الأبطال) الذين خاضوا غمار الحروب وخلصهم بصور حبيبة إلى النفوس قريبة من القلوب 0

جاءت مواقف الشعراء من الحياة مظلمة برؤاهم الذاتية، فالدنيا تارة شوهاء عاطلة غير جديرة بالاهتمام والعمر فيها خلق مرقع وتارة أخرى الحياة هي الجهاد (همهم وشغلهم الشاغل)، ودماء الأعداء خمرتهم النشوى وبالمقابل فالممدوح كريم مع المنايا يسوق إليها الأعداء وبحر من الندى مع السائلين والعافين 0 وتفنن الشعراء في رسم صور مظلمة لموت الأعداء، وإن اختلفوا في غزارة المنظوم 0 ووضحت رؤية ظاهرة المحاكاة والاحتذاء لدى شعراء العصر، وأسبابها كثيرة منها:

- 1- السبب النفسي، نظرة الشعراء للأقدمين نظرة (المثل الأعلى) 0
- 2- السبب اللغوي، اتساع المسافة بين اللغة اليومية ولغة الأدب 0
- 3- السبب الحضاري، التهديد الذي واجهته الحضارة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية 0
- 4- السبب النقدي، ترديد النقاد من أن الأقدمين قد استغرقوا المعاني، ولم يُبقوا للمتأخرين شيئاً 0

وتنوعت صور وأساليب الرثاء بين الشعراء، إلا أنها تقليدية، فمنهم من رثى صادقاً ومنهم من رثى تكسباً ولرضى الأحياء فجمع بين التعزية والتهنئة 0 ولم يستأنس الشعراء بالهجاء كغرض عميق التأثير في حياتهم، كما في العصر الأموي مثلاً، ولكنهم برعوا في الهجاء الساخر اللاذع الذي يبني على هدف اجتماعي 0 وجاءت دراسة البعد الوجداني لتبحث عن الحب الذي هو الأصل الذي تدور عليه العواطف والمشاعر الإنسانية، ويكاد يخلو هذا العهد من أي شكل من أشكال الحب العذري وأسباب ذلك نفسية خاصة بالشعراء وحياتهم وأيضاً الحروب الصليبية والظروف الاجتماعية وتقلقل المشاعر وفقدان الأمن والاستقرار 0 وأتضح أن حب الطبيعة ودمشق ومصر والخمرة.... يفوق حب المرأة، وفاق شعر الوصف والشكوى

والقصص شعر الغزل، و أوضحت الدراسة طغيان صفة الحنين والاشتياق على الألفاظ الغزلية وبذا غدت قصائدهم (قصائد حنين واشتياق وشكوى) وهي تصب في مصب واحد 0

وأما شعراء الصوفية فقد نهلوا معانيهم وصاغوا ألفاظهم متكئين على الأشعار الغزلية العذرية وقد تعدوا ذلك إلى أي شعر وجداني يناسب الحال والمقام 0 ومثلت قصائد الخمرة الواقع النفسي للشاعر، مع ضعف الوازع الديني لديه وشاركت الطبيعة والسقاة والغناء على انتشارها، وشاعرها لم يبتعد كثيرا عن سبقه من شعراء الخمرة 0

أما فيما يتعلق بالفخر فقد انتهينا إلى أن الشعراء ضمنوا قصائدهم معنى للحياة هو الافتخار بشاعريتهم ووصف تلك الشاعرية واختفى الافتخار بالقيم التي كان الشاعر العربي يفخر بها سابقاً كالمحتد العربي والقبيلة وما إلى ذلك 0

ومما عالجه الفصل الثالث الصورة الشعرية لشعر الحياة والموت ومن ضمنها الصورة الشعرية للأشعار القدسية باعتبارها احتلت مكانة مرموقة حينئذ بسبب الحروب وظهور (القدسيات) بشكل فني متفرد، واستمد الشعراء الكثيراً من معانيهم وألفاظهم وأفكارهم من القرآن الكريم في تشكيل لغتهم الشعرية 0 كما تناول هذا الفصل طغيان الصنعة البديعية وليس من باب العبث اللفظي قول ابن حجة: (إن لكل زمان بديعاً تمتع بلذة الجديد)، وتنازع الشعراء مذاهب فنية متباينة في الصناعة الشعرية، وبلغت مرحلة نضجها الفني 0 وقد ميزوا في بعض المذاهب البديعية مدارس برز فيها شعراء كان لهم السبق الفني فيها كالشاعر شرف الدين الأنصاري 0

وتأثرت لغة الشعر بطروف الاختلاط بغير العرب، واستغرق التكلف اللغوي والأسلوبي بعض الشعراء بقصد التلاعب بالألفاظ ليدل على اقتدار لغوي متمكن في نفسه 0 وقد تفرد شعراء بني أيوب بأساليبهم ما بين الأسلوب التقليدي و الأسلوب الشعبي الميسر والأسلوب الزخرفي 0

واثبت الاقتباس والتضمين، بكونهما جزءاً من روح ذلك التراث الخالد للأمة

الإسلامية المتمثل بالقرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي القديم 0

تلك هي أهم المفاهيم أو الحقائق التي توصلت إليها الرسالة، فإن كانت جديرة بالاهتمام، فإنها قد حققت إضافة متواضعة لما سبق من دراساتٍ، ويكفي الاستشهاد بقوله ﷺ ﴿لَا نَكْفُفُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾<sup>(1)</sup>، صدق الله العظيم 0  
 وختاماً، الحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين 0

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ      فلا يُعْرُ بطيب العيش إنسانُ  
 هي الأمور كما شاهدتها دول      من سره زمن ساءته أزمانُ<sup>(2)</sup>

(1) المؤمنون: 62.

(2) نفع الطيب: 487/4 (من قصيدة أبي البقاء صالح الرندي) 0

# المصادر و المراجع

---

## المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الكتاب المقدس (العهد الجديد): دار الكتاب المقدس في الشرق الاوسط  
النشرة السادسة 0 بيروت- لبنان 1997.
- ابن خلدون (فلسفته الاجتماعية): جوستون بوتول 0 ترجمة غنيم عبدون 0  
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (د0ت) 0
- ابن الرومي حياته وشعره: عباس محمود العقاد 0 ط 7 0 دار الكتاب العربي-  
بيروت 1968 0
- ابن سناء الملك (حياته وشعره): تح: محمد إبراهيم نصر 0 دار الكاتب  
العربي للطباعة والنشر - القاهرة 1968 0
- ابن نُبّاتة المصري: د. عمر موسى باشا 0 ط 2 0 مط دار المعارف - القاهرة  
1972 0
- أبو العتاهية (أشعاره وأخباره): تح: د. شكري فيصل 0 مط جامعة دمشق -  
دمشق 1965 0
- الإبداع الشعري في النقد العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري: ثائر حسن  
جاسم 0 دار الرائد العربي - بيروت 0 (د0ت) 0
- الإبداع العام والخاص: الكسندر وروشكا. ترجمة: غسان عبد الحي أبو فخر -  
الكويت 1989.
- الإبداع في الفن: قاسم حسين صالح 0 ط 2 0 دار الشؤون الثقافية العامة.  
بغداد - 1986 0
- اتعاض الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء: تقي الدين احمد بن علي  
المقريزي 0 تح: محمد علي محمد احمد 0 لجنة إحياء التراث - القاهرة  
1973 0
- إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن احمد الطوسي  
الشافعي الغزالي 0 ط 1 0 دار الصادر - بيروت 2000 0

- الأدب في بلاد الشام(عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): د. عمر موسى باشا ط02 المكتبة العباسية- دمشق 1972 0
- الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي: د. محمد زغلول سلام ط0 1 0 مؤسسة الثقافة الجامعية 1959 0
- أدب الحروب الصليبية: د. عبد اللطيف حمزة ط0 2 0 دار الفكر العربي- القاهرة 1984 0
- الأسس الجمالية في النقد العربي: د. عز الدين اسماعيل ط0 1 0 دار الفكر العربي- القاهرة 1955 0
- الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة: د. مصطفى سويف ط0 3 0 دار المعارف- القاهرة 1969 0
- الإسلام والصحة النفسية: د. عبد الرحمن محمد العيسوي ط0 1 0 دار الراتب الجامعية- بيروت 2001 0
- الإسلام والشعر: د. سامي مكي العاني ط0 مطابع الرسالة- الكويت (د.ت) 0
- الإسلام والحضارة العربية: محمد كرد علي ط0 مط دار الكتب المصرية- القاهرة 1934 0
- الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية): احمد الشايب ط0 8 0 مكتبة النهضة المصرية- القاهرة 1988 0
- الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني ( أبو الفضل احمد بن علي ت852هـ) ط0 المط الشرقية- مصر (د.ت) 0
- أصداء حطين وصلاح الدين في الشعر العربي: د. عمر الدقاق ط0 1 0 مط اتحاد الكتاب العرب- دمشق 1992.
- الاعتبار: أسامة بن منقذ ط0 تح: فيليب حتّي ط0 مط جامعة برنستون- 1930 0
- الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ابن شداد عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم المتوفى سنة 684هـ ط0 تح: سامي الدهان- دمشق 1956 0

- إغاثة الأمة في كشف الغمة: تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر المقرئزي، ت 845هـ 0 تح: د. محمد مصطفى زيادة، د. جمال الدين الشيتال 0 مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1940.
- الاغتراب: د. محمد رجب 0 منشأة المعارف - الإسكندرية (د.ت) 0
- الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي: د. حسين عبد الجليل يوسف 0 مكتبة النهضة المصرية - القاهرة 1988 0
- الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (739-666هـ) 0 تح: وتعليق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية (الأزهر) 0 (مطبوع بالوفست) مكتبة المثلى - بغداد (د.ت) 0
- إيوان أو عن الإلياذة (من محاورات أفلاطون): ترجمة د. محمد صقر خفاجة، د. سهير القلماوي 0 مكتبة النهضة المصرية - القاهرة 1956 0
- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام: د. سعيد عبد الفتاح عاشور 0 دار النهضة العربية - القاهرة (د.ت) 0
- البحث الادبي ومنهجه: نوري شاكر الآلوسي 0 دار الحرية للطباعة - بغداد 1984 0
- بدائع البدائ: علي بن ظافر الازدي، (ت 623هـ): تح: محمد أبو الفضل ابراهيم 0 مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة 1970 0
- البديع: عبد الله بن المعتز الخليفة العباسي المتوفى سنة 296هـ. شرحه وعلق عليه: محمد عبد المنعم خفاجي. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر 1945.
- البصائر والذخائر: لابي حيان التوحيدي 0 تح: د. ابراهيم الكيلاني 0 مكتبة املسن ومط الانشاء - دمشق (د.ت) 0
- البلاغة عند السكاكي: د. احمد مطلوب 0 ط 1 0 مط دار التضامن 0 منشورات مكتبة النهضة - بغداد 1964 0
- بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر: مرشد الزبيدي 0 طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد 1994 0

- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (ت255هـ) 0 تح: عبد السلام محمد هارون ط0 5 مكتبة الخانجي - القاهرة 01985
- بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية 492-648هـ: تح: وجمع عبد الجليل حسن عبد المهدي 0 دار البشير - عمان 0 1989
- تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر: العلامة عبد الرحمن بن خلدون، (ت808هـ) 0 مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت 0 1979
- تاريخ ابن الوردي: الشيخ زيد الدين عمر بن الوردي 0 منشورات المطبعة الحيدرية - النجف 0 1969
- تاريخ بغداد: (أحمد بن علي البغدادي، ت463هـ) 0 دار الكتب العلمية - بيروت (د.ت) 0
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل: أبو الحسن بن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، ابن الأثير الملقب عز الدين: تح: عبد القادر طليمات 0 مكتبة المثنى - بغداد 0 1963
- تاريخ الأدب العربي في مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني 400-923هـ: عمر فروخ 0 دار العلم للملايين - بيروت 0 1972
- تاريخ الفلسفة الغربية: برتراند رسل 0 ترجمة: د.زكي نجيب محمود ط0 2 مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 0 1967
- تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن السابع للهجرة: د.محمد زغلول سلام 0 دار المعارف - القاهرة (د.ت) 0
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان أعجاز القرآن ابن أبي الإصبع المصري، ت654هـ: تح: د.حفني محمد شرف 0 إصدار محمد توفيق عويضة - القاهرة 0 1383هـ
- تراجم رجال القرنين السادس والسابع (ذيل الروضتين): ابن أبي شامة المقدسي - القاهرة 0 1947

- ترجمان الأشواق: الشيخ الإمام محيي الدين بن العربي، ت 638هـ-0 دار صادر - بيروت 1966 0
- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: د.زكي بن عبد السلام بن مبارك ت 1371هـ 0 مط الرسالة - 1357هـ 0
- تفسير الإمامين الجليلين: العلامة جلال الدين المحلي، والحبر جلال الدين السيوطي 0 دار إحياء التراث العربي 0 مكتبة المثني - بيروت (د.ت) 0
- التفسير المُعين للواعظين والمتعظين: محمد هويدي 0 ط 4 0 منشورات ذوي القربى - 1423هـ 0
- التفسير النفسي للأدب: د.عز الدين اسماعيل 0 ط 4 0 دار العودة - بيروت 1981 0
- التكيف النفسي: د.مصطفى فهمي 0 دار الطباعة الحديثة - مصر (د.ت) 0
- تلبيس إبليس: الحافظ جمال الدين ابن الجوزي البغدادي، ت 597هـ-0 مكتبة المنتبي - القاهرة 1988 0
- تمهيد في النقد الحديث: روز غريب 0 ط 1. دار المكشوف - بيروت 1971.
- ثقافة الناقد الأدبي: محمد النويهي 0 ط 2. دار الفكر - بيروت 1969.
- جمال الدين يحيى بن مطروح (حياته وشعره)، ت 592-649هـ. تح: عوض محمد صالح. ط 1. منشورات جامعة قار يونس - بنغازي 1995.
- جمع الجواهر في الملح والنوادر: أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني. تح: علي محمد البجاوي. ط 1. دار إحياء الكتب العربية - 1953.
- جمهرة أشعار العرب: أبو زيد القرشي. المكتبة التجارية الكبرى - مصر 1926.
- الحب العذري (نشأته وتطوره): د.أحمد عبد الستار الجواري. دار الكتاب العربي - مصر 1948.

- الحب المثالي عند العرب: د.يوسف خليف. سلسلة اقرأ بالقاهرة رقم (220).
- الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام: محمد سيد كيلاني. مط دار الكتاب العربي- مصر 1949.
- حضارة الإسلام: جوستاف ا.فون جرونباوم. نقله إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد. ط1. دار مصر للطباعة- مصر 1953.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (عصر النهضة في الاسلام): ادم متز. نقله إلى العربية محمد الهادي أبو ريذة. دار الفكر العربي. مطابع الفاروق - 1999.
- حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها: محمود إبراهيم. ط1. دار البشير - عمان 1987.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: الحافظ أبي نعيم بن عبد الله الاصبهاني. ط3- لبنان 1980.
- الحماسة البصرية: البصري. عالم الكتب- بيروت 1964.
- الحنين الى الاوطان: لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: تحد: طاهر الجزائري. ط2. المطبعة السلفية- القاهرة 1351 هـ .
- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: د.احمد احمد بدوي. ط2. دار نهضة مصر- مصر 1954.
- حياة صلاح الدين الأيوبي: د.احمد بيلي. المط الرحمانية- القاهرة 1345 هـ.
- الحياة والموت في الشعر الجاهلي: د.مصطفى عبد اللطيف جياووك. دار الحرية للطباعة- بغداد 1977.
- الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت 255 هـ. مط السعادة- مصر 1907.
- خريدة القصر وجريدة العصر: عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، ت597 هـ. قسم شعراء الشام، تحد: د.شكري فيصل. المطبعة الهاشمية- دمشق 1964-1955.

- القسم الثالث (الشعراء والأمراء من بني ايواب). 1968.
- قسم شعراء مصر: نشرة احمد أمين. شوقي ضيف. إحسان عباس. مط لجنه التألف والترجمة والنشر - القاهرة 1951.
- خزانه الأدب وغاية الأرب: تقي الدين أبو بكر المعروف بابن حجة الحموي المتوفى سنة 837هـ. ط1. المط الخيرية- القاهرة 1304هـ.
- خصام ونقد: د.طه حسين. ط2. دار العلم للملايين- بيروت 1960.
- دائرة المعارف: بطرس البستاني، ت 1883. مط المعارف- بيروت 1881.
- الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، ت 927هـ. تح: جعفر الحسيني. مط الترقى - دمشق 1948.
- دراسات في الأدب العربي في العصر الأيوبي (بحث الحماسة في شعر أسامة بن منقذ): د. ناظم رشيد. دار المناهج للنشر و التوزيع - الأردن 2004.
- دراسات في الحياة الاجتماعية في مصر في عصر سلاطين المماليك: د.سعيد عبد الفتاح عاشور. مكتبة النهضة- القاهرة 1959.
- دراسات في حضارة الإسلام: جب H.Gibb. ترجمة إحسان عباس وآخرين - بيروت 1964.
- دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: د.محمد كامل حسين. مط دار الكتاب المصري. دار الفكر العربي- القاهرة 1957.
- دلائل الأعجاز: الإمام اللغوي عبد القادر الجرجاني. تح: د.محمد رضوان الداية. د.فايز الداية. ط1 1983. ط2- دمشق 1987.
- دليل الناقد الادبي: د.ميجان الرويلي. د.سعد البازغي. ط2. المركز الثقافي العربي - 2000.
- دول الإسلام: الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي ت 746هـ. منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات- بيروت 1985.
- ديوان ابن الدهان: أبو الفرج مهذب الدين عبد الله بن اسعد الموصلي ت 581هـ. تح: عبد الله الجبوري. ط1. مط المعارف- بغداد 1968.

- ديوان ابن الساعاتي: بهاء الدين أبي الحسن علي بن رستم الخراساني ت604هـ. تحقيق ونشر أنيس المقدسي. الحلقة 12- بيروت 1938.
- ديوان ابن سناء الملك: تد: محمد إبراهيم نصر. دار الكاتب العربي- القاهرة 1968.
- ديوان ابن عُنين: أبو المحاسن شرف الدين بن نصر الله بن نصر بن عُنين، ت 630هـ. تد: خليل مردم بك. ط2. دار صادر- بيروت 1946.
- ديوان ابن الفارض : تد: د.إبراهيم السامرائي. دار الفكر للنشر والتوزيع- عمان 1985.
- ديوان ابن النبيه المصري: كمال الدين أبو الحسن علي بن محمد، ت 619هـ. تد: عمر محمد الأسعد. ط1. دار الفكر - 1969.
- ديوان أبي تمام: شرح وتعليق د.شاهين عطية. ط1. مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني- بيروت 1968.
- ديوان الابيوردي: تد: د.عمر محمد الأسعد. مطبوعات مجمع اللغة العربية- دمشق 1974.
- ديوان أسامة بن منقذ: تد: د.احمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد. المط الأميرية- القاهرة 1953.
- ديوان امرئ القيس: تد: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط3. دار المعارف بمصر (د.ت).
- ديوان بشار بن برد: جمعه وشرحه وعلق عليه الإمام محمد الطاهر ابن عاشور. طبع بمصنع الكتاب للشركة التونسية- الجزائر 1976.
- ديوان بهاء الدين زهير: دار صادر للطباعة والنشر- بيروت 1964.
- ديوان تاج الملوك الأيوبي: تد: د.محمد عبد الحميد سالم. ط1. هجر للطباعة والنشر- القاهرة 1988.
- ديوان جميل بثينة: تد: المحامي فوزي عطوي. ط1. الشركة اللبنانية للكتاب للطباعة- بيروت 1969.

- ديوان دعبل بن علي الخزاعي: تح: د.يوسف نجم. دار الثقافة- بيروت 1962.
- ديوان سبط بن التعاويذي: أبو الفتح محمد بن عبيد الله، ت 583هـ. تح: د.س. مرجليوث. مط المقتطف- القاهرة 1903.
- ديوان الشافعي: محمد بن ادريس. تح: زهدي يكن. مطابع دار الريحاني- بيروت 1962.
- ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، ت 662هـ. تح: د.عمر موسى باشا. المط الهاشمية- دمشق 1967.
- ديوان طرفة بن العبد: تح: د.علي الجندي. دار الفكر العربي- القاهرة (د.ت).
- ديوان عرقلة الكلبى: حسان بن نمير، ت 567هـ. تح: احمد الجندي. مط دار الحياة- دمشق 1970.
- ديوان عنتره: تح: محمد سعيد مولوي. المكتب الإسلامي- بيروت 1970.
- ديوان عماد الدين الاصبهاني: تح: د.ناظم رشيد. مط جامعة الموصل- الموصل 1983.
- ديوان فتیان الشاغوري: أبو محمد فتیان بن علي الاسدي، ت 615هـ. تح: احمد الجندي. المط الهاشمية- دمشق 1967.
- ديوان القاضي الفاضل: عبد الرحيم بن علي البيساني، ت 596هـ. تح: احمد احمد بدوي. ط1. مط دار الكتاب العربي. دار المعرفة- القاهرة 1961.
- ديوان المبشرات والقدسيات: عبد المنعم الجلياني. تح: د.عبد الجليل حسن عبد المهدي. دار البشر- عمان 1988.
- ديوان مجير الدين بن تميم: تح: هلال ناجي، د.ناظم رشيد. عالم الكتب- بيروت 1999.

- ديوان محمد بن حسن الوراق: تحد: عدنان راغب العبيدي. مط دار البصري- بغداد 1969.
- ديوان الملك الأمجد: مجد الدين بهرام شاه الأيوبي، ت 628هـ. تحد: د.ناظم رشيد. مط وزارة الأوقاف والشؤون الدينية- بغداد 1983.
- ديوان النابغة الجعدي: تحد: د.واضح الصمد. مط دار صادر- بيروت 1998.
- الرثاء: د.شوقي ضيف. ط2. دار المعارف- القاهرة د.ت .
- رحلة ابن جبير: أبو الحسن محمد بن جبير، ت 614هـ. مط دار صادر- بيروت 1964.
- الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم: وداد جاسم الجوراني. ط1. دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد 1998.
- الرسالة القشيرية: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري. تحد: عبد الحلیم محمود. محمد بن الشريف- القاهرة 1966.
- الروضتين في أخبار الدولتين: شهاب الدين ابن إبراهيم المقدسي الشافعي. مط وادي النيل- القاهرة 1288هـ.
- زبدة الطلب من تاريخ حلب: المولى صاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله ابن العديم، ت 660هـ. تحد: سامي الدهان. المط. الكاثوليكية في بيروت 1951.
- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام: عبد الإله الصائغ. دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد 1986.
- زهر الآداب وثمر الألباب: أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، ت 453هـ. تحد: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط4. دار الجيل- بيروت 1972.
- سنا البرق الشامي: اختصار الفتح بن علي البنداري. تحد: د.فتحية النبراوي. مكتبة الخانجي- القاهرة 1979.

- سنن ابن ماجه: الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، ت 275هـ. تح: محمد فؤاد عبد الباقي 1953.
- سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب: يوسف ميخائيل أسعد. الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة 1986.
- الشابي (حياته وشعره): أبو القاسم محمد كزّو- الدار العربية للكتاب 1984.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي، ت 1089 هـ. دار إحياء التراث العربي- بيروت د.ت.
- شرح ابن عقيل: بهاء الدين بن عقيل، ت 769هـ. ط14. مط السعادة- مصر 1964.
- شرح ديوان ابن الفارض: جامعه رشيد بن غالب من شرحي الشيخ حسن البوريني، والشيخ عبد الغني النابلسي. طبع باه شريف- 1389هـ.
- شرح ديوان الحماسة: أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي. ط2. مط لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة 1967.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: تح: د. احمد طلعت. ط1. دار القاموسي الحديث. دار الفكر للجميع- بيروت 1968.
- شرح ديوان علقمة، طرفة، عنتره: تح: نخبة من الأدباء. دار الفكر للجميع- بيروت 1968.
- شرح ديوان كعب بن زهير: الدار القومية للطباعة والنشر- 1965.
- شرح الزرقاني: محمد بن عبد الباقي الزرقاني، ت 1122هـ. ط1. دار الكتب العلمية- بيروت 1411هـ.
- شرح سقط الزند آثار أبي العلاء المعري: الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة 1946.
- شرح المعلقات السبع: الإمام أبو عبد الله الحسين الزوزني، ت 486هـ. المط التعاونية. المكتبة الأموية- دمشق 1963.
- شعر تأبط شراً: تح: سلمان داود القره غولي، جبار تعبان جاسم. مط الآداب في النجف الأشرف 1973.

- شعر الخوارج: تح: د.إحسان عباس. دار الثقافة- بيروت 1923.
- الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي: عدنان حسين العوادي. دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد د.ت .
- الشعر والصوفية: كولن ولسون. ترجمة: عمر الديراوي أبو مجلة. ط2. دار الآداب- بيروت 1979.
- شعراء أمويون: د.نوري حمودي القيسي. مؤسسة دار الكتب. جامعة الموصل- العراق 1976.
- الشعر بين الواقع والإبداع: صبيح ناجي القصاب. دار الرشيد للنشر - بغداد 1979.
- شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام: د.محمد علي الهرفي. ط3. مؤسسة الرسالة- بيروت 1980.
- شعر سابق البربري: تح: د.بدر احمد ضيف. دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية 1987.
- الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي: د.علي جواد الطاهر. مط المعارف- بغداد 1958.
- الشعر العربي المعاصر، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية: د.عز الدين إسماعيل. دار الكاتب العربي- القاهرة 1967.
- الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد 547-656هـ: عبد الكريم توفيق العبود. دار الحرية- بغداد 1976.
- الشعر العراقي في القرن السادس الهجري: مزهر عبد السوداني. دار الطليعة- بيروت 1980.
- الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: د.شفيق محمد عبد الرحمن الرقب- جامعة مؤتة د.ت.
- الشعر والشعراء: ابن قتيبة الدينوري، ت276هـ. دار الثقافة- بيروت 1964.

- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: احمد بن إبراهيم الحنبلي، ت876هـ. تحد: د.ناظم رشيد. وزارة الثقافة والفنون- بغداد 1978.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أبو العباس احمد بن علي القلقشندي، ت821هـ. المؤسسة المصرية العامة- القاهرة د.ت .
- الصحة النفسية /دراسات في سيكولوجية التكيف/: مصطفى فهمي. مكتبة الخانجي- القاهرة 1976.
- صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت256هـ. دار إحياء التراث العربي- بيروت د.ت .
- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، ت 256هـ. تحد: د.مصطفى البقا. ط3. دار ابن كثير، اليمامة- بيروت 1407هـ.
- الصلابة والفتوة في الإسلام (سلسلة أقرأ رقم 111): احمد أمين. دار المعارف- مصر 1952.
- الصورة الفنية في شعر أبي تمام: د.عبد القادر الرباعي. ط1. جامعة اليرموك- اربد 1980.
- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري: د.علي البطل. ط2. دار الأندلس- 1981.
- ضحى الإسلام: احمد أمين. ط10. دار الكتاب العربي- بيروت 1936.
- طبقات الصوفية: السلمي- القاهرة 1953.
- طريقة التحليل النفسي والعقيدة الفرويدية: رولان دالبييز. ترجمة: د.حافظ الجمالي. ط2. المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بغداد 1984.
- طوق الحمامة في الألفة والألاف: الإمام أبو محمد علي بن حزم الاندلسي. تحد: د.نصر مزيد محمد، د.عبد العزيز محمد، د.محمد فهمي. مط الفجالة الجديدة- د.ت .
- ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر: عبد المنعم ماجد. دار المعارف- الاسكندرية 1976.
- العبقرية والجنون: يوسف ميخائيل اسعد. مكتبة غريب د.ت .

- علم النفس والادب: د.سامي الدروبي. ط2. دار المعارف د.ت .
- العمدة في محاسن الشعراء وادابه ونقده: ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني ت 456هـ. تح: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط5. دار الجيل- بيروت 1981.
- عيار الشعر: أبو الحسن محمد بن طباطبا العلوي، ت322هـ. تح: د.طه الحاجري، د.محمد زغلول سلام. شركة فن الطباعة- القاهرة 1956.
- الغصون اليناعة في محاسن شعراء المائة السابقة: أبو سعيد علي بن موسى الاندلسي، ت685هـ. تح: إبراهيم الابياري. مط دار المعارف- بمصر 1945.
- الفاضل في صفة الأدب الكامل: محمد بن احمد بن اسحق المعروف بالوشاء ، ت 325هـ. تح: يوسف يعقوب مسكوني. وزارة الإعلام- الجمهورية العراقية 1976.
- الفتح القسيّ في الفتح القدسي: العماد الكاتب الاصبهاني، ت597هـ. تح: محمد محمود صبيح. الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة 1965.
- الفتوحات المكية: ابن عربي الحاتمي الطائي. مط دار الكتب العربية الكبرى- مصر د.ت .
- الفكر طبيعته وتطوره: د.نوري جعفر. الحلقة الأولى. ط2- بغداد 1977.
- فن الشعر: د.احسان عباس. دار بيروت للطباعة والنشر- بيروت د.ت.
- الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية: داود بن عيسى الأيوبي، ت656هـ. تح: د.ناظم رشيد . مط دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد 1992.
- فوات الوفيات: محمد بن شاکر الكتبي ، ت764هـ. تح: د.إحسان عباس. دار الثقافة- بيروت 1974.
- في الأدب الجاهلي: د.طه حسين. لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة 1927.
- في النقد و الأدب (العصر العباسي): ايليا الحاوي. دار الكتاب اللبناني- بيروت د.ت .

- قصة الحضارة: ول.ديورانت . ترجمة: محمد بدران. لجنة التأليف والترجمة والنشر - الشرق الأقصى د.ت .
- قصة الإنسان: كارلتون كون. ترجمة:توفيق حسين، عبد المطلب الامين. مط اسعد- بغداد 1965.
- قصص الأنبياء: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير. تد: احمد عبد العزيز. مكتبة الثقافة- عمان 1981.
- قضايا الشعر المعاصر: نازك الملائكة- بيروت 1981.
- قضايا في الأدب والنقد: د.ماهر حسن فهمي. دار الثقافة- الدوحة 1986.
- الكامل: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد. مط نهضة مصر بالفجالة- القاهرة د.ت .
- الكامل في التاريخ: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي كرم- ابن الأثير ت630هـ. تد: د.علي شيري. ط1. دار إحياء التراث العربي- بيروت 2004.
- كتاب أسرار البلاغة: الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني. تد: هـ.ريتر. ط2. مكتبة المثني- بغداد 1979.
- كتاب أغانى: أبو الفرج الاصبهاني علي بن الحسين ت356هـ. مصور عن مطبعة دار الكتب (مطابع كوستا تسوماس) د.ت.
- كتاب جمهرة الأمثال: الشيخ أبو هلال العسكري. تد: محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش. ط1. المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر- 1964.
- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: تقي الدين أحمد بن علي المقرئ. صححه ووضع هوامشه: محمد مصطفى زيادة. مط دار الكتب المصرية- القاهرة 1934.
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): تصنيف: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري. تد: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. ط1. دار إحياء الكتب العربية- 1952.

- كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: الشيخ ناصيف اليازجي. المط الأديبة- بيروت 1305هـ.
- كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار: تقي الدين أبو العباس احمد بن علي المقرئ، ت845هـ. دار صادر (طبعة بالأوفست)- بيروت د.ت
- كتاب النكت العصرية، في أخبار الوزراء المصرية: القاضي الفقيه نجم الدين أبو محمد عمارة اليمني، ت 569هـ. مط مر سو- باريس 1897.
- كُتب خلق الإنسان مع تحقيق كتاب غاية الإحسان في خلق الإنسان: السيوطي، ت911هـ. تح: دنهاد هوبي صالح. مط التعليم العالي في الموصل 1989.
- كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس: إسماعيل بن محمد العرجوني. تح: أحمد القلاش. ط4. مؤسسة الرسالة- بيروت 1405هـ.
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية (الطبقات الكبرى): زين الدين محمد عبد الرؤف المناوي 952-1021هـ، تح: محمد أديب الجادر. دار صادر- بيروت د.ت.
- الكواكب الدرية في السيرة النبوية: تقي الدين أبو بكر بن محمد بن قاضي شهبه، تح: د. محمود زايد. دار الكتاب الجديد- بيروت 1971.
- لباب الآداب: الأمير أسامة بن منقذ، ت 584هـ. تح: أحمد محمد شاكر. مكتبة المثني ببغداد (طبعة بالأوفست)، المط الرحمانية بمصر - القاهرة 1935.
- اللزوميات: أبو العلاء المعري. تح: أمين عبد العزيز الخانجي. منشورات مكتبة الهلال- بيروت، مكتبة الخانجي - القاهرة 1342هـ.
- لسان العرب: الإمام أبو الفضل جمال الدين، ابن منظور. المجلد 9. دار صادر- بيروت 2000.
- اللمع: السراج الطوسي، تح: عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور- مصر 1960.

- ماهية الحروب الصليبية: د.قاسم عبده قاسم. مط السياسة- الكويت 1990.
- المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر: ضياء الدين بن الأثير، ت637هـ.
- تح: د.أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة. مط مكتبة نهضة مصر- القاهرة 1960.
- مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطوسي. ط2. /كتابخروش إسلامية/- تهران 1379هـ.
- مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، ت 807هـ. دار الريان، دار الكتاب العربي- بيروت 1407هـ.
- المدائح النبوية في أدب القرنين السادس و السابع للهجرة: د. ناظم رشيد. مط دار الشؤون الثقافية- بغداد 2002.
- المدائح النبوية في الأدب العربي: زكي مبارك. دار الكاتب العربي للطباعة و النشر- القاهرة 1935.
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: تصنيف العلامة شمس الدين أبي المظفر يوسف الشهير بسبط ابن الجوزي، ت654هـ. ط1 مط مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد- الهند 1951.
- المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد بن أحمد الابشيهي، ت 850هـ. مط وأوفست منير، المكتبة التجارية- بغداد د.ت.
- المسند الجامع: د. بشار عواد معروف، السيد أبو المعاطي محمد وآخرون. مطبعة الأوقاف و الشؤون الدينية- بغداد 1986.
- مشكلة الإنسان: د.زكريا إبراهيم. دار مصر للطباعة- مصر- د.ت.
- مشكلة السرقات في النقد العربي: د.محمد مصطفى هدارة. المكتب الإسلامي- بيروت 1981.
- مصنف بن أبي شيبة: أبو بكر بن أبي شيبة الكوفي، ت235هـ. تح: كمال يوسف الحوت. مكتبة الرشد- الرياض د.ت.
- المعجم الأوسط: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ت 360هـ. تح: طارق بن عوض الله الحسني. دار الحرمين- القاهرة 1415هـ.

- معجم السفر: الحافظ صدر الدين بن أبي طاهر السلفي. تد: د. بهيجة الحسني. مط دار الحرية- بغداد 1978.
- معجم علم النفس: د. فاخر عاقل. دار العلم للملايين- بيروت 1971.
- المعمرون و الوصايا: أبو حاتم السجستاني، ت 250هـ. تد: عبد المنعم عامر. دار إحياء الكتب العربية- القاهرة 1961.
- مفتاح العلوم: السكاكي. مط البابي الحلبي- القاهرة 1937.
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، ت 697هـ. تد: د. جمال الدين الشيال. ج1 مط إحياء التراث القديم- القاهرة 1953، ج3 مط دار القلم- القاهرة 1960، ج4 و ج5 تد: د. حسين محمد ربيع. مط دار الكتب- 1977.
- المفصل في تاريخ الأدب العربي: أحمد الاسكندري، أحمد أمين وآخرون. مط مصر- مصر 1943.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي. دار العلم للملايين(بيروت)، مكتبة النهضة- بغداد 1978.
- مقدمة العلامة ابن خلدون: دار إحياء التراث العربي. ط4 بيروت- لبنان د.ت.
- مُعيد النعم ومبيد النقم: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ت 771هـ. طب. دار الكتاب العربي- القاهرة 1948.
- المنهل الصافي و المستوفي بعد الوافي: جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردى، ت 874هـ. ج1، ج5 تد: د. نبيل محمد عبد العزيز- القاهرة 1985، 1988. ج4. تد: محمد محمد أمين- القاهرة 1986.
- الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، ت 231هـ وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحر ت 284هـ: تصنيف الإمام أبي الحسن بشر بن يحيى الأمدي ت 370هـ، تد: محمد محيي الدين عبد الحميد- 1944.
- الموت و العبقريّة: عبد الرحمن بدوي. الناشر وكالة المطبوعات- الكويت- دار القلم- بيروت 1945.

- موطأ مالك: مالك بن أنس الأصبحي، ت 179هـ. تح: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي- مصر د.ت.
- موقف الشعر من الفن و الحياة في العصر العباسي: د. محمد زكي العشماوي. دار النهضة العربية للطباعة و النشر- بيروت 1981.
- النثر الفني في القرن الرابع: زكي مبارك. دار الكاتب العربي للطباعة- القاهرة د.ت.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة: أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، ت874هـ. المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الطباعة و النشر د.ت.
- نظرية الأدب: رينيه ويليك، ترجمة محيي الدين صبحي. المجلس الأعلى لرعاية الفنون و الآداب و العلوم الاجتماعية. ط1 1984، ط3 1962.
- النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري: د. هند حسين طه. دار الرشيد للنشر. وزارة الثقافة و الإعلام- بغداد 1971.
- نظريات الشخصية: ك. هول، ج. لنذري. ترجمة: د. فرج أحمد فرج، قدري محمود خفي، لطفي محمد فطيم- الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر 1971.
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقري، ت1041هـ. تح: د. إحسان عباس. مط دار صادر- بيروت 1968.
- النقد الأدبي: أحمد أمين. ط2، مط لجنة التأليف و الترجمة و النشر- القاهرة 1957.
- نقد الشعر: أبو الفرج قدامة بن جعفر. تح: كمال مصطفى. ط3 مط الدوجي، مكتبة الخانجي- القاهرة 1978.
- نقد الشعر في المنظور النفسي: د. ريكان إبراهيم. ط1. دار الشؤون الثقافية- بغداد 1989.
- النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب و اللغة: د. محمد مندور- دار نهضة مصر للطبع و النشر د.ت.

- نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص: إيليا سليم الحاوي. دار الكتاب اللبناني للطباعة - بيروت د. ت.
- نهج البلاغة: شرح الإمام محمد عبده. دار التعارف للمطبوعات بيروت - لبنان د. ت.
- النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية: بهاء الدين ابن شداد، ت 632هـ. تح: د. جمال الدين الشيال. الدار المصرية للتأليف و الترجمة - القاهرة 1964.
- الهجاء و الهجاؤون في صدر الإسلام: د. محمد محمد حسين. دار النهضة العربية للطباعة و النشر - بيروت 1970.
- هل عشت قبل هذه الحياة: رونالد هابارد، إعداد وليد ناصيف. دار الكتاب العربي - دمشق 1983.
- الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، ت 764هـ. دار النثر فرانزشتاينر - 1969.
- وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي: حياة جاسم. دار الحرية للطباعة - بغداد 1972.
- الوساطة بين المتتبي وخصومه: القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، ت 392هـ. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي. دار القلم - بيروت 1966.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، ت 681هـ. تح: د. إحسان عباس. مط دار صادر - بيروت 1972.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، ت 429 هـ. تح: محمد محي الدين عبد الجميد. مط السعادة - القاهرة 1956.

الرسائل الجامعية:

- ابن عنين (حياته وشعره): عامر خلف طعمة. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة) - جامعة بغداد/ كلية الآداب 1988.
- البطل في شعر الحروب الصليبية (589-489هـ): عاصم عبد دواح. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة) - جامعة بغداد/ كلية التربية ابن رشد 1988.
- التصوير الشعري عند ابن المعتز: سنية احمد محمد. (رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة) - الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب 1989.
- الحياة و الموت في القرآن الكريم: احمد عبد الجبار فاضل. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة) - جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات 2000.
- الحياة و الموت في الشعر العربي في صدر الإسلام و العصر الأموي: حميدة حسن نعمة. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة) - جامعة بغداد/ كلية الآداب 2001.
- الحياة والموت في الشعر العباسي في القرنين الثاني و الثالث الهجريين: هشام فاضل محمود. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة) - جامعة بغداد/ كلية الآداب 1984.
- داود بن عيسى الأيوبي (حياته وشعره): ناظم رشيد. (رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة) - جامعة بغداد/ كلية الآداب 1981.
- ديوان ابن دنينير اللخمي: جاسم محمد جاسم. (رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة) - جامعة بغداد/ كلية الآداب 1987.
- ديوان الأبله البغدادي: سعاد جاسم محمد. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة) - جامعة الموصل/ كلية الآداب 1985.
- ديوان راجح الحلبي: أميرة محمود عبد الله. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة) - جامعة الموصل/ كلية الآداب 1987.
- رثاء النفس في الشعر الاندلسي من عصر الامارة حتى عصر بني الاحمر: اسراء عبد الرضا عبد الصاحب. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة) - جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات 2001.

- الزمن في شعر أبي العلاء المعري: إبراهيم مسلم لفته. (رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة)- جامعة بغداد/ كلية التربية (ابن رشد) 1997.
- سبط ابن التعاويذي (حياته وشعره): نوري شاكر الألوسي. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة)- جامعة بغداد/ كلية الآداب 1975.
- الشعر عند بني أيوب (648-567هـ): عاصم عبد دواح. (رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة)- جامعة بغداد/ كلية التربية ابن رشد 1995.
- الشعر في الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ (660-606هـ): عثمان امين صالح. رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة. جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات 1997.
- الشيب والهزم في الشعر العربي قبل الاسلام: هدى هادي عباس. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة). جامعة بغداد. كلية الآداب 1994.
- الصورة الفنية في نقد الشعر العربي الحديث: بشرى موسى صالح. (رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة)- جامعة بغداد/ كلية الآداب 1987.
- صورة المجتمع العراقي في القرن السادس للهجرة من خلال كتاب خريدة العراق: سعاد جاسم محمد. (رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة)- جامعة الموصل/ كلية الآداب 1993.
- مرآة القادة المسلمين حتى نهاية العصر الراشدي: طرّاف طارق النهار. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة)- جامعة /كلية 2000.
- المكان عند شعراء بني ايوب: نضال عبد الجبار حسوني. (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة)- جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات 2003.
- هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الاموي: عبد الرزاق خليفة. (رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة)- جامعة بغداد/ كلية الآداب 1997.

### المجلات والدوريات:

- آداب الرافدين، العدد الثامن، آب 1977. مقال للدكتور ناظم رشيد بعنوان "النشاط العلمي والأدبي في عهد الأسرة الأيوبية".

- الثقافة الأجنبية، السنة الثانية، العدد2، 1982.مقال لودزيميريا ولوزوك، ترجمة: د.محمد متولي عن البولونية: "فلسفة الوعي بالزمن وأثرها في العمل الأدبي".
- عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الثاني. 1977. مقال لصفوت كمال بعنوان "مفهوم الزمن بين الأساطير و المآثرات الشعبية".
- قضايا عربية، العدد الخامس، 1978. مقال للدكتور محمود عبد الله الجادر بعنوان: "البعد الإنساني في قيم التراث الحضارية" . ومقال للدكتورة نجوى الحافظ بعنوان " الشخصية العربية: سماتها ومقوماتها".
- موسوعة برنستون للشعر، السنة الثامنة، العدد الرابع، 1988. مقال ترجمة د.نايف العجلوني د.خالد سليمان بعنوان: "الصورة الفنية".

### المصادر الأجنبية:

- Ehrenkreutz, Andrew S. "Saladin". Albany State University of New York, 1972.
- Hamilton A.R. Gibb. "The rise of Saladin". In Hamilton A.R. Gibb, "Saladin in Islamic History"; Edited by Yusuf Ibish (Beirut, Arab institute for Research and Publishing),1974.
- Stanly Lane- Poole, "*Saladin and the fall of Kingdom of Jerusalem*". Beirut- Khay Yat, 1964.
- William of Tyre, "A History of Done beyond The Sea", tr. By C.A Babcock and A.C. kwey; new York, Columbia University Press, 1943.

### الانترنت :

- الشبكة الإسلامية، 2002/11/10 (الأحد)،

الموقع على الانترنت [www.islamweb.htm](http://www.islamweb.htm) عنوان الصفحة:  
(المسيحية والسيف) وثائق تاريخية عن فظائع الحروب الصليبية.